

مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
زهير الشايب
السماء تمطر ماء جافا

السماء
تمطر ماءً جافاً

تصميم الغلاف : جودة خليفة

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هذه الفصول

منذ قامت الوحدة بين مصر وسوريا فى فبراير (شباط) ١٩٥٨ ثم انفصمت عراها فى ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٦١ على يد الحركة الانفصالية السورية ، وهناك صمت مطبق وعجيب حول هذه التجربة الخطيرة فى حياة العرب عامة وحياة وأقدار المصريين منهم على وجه الخصوص ، فحين تكون العلاقات العربية طيبة – وهذا هو الاستثناء – تجد من يقول لك : لماذا ننبش فى هذه التجربة المريرة ونعكر الصفو العربى . لماذا هذه الأيام بالذات ؟ ؟ وحين تصبح العلاقات العربية مليئة بالخلافات والمشاحنات – وهذه هى القاعدة – تجد من يقول لك إن شئون العرب فى حالة من السوء لا تحتاج معها إلى مزيد ، فلماذا الإصرار على أن تصب الزيت على النيران الملتهبة ؟ وكانت محصلة ذلك ألا نقرب هذه التجربة مطلقاً باعتبارها نوعاً من «التابو» العربى برغم خطورة ذلك من نواح شتى . .

وكان لابد من كسر هذا الحاجز من الإرهاب المزعوم الذى صنعناه بأنفسنا لأنفسنا وسجنا فيه عقولنا . . فكان هذا الكتاب .

ومع ذلك فليس هذا كتاباً فكرياً برغم أن الفكر يلعب دوره الكبير ، كما أنه ليس عملاً سياسياً ، على الرغم من أن السياسة ركيزته ودعامته ، ولكنه بالأحرى عمل أدبى ، إن لم يكن رواية ملامس لها فى نسجها وفى مبناها .

زهير الشايب

الفصل الأول

فى انتظار الغيث

قامت الوحدة « رسميا » بين مصر وسوريا فى ٢٢ من فبراير ١٩٥٨ ، وكنت وقتها فى بدء حياتى العملية مدرساً فى مدرسة عمرو بن العاص الإعدادية ، وهى القسم الإعدادى من مدرسة الفسطاط الثانوية بمصر القديمة ، وانفصمت عرى هذه الوحدة فى ٢٨ من سبتمبر ١٩٦١ وكنت وقتها مدرساً بمدرسة عثمان الحورانى الثانوية بمدينة حماة ، ومن قبلها بمدرسة سلمية الثانوية طيلة العام الدراسى ١٩٦٠ - ١٩٦١ ، وهكذا شاءت لى الأقدار أن ألمس عن قرب وكمواطن عادى عن طريق الاحتكاك الذى هيأته المهنة - بعض ماينبغى أن يقال حول هذا الموضوع الحيوى ، موضوع الوحدة والانفصال الذى لم تقترب منه الأقلام ، ولم تستخلص منه الدروس الواجبة .

لست أزعم لنفسى هنا دور المؤرخ ، كما لاأدعى لنفسى دوراً غير عادى ، وأكرر أنها تجربة مواطن عادى ليست لديه أسرار مذهلة ، وإنما لدى تجربة أكاد أرى فى عرضها بعض الفائدة ، وإننى أقدمها هنا بتجرد وصدق ، أوهكذا أحاول بقدر ماتطيق نفوس البشر ، الأمارة بالسوء .

وعلى الرغم من أننى لم أتخيل وقتها أننى سأدلى بهذه الشهادة بعد مضى هذا الوقت الطويل ، ومن ثم فإننى لم أدون أية مذكرات عن هذه الفترة الهامة - فإننى على يقين أن الذاكرة لن تضللنى ؛ فلقد كانت تجربة ساخنة احتلت لنفسها مكاناً لايتزحزح فى ذاكرتى ووجدانى .

وثمة تحفظٌ مبدئى هام هو أن هذه تجربة مجموعة صغيرة من البشر ، عاشوا فى جزء ضئيل من أرض التجربة الواسعة ، أرض الوطن ، وقد تكون تجربة مجموعة أخرى من الناس فى جزء آخر من هذا المكان تختلف حتى تتناقض هى ومايروى هنا . ومع ذلك فيظل من الضرورى أن نُقدم هذه التجربة الجزئية . . فهى ستلقى - ولابد - ضوءاً كاشفاً على هذه التجربة القومية الهامة . وعلى الرغم من التحفظات السابقة فإنه يظل من المفيد فى مجالنا هذا أن نحاول التأريخ لبعض الأحداث السابقة على قيام الوحدة : ذلك أنه من العسير أن تنفصل الظواهر والأحداث . إن أمراً بالغ الخصوصية قد يكون وثيق الصلة بأشد الأمور عمومية بل وبالغ التأثير فيها ؛ كما أن حياة الأفراد - برغم مبادراتهم وحريتهم وطموحاتهم . . إلخ - تتشكل أو على الأقل تتأثر كثيراً بالظروف العامة التى يحيون فى ظلها ، وستظل حياة الفرد على الدوام هى محصلة ذلك الأخذ والرد بين ما هو خاص وما هو عام . .

كان تأميم قناة السويس . عقب رفض إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية تمويل السد العالى هو الدوى الهائل الذى أيقظ المنطقة بل رجها رجًّا . . وكانت مصر من قبلها قد قامت بدور هام فى مكافحة حلف بغداد ، والوقوف فى وجهه رفضاً منها للأحلاف عقب حصولها على الجلاء التام من جانب الإنجليز بمقتضى معاهدة أكتوبر ١٩٥٤ ، التى كانت تنص برغم ذلك على حق إنجلترا فى العودة إلى احتلال القاعدة فى القناة واستغلال مطارات وطرق وسكك مصر الحديدية

وموانيها ، إذا تعرضت إحدى الدول العربية أوتركيا للغزو (من جانب الاتحاد السوفيتى بداهة) .

وعلى الرغم من الجدل الكبير الذى يمكن أن يثور حول هذا الموقف من مصر ضد حلف بغداد غداة توقيعها لمعاهدة الجلاء فى أكتوبر ١٩٥٤ - فإننا قد نلمس هنا بلاجدال عزم مصر - لامحاولاتها فقط - على التنصل من معاهدة لم تجد بدًّا من توقيعها ، وليس سراً أن نصوصها قد تعرضت للنقد العنيف فى الداخل ؛ كما أنها بالقطع لم تكن ترضى طموحات قادة ثورة يوليو . .

ولكن على الرغم من ذلك الدور النشيط الذى وقف فى وجه حلف بغداد ، وجعله أمراً شائناً ماساً بالاستقلال الحقيقى ، وعلى الرغم من أن دولاً عربية هامة فى المنطقة كسوريا والأردن قد تجاوبتا والموقف المصرى - فإن الدور الحقيقى والذى حسم زعامة مصر - عبد الناصر للمنطقة ، كان تأميم قناة السويس . وبدأ تقارب كبير بين هذه الدول الثلاث ، وتظل لبنان دوماً لها ظروفها الخاصة .

وانتهت حرب ١٩٥٦ بزيادة التضامن الفعال بين هذه الدول ، كما أضافت رصيداً هائلاً لمصر ، بل لعبد الناصر شخصياً ، بحيث بدأ يتحول إلى زعيم قومى ، وبدأ المواطن العربى فى كل مكان يعلق صورته فى بيته ومكتبه .

وهكذا بدأ عبد الناصر فى صورة الزعيم الروحى . . بل الذى يشارك كل حاكم عربى فى سلطته حيث يحوز فى كل بلد ولاء قد يفوق ولاء بعض أبناء هذا البلد لحاكمه نفسه !

كان التنسيق تاماً بين الدول الثلاث المحيطة بإسرائيل ، وانتهى الأمر بتوقيع اتفاقيات دفاع مشترك ثنائية بين مصر وسوريا ثم بين مصر والأردن (أولعله اتفاق ثلاثى) وفشلت مهمة تمبلر فى الأردن ، بل بلغ الأمر هناك حدًّ أن طرد

الملك حسين الجنرال جلوب العتيد . . وفى هذه الأثناء تجرأت البحرين فقذفت مظاهراتها سلوين لويد بالطوب !

ولاننسى أن مصر فى هذه الأثناء كانت تحصل منذ نهاية ١٩٥٥ على الأسلحة من الكتلة الشرقية ، كما أن دور الاتحاد السوفيتى بدأ يظهر فى المنطقة منذ صفقة الأسلحة هذه ، وزاد هذا الدور بعد الموقف المتعنت من دول الغرب من تأميم القناة ، حيث كان شبيلوف – إلى جانب كريشنا مينون ممثل الهند – المدافع الحقيقى عن وجهة نظر مصر التى تغيبت عن المؤتمر .

ومن جانب آخر فقد كانت مصر مع يوغوسلافيا والهند قد بدأت تدعو للحياد الإيجابى الذى يعنى رفض الأحلاف فى كل صورها . . وفى الوقت الذى رحب فيه الاتحاد السوفيتى بهذه السياسة ، سياسة الحياد – كان دالاس يرى أن الحياد غير ممكن ، وأنه موقف لاأخلاق ، وأن من ليس معنا فهو علينا . وزاد العداء ضد عبد الناصر . وبدأت تصوره الدعاية الغربية على أنه شيوعى يجلب النفوذ الروسى إلى المنطقة ، وزادت زعامة عبد الناصر قوة . .

ولاننسى كذلك أنه فى هذا الوقت كانت ثورة الجزائر قد اشتعلت ودور مصر فى مساندتها معروف ؛ وكانت إرادة شعب المغرب قد انتصرت ، وعاد إلى عرشه الملك محمد الخامس بعد تنحية السلطان المزيف محمد بن عرفة ؛ كما كانت السودان قد حصلت على استقلالها منذ ١٩٥٣ . .

وبدأت القومية العربية تتعاظم ويتعاظم معها دور مصر – عبد الناصر ، وعلى الرغم من مواقف كثيرة من الأنظمة العربية من ذلك الدور فإن دور عراق – نورى السعيد ، يظل هو أبرز الأدوار المناوئة ، بل والمعادية . .

وفجأة ، والأمور وردية على هذا النحو – قام الملك حسين بانقلابه الشهير ، فأقال وزارة سليمان النابلسى ، وحل مجلس النواب فيما أذكر ، ولجأ

رئيس أركان حربه على أبو نوار إلى مصر ، ومن بعده رئيس الأركان الجديد اللواء على الحيارى ، وكذلك لجأ إليها فائق السامرائى سفير العراق . . وبدأت القاهرة دورها النشيط فى إيواء اللاجئين السياسيين أو « المناضلين » العرب ، وأخذ الأمر يتطور حتى أصبحت القاهرة تكاد تغرى هؤلاء « المناضلين » على اللجوء إليها ؛ حتى أصبح اللجوء السياسى فيما بعد مهزلة ، بل حرفة حقيقية فى سوق النخاسة السياسية ؛ كما سنرى .

ولا يفوتنى أن أسجل أنه مع تعاظم المد العربى . وبروز زعامة القاهرة بلامنازع - أننى كنت أقرأ بين الحين والآخر شكوى بعض (المواطنين) العرب التى يطالبون فيها بإلغاء تأشيرة الدخول إلى القاهرة مدينتهم ومدينة كل عربى . .

وبدأ تقارب أردنى - عراقى بين البيتين الهاشميين فى عمان وبغداد ، ولم يعد من الصعب أن تدخل الأردن حلف بغداد ، لكن العقبة كانت فى سوريا التى زاد تقاربها مع مصر بعد انقلاب القصر الذى دبره الملك حسين فى عمان ، وبدأ التقارب يأخذ شكل تلاحم عضوى - برغم الفاصل الجغرافى - وكانت القيادة السياسية فى مصر لا تفتأ تكرر : كيف أن دمشق أعلنت « هنا القاهرة » عندما ضربت محطة إذاعة مصر فى أثناء عدوان ١٩٥٦ ، بل إن سوريا قد عرضت الدخول فى هذه الحرب مباشرة فى ذلك الوقت لولا أن رفض عبد الناصر لحكمة وبعد نظر . .

كيف إذن بدأ هذا التلاحم العضوى بين البلدين؟ لابد أن تتذكر ذلك التركيز الضخم على سوريا والذى بدأت تمارسه كل من تركيا والعراق لدرجة أن حشدت كلتاهما جيوشها على حدود سوريا بدعوى أن سوريا توشك أن تسقط فى أيدى الشيوعيين .

وهكذا كانت سوريا محاصرة من كل جانب : الأردن من الجنوب والجنوب

الشرق وإسرائيل من الجنوب الغربى ، والعراق من الشمال الشرق وتركيا من الشمال والشمال الغربى . . ولم يكن لها من حدود آمنة إلا مع لبنان ، بظروفه الخاصة . . بل لقد أخذ كل من عدنان مندريس فى تركيا ونورى السعيد فى العراق يتحدثان عن الضرورة التى ستلجئهما إلى غزو سوريا ، وتحرك جزء من القوات المصرية لتتخذ مواقعها على الحدود السورية – التركية ، وأكدت مصر بذلك الإجراء العملى أن أى عدوان على سوريا عدوان على مصر . .

لكن الأمور لم تنفرج ، وبدأنا نقرأ فى كل يوم أن المكتب الثانى فى سوريا بقيادة الضابط الصاعد عبد الحميد السراج قد اكتشف مؤامرة أمريكية حتى كدت أتخيل أن المؤامرات تأتى إلى الرجل « صاغرة » لكى يكتشفها . . ومع ذلك ظل ٩٠٪ من الجيش العراقى يحتشد على حدود سوريا ، وظلت تصريحات نورى السعيد تتوالى . .

ها هو ذا الجيش المصرى إذن يقف على حدود سوريا وتركيا ، ويلامس اللواء السورى السليب ، لواء الإسكندرونة ، وبدأنا نسمع عن وفود قادمة من سوريا إلى مصر تعرض الوحدة بين البلدين : أظروف سوريا إذن هى أم الإيمان بالوحدة العربية ، أم الأمران معاً ؟ ومع ذلك فإذا كنا نستطيع أن نطرح سؤالاً هنا ، فإن هذا ليس هو مجال الإجابة التى هى ولا شك عويصة وتحتاج إلى دراسة واستقصاء . .

بدأت تتردد على صفحات الصحف كل يوم أسماء السراج وأكرم الحورانى وصلاح البيطار وعفيف البزرى وشكرى القوتلى بالطبع ، وفى الأيام السابقة على قيام الوحدة كان اسم عفيف البزرى على رأس كل الأسماء .

وفوجئت كمواطن يتابع أخبار بلده بأن (خالد بكداش) الزعيم الشيوعى ، وعضو مجلس النواب السورى يقاطع الجلسة التى أقرت الوحدة ،

بل ويغادر ، قيل ويفر ، من سوريا كلها ، ويلجأ إلى الاتحاد السوفيتى ، الذى لم يخف امتعاضه لقيام دولة الوحدة حتى كان هو – فيما أذكر – آخر دولة اعترفت بها !

وأسمح لنفسى هنا بأن أخرج عن التسلسل الذى التزمته لأذكر أن أول قرار اتخذه الرئيس عبد الناصر بوصفه رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، هو قبول استقالة عفيف البزرى الذى قام بهذا الدور البارز فى محادثات الوحدة ، وقيل تفسيراً لذلك : إنه شيوعى .

إن السؤال يفرض نفسه حقًّا : إذا كان عفيف البزرى شيوعيًّا فلماذا لم يسلك سلوك خالد بكداش وكان هو فى وضع أكبر تأثيراً بكثير ، بحكم أنه كان قائدًا للجيش السورى ؟

على أن السؤال الذى سيظل يشكل لى لغزاً كبيراً هو ذلك الموقف الغريب لكل من الدولتين العظميين : لماذا يتحفظ الاتحاد السوفيتى على قيام دولة الوحدة بين بلدين يعاديان حلف بغداد الموجه ضده ؟ ولماذا تسارع الولايات المتحدة التى تشجب سياسة عدم الانحياز وتعترض على مجىء السلاح الروسى إلى المنطقة والتى تلجأ أجهزة الدعاية التى تمولها هى ودول الغرب وقتئذ إلى التهجم على عبد الناصر وتصفه بأنه شيوعى؟ لماذا تسارع ومن بعدها دول الغرب بالاعتراف بقيام دولة الوحدة ؟ ولماذا يكون أول قرار لرئيس دولة الوحدة هو استبعاد قائد الجيش السورى لأنه شيوعى ؟ ولماذا لم تبد تركيا أى تحفظ على قيام دولة قوية على حدودها وهناك مشكلة اللواء السليب على الأقل ؟ . . ولماذا يسقط من يد نورى السعيد فلا يجد حركة يقوم بها سوى إقامة الاتحاد العربى بين العراق والأردن ليواجه بذلك دولة الوحدة الفتية ؟

إن هذه مجرد أسئلة تطرح لمجرد محاولة الفهم ، وإذا كان لها من دلالة هنا

فإنها تدل فيما تدل على تعقد وتشعب الشئون والعلاقات الدولية ! لذا ينبغى علينا أن نترك هذا المجال الواسع حتى لانضل لنعود إلى الحيز الضيق الذى اخطته لنفسها هذه المذكرات أوهذه الشهادة . .

وافق مجلس الأمة المصرى بالإجماع على قيام دولة الوحدة التى « تصون ولاتبدد ، تحمى ولاتهدد ، تشد أزر الصديق وترد كيد العدو » . . وكانت هذه الكلمات الفخيمة موضوعاً لآلاف الموضوعات الإنشائية التى طلبها زملائى مدرسوا اللغة العربية من تلاميذهم فى حصص الإنشاء . .

لم يبق إذن لقيام دولة الوحدة سوى إجراء الاستفتاء الشعبى . . ويحق للمرء أن يتساءل : مامعنى استفتاء على أمر أقرته المجالس النيابية بالإجماع وهى التى نشأت فى الأصل بتفويض واختيار من الشعب نفسه ؟ . . لكننا هنا ، نلمس الحرص الدائب من المسئولين فى كل الأمور المصيرية على استلهام رأى الشعب ، القائد ، والمعلم والملهم إلى آخره ، إلى آخره . .

من العام إلى الخاص :

أدرك تماماً صحة الحكمة القائلة إن « الأنا » كريهة بل مثيرة للكراهية ، ومع ذلك فإننى أظن أن من الضرورى أن أقول بعض الشىء عن نفسى باعتبارى راوياً للأحداث التى ستلى ذلك . . وإن ذلك لمهمة شاقة ، فليس فى الأمر أى نرجسية أوتباه ، بل هو أشبه مايكون بأن يعرى الإنسان نفسه طواعية أمام غيره ، ومع ذلك فتحرى الموضوعية هو الدافع الحقيقى وراء ذلك ، بل هو الدافع الوحيد ، فالحجم الذى ستعطاه الأحداث والتفسيرات الشخصية وكذا التبريرات التى ستقدم فى مناسبات عدة تعود بالضرورة إلى الذات التى تفعل ذلك : أى إلى تركيبها السيكلوجى مع عدم الانتقاص من أهمية العوامل

الأخرى ، وبالتأكيد فلو أن هناك شخصية أخرى مكانى لكان رد فعلها إزاء الأحداث مخالفاً ، وبالإضافة إلى هذا فثمة ضرورة فنية تقتضى ذلك حتى نتجنب عمليات التذكير والتكرار . .

كنت قد حصلت على دبلوم المعلمين الخاصة من معهد شبين الكوم فى عام ١٩٥٧ ، وكنت فى الوقت نفسه أواصل دراستى فى السنة الثالثة بكلية الآداب . وبدأت هكذا مبكراً حياتى العملية كمدرس . كنت أصغر أعضاء هيئة التدريس فى هذه المدرسة الكبيرة إذ لم أكن قد جاوزت الواحدة والعشرين من العمر بعد ، وعلى هذا النحو وجدتنى (فجأة) زميلاً لمن هم فى عداد أساتذتى ، وظللت فترة لاأستطيع هضم الأمر ، وعلى هذا النحو كذلك وجدتنى ملزماً أن أسلك سلوكاً مسئولاً ، فى الوقت الذى يرتع فيه أبناء سنى – ومن بينهم تلاميذى أنفسهم – بكامل حريتهم .

وأعتقد أننى أميل إلى الانطواء منى إلى المشاركة ، ويغلب على طابع العزلة أكثر مما يغلب طابع الاندماج ، هل يعود ذلك إلى نشأتى الريفية وإلى انتقالى المفاجئ للعيش فى هذه المدينة الضخمة بما فيها من قيم وتقاليد مختلفة ؟ كلا فالأمر يعود إلى طبع حقيقى وإن كانت الظروف الجديدة قد جاءت لتزيد هذا الطبع قوة ، وأعترف أننى برغم ذلك ، وأنا فى حالة الصمت والتأمل هذه كنت أسعى على الدوام للنفاذ إلى أعماق من يحيطون بى ، وأعتقد أننى فهمت الكثير من نفوس المحيطين بى – ولم يسلم من ذلك عزيز أوغال – وإن كنت قد ظللت على الدوام أعانى – بسبب طباعى الأخرى – من ذلك التناقض بين الداخل والخارج ، بين الفهم والسلوك ، وكم من مرة بدوت غرًّا ساذجاً أمام غيرى أوفى سلوكى ، على حين أنى أحيط بكل الأمور على نحو دقيق .

ومن هذه الناحية فقد أساء الكثيرون – ولايزالون – إلى ، لذا فقد يكون

هؤلاء أيضاً قد فوجئوا من ناحيتي بردود فعل لم تكن متوقعة من جانبي ، وفى الوقت الذى ألوم فيه غيرى على سلوكه غير الطيب نحوى فإننى أنحى أيضاً باللوم على نفسى ، إن الدنيا فى جوهرها شد وجذب وصراع ، والإنسان فى حياته فى معركة حقيقية أدرك ذلك أم لم يدرك ، وعندما يتناسى هو ذلك فإن الآخرين لاينسون . . وفى الوقت نفسه فالناس يعاملونك المعاملة التى ترضاها أنت لنفسك – بل لقد تعلمت أن الناس مستعدون لإعطاء فرد ما أكثر مما يستحق مادام يلح فى ذلك ، وفى الوقت نفسه يغمطون غيره حقه الواضح لأنه هو قد غمط نفسه حقها . .

معذرة لهذا البوح الذى اضطررت إليه اضطراراً ، وعذرى فى ذلك أمام نفسى أولاً أننى بصدد شهادة أوذكريات تؤدى فيه هذه التركيبة النفسية دوراً كبيراً . .

ألاماأشد تعقد الأمور والظواهر على نحو لم نكن – قبل أن نخوض فيها – ندركه . . !

هكذا أدليت بصوتى :

غداً إذن سيعلن قيام دولة الوحدة ، وياله من حدث ! لقد تم الاستفتاء عليها أمس ، وحيث يسمح لنا بالإدلاء بأصواتنا أمام أية لجنة انتخابية ، إذ هو استفتاء عام ، فقد تكاسلت عن السفر إلى قريتى ، وانتهزت فرصة العطلة للتسكع فى شوارع وسط العاصمة التى تحرمنى مسئوليات المهنة رؤيتها ، كانت شوارع الجيزة أقل ازدحاماً من الأيام العادية بدرجة خفيفة . وكانت وسائل المواصلات مريحة لازحام فيها ، وفى الميدان سمعت كلمات حماسية تصدر عن مكبر صوت ، ويبدأ الصوت يقترب ، ووجدت إلى جوارنا ونحن فى الأتوبيس

عربة لورى مملوءة بالهاتفين ، واللافتات تحيط بالعربة من كل مكان : نعم للوحدة نعم لعبد الناصر . . أخى المواطن ، توجه إلى صناديق الاستفتاء . . كانت واحدة من العربات التى سيرتها لجان الاتحاد القومى (الاتحاد الاشتراكى فيما بعد) تيقنت كأن الأمركان يحتاج بعد إلى تأكيد . أن الأمر صحيح ، وظل الناس بجوارى ينظرون إلى عربة اللورى ، وعندما ابتعدت العربتان عاد الركاب إلى صحفهم ، وسمعت سيدة ترتدى الزى البلدى تسأل عن سر هذه الضجة (هو فيه حرب تانى ياحبيبى ؟ يارب استر) ضحكنا جميعاً وتولى أحد أبناء الحلال شرح الأمر ، وبررت السيدة مخاوفها بأولادها الثلاثة الذين فى الجيش ، وقلب الأم كما تعلمون و . . وعند المدرسة السعيدية لاحظت جمهرة صغيرة ، لجنة استفتاء بالطبع ، وسارت من الاتجاه المقابل عربة لورى أخرى ، مملوءة برجال يرتدون الملابس البلدية البيضاء ويهتفون يادمال . . يادمال . . (أى ياجمال ياجمال) ، فكرت أن أنزل لأنتهى من الإدلاء بصوتى ، لكننى آثرت الذهاب إلى وسط البلد .

جلست على مقهى بميدان التحرير كان الراديو يذيع أغانى الظفر ونداءات التحرك نحو المجد والزحف نحو العظمة . وكان الصوت عالياً لحد يبعث على الإزعاج ، لكن صحف الصباح ذات المانشتات العريضة ترقد على الموائد أو تشرع ليقرأها حاملوها دون انفعال ، ولدهشتى الشديدة كانت العيون تجرى وراء صفحات الحوادث والرياضة ، وعلى الرغم من الوقت المبكر كان النرد يروح ويجىء بين لاعبين متناثرين فى المقهى ، وكان النادل يتحرك بالطلبات فى صمت . . ويظل صوت الراديو يطن حاثًّا القوم على مواصلة الزحف نحو الهدف الكبير . بدأت أرشف الشاى وطويت صحيفتى وجلست أتأمل من حولى وماحولى .

وفجأة تحول الهدوء إلى ضجة شديدة وميكروفونات وكلمات ملتهبة ، وتعرفت فى اللوريات وعربات الكاميون على مسيرات العاملين بالهيئات والوزارات التى ينظمها الاتحاد القومى الذى كان من قبل هو هيئة التحرير . وجاءت عدة لوريات تهتف هى الأخرى لـ « دمال » ، وسأل أحد الجالسين فجأة عن أقرب مقر انتخابى وسمعت من يدله : دار القضاء العالى . . ودون أن أدرى وجدتنى أنهض .

عبرت شوارع كثيرة ، كانت اللافتات والأعلام تطل على الوجهات وحركة البيع والشراء نشيطة بالداخل ، وبين حين وآخر كانت اللوريات واللافتات والهتافات تملأ الشوارع الهادئة بضجة شديدة تتطلع إليها العيون ، ثم يبدأ خفوت الضجة حتى تتلاشى ، ويسترد الناس نظراتهم ويعودون إلى ما كانوا فيه . .

أحقًّا ستقوم الوحدة غداً ؟ مالهؤلاء الناس ؟ كانت الساعة قد اقتربت من الثانية ، وكان ينبغى أن أدلى بصوتى حتى لايفوتنى الإسهام فى ذلك الحدث الكبير ، ووجدتنى مسوقاً إلى دار القضاء العالى . .

وكان ثمة جمهرة تماثل تلك التى رأيتها حول باب المدرسة السعيدية بالجيزة ، هيأت بطاقتى الشخصية وبطاقة الانتخاب الصفراء ، ودخلت أبرز البطاقتين للجنة فأعطانى رئيسها ورقة الاستفتاء .

أشار لى إلى ساتر فى أحد الجوانب . كان يلتف حول الساتر مايزيد على ستة أوسبعة أشخاص من بسطاء الحال كما تنطق هيئتهم وملابسهم ، وكان هناك ضابط لحفظ النظام ، ولاحظت أن الجميع يدلون بأصواتهم أمام الساتر لاخلفه ، ويساعدون بعضهم بعضاً فى تسويد دائرتى الـ « نعم » للوحدة ولعبد الناصر ، ووجدتهم الواحد بعد الآخر ، يبرزون بطاقة الاستفتاء لحضرة

الضابط . . كان الرجل يتظاهر بالنظر إليها ويغمغم بكلمات روتينية . . وحان دورى . . ووجدتنى أنا أيضاً لم أستعمل الساتر ، وأكثر من ذلك أريه أننى أيضا من الموافقين . . كان رقيقاً معى ، وشعرت بعد أن سلمت البطاقة لرئيس اللجنة بندم شديد . .

ماذا يقول تلاميذى لو علموا أنى فعلت ذلك ؟ بل ماذا سيقول زملائى وأساتذتى بالمعهد الذين كنت أصدعهم بجدلى ونقاشى وقبل ذلك كله لماذا فعلت مافعلت ؟ هل فعلت ذلك متأثراً بسلوك من سبقونى ؟ هل خفت أن يرانى الضابط مخالفاً « للمعتاد » ؟ وهل كان الأمر على هذا النحو على الدوام ؟ هل وجدت أَنْ لاغضاضة فى الأمر مادمت أوافق عن يقين لاعن رهبة ؟ ولماذا حقاً أوافق ؟ هل آن الأوان لهذه الوحدة ؟ وكيف تنهض وحدة بين بلدين بينهما هذا الفاصل الجغرافى الكبير ؟ . . وتيقنت أننى أخدع نفسى فأطرق موضوعات كبيرة لأدارى ذلك الخطأ الذى وقعت فيه . أهكذا أنت ؟ وأكثر من ذلك عجبت من هذه الأسئلة النشيطة التى تلاحقنى بعد أن قضى الأمر ! نعم لماذا لم أسأل نفسى من قبل سؤالاً واحداً من هذه الأسئلة الكبيرة ؟ وهل هذه حالى وحدى أوحال الكثيرين ؟

وكان من العسير أن أجد جواباً مريحاً ، أو أن أبوح بما كان منى لأحد .

تنبيهات هامة :

كان الاجتماع فى حجرة الناظر قصيراً . . وكان وجه الأستاذ جبران متجهما وصارماً . كان يبالغ فى صرامته ليخفى سمة من المرح والفكاهة عرف بهما بين المدرسين ، وحتى يأخذ قوله ما يليق من اهتمام .

– غداً ستأخذون الأولاد إلى ميدان عابدين . سيعلن سيادة الرئيس قيام

الوحدة . من الساعة السابعة ستكونون جميعاً هنا . لن يقبل أى عذر . وسأبلغ عن المتخلف .

– الساعة السابعة !

– مادام الأمر كذلك – نأخذها (إجازة) عارضة .

رد بحزم يتفق مع خطورة الموقف :

– التعليمات التى لدى واضحة وصريحة ، لاتقبل هذا اليوم إجازة من أى نوع ، عارضة أوحتى مرضية . . ولانقاش أكثر من ذلك . . وانفض الاجتماع .

فى حجرة المدرسين قرب ممدوح زميلى الطيب مقعده من مقعدى ، قال متهلل الوجه ، مزهوًّا :

– غداً سنرى عبد الوهاب . . شخصيًّا .

دهشت لهذا المنطق . ألايرى الزميل فى كل ماسيحدث غداً إلاأنه سيرى عبد الوهاب ؟ كنت أعرف المناسبة : فالصحف أيامها كانت تتحدث عن الغد وكأنه تحقق بالأمس ، لكننى آثرت أن أجاريه فى منطقه ، فقلت :

– ياه ! عبد الوهاب بحاله . ليه ؟

وشرح ممدوح بجدية وزهو . ، وأفاض فى توضيح كل ماأعرفه :

سيقف عبد الوهاب بين كورس من أجمل فتيات المدارس ، سيغنى نشيد الوحدة ، سيردد الكورس ، ونردد نحن فى الميدان . مليون واحد على الأقل سيرددون النشيد . والحفل يذاع على الهواء . فى بقية أنحاء القاهرة وفى كل مدن مصر وقراها سيتجمع الناس حول أجهزة الإذاعة . هذه هى التعليمات سيرددون نشيد الوحدة . مصر كلها ستردد فى وقت واحد نشيد الوحدة . هل تتخيل ذلك ؟ سيكون مشهداً مهيباً .

جرفتنى حماسته فقلت : مشهداً مهيباً فعلاً !

ولم لاأنجرف ؟ أليس هذا الجانب الغنائى الدعائى جانباً أصيلاً فى مسيرتنا نحو العروبة والمجد والنصر نفسه ؟ ووجدتنى فى شوق أنتظر الصباح لأحظى أنا أيضا فى مناسبة إعلان الوحدة الرائدة . . أول خطوة على طريق الوحدة الشاملة برؤية موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب . .

إلى ميدان عابدين :

حدثت المعجزة ، وانتهى ذلك الأمر السخيف على نفسى ، أن أصحب تلاميذ أكبر منى جسماً ، وأن أسير إلى جوارهم باعتبارى أستاذاً لهم . . ووصلت مسيرة مدرستنا إلى باب اللوق جلست مع الأستاذ عبد المحسن . . فى أحد المقاهى . . وأحاط بنا بعض « أبنائنا » التلاميذ الذين عملوا من جانبهم كل مابمقدورهم لراحتنا ، فأحضروالنا الفطور وأوصوابالطلبات . . وليس هناك فى الحقيقة من يفوق التلاميذ المصريين رقة عندما يقابلونك –كأستاذ لهم– خارج حجرات الدرس ، وخجلت عندما تذكرت ماكان منى يوم أمس فى لجنة الاستفتاء . .

وفى الساعة التاسعة توجهنا – التزاماً بتعليمات الأستاذ جبران – إلى ميدان الجمهورية وسط عشرات ، بل مئات الألوف . . لايمكن أن يكون هنا ناظر ومنطقة وتعليمات ، وبمقدورى لو شئت أن أعود أدراجى . . لكن هذه رغبة لم تراودنى ، من ذا يطاوعه قلبه فلا يشاهد هذه اللحظة التاريخية . .

كانت صحف الصباح قد نشرت بالخط العريض ، نتيجة الاستفتاء فى مصر : ٩٩,٩٪ على الوحدة وعبد الناصر معا بل أذكر أن عبد الناصر قد حاز أصواتاً أكثر مما حازته الوحدة ببضع عشرات من الأصوات ، وكان يشغلنى أمر أراه الآن شكلياً ، ولكننى عددته وقتها ذا أهمية كبيرة ، كان المفروض فى رأيى

ألاندعى إلى ميدان الجمهورية للاحتفال بقيام الوحدة إلابعد ظهور نتيجة الاستفتاء وإلا فما العمل لوكان الاستفتاء لغير مصلحة الوحدة ؟ . .

على كل حال ، هذه نتيجة مصر – والحمد لله – تعلن ، فهل أُعلنت نتيجة سوريا ؟ هذا ماشغلنى ونحن ندخل الميدان الكبير .

أفقت على سوط كاد ينزل فوق رأسى ، جذبنى الأستاذ عبد المحسن بعيداً وعجبت أن يكون ثمة جنود يحملون سياطاً فى مناسبة كهذه ، لكنى سرعان مانسيت ، يبدو أننا جئنا متأخرين فالميدان على سعته يضيق بمن فيه من طلاب المدارس والجامعات (وكذلك المدرسون والأساتذة) وقفنا فى آخر الميدان من جهة حى عابدين ، وبدأت ترن فى آذاننا أصوات مكبرات الصوت التى تبشر بقيام الوحدة بعد أن وافق عليها الشعبان بالإجماع .

هل أعلنت نتيجة سوريا الآن ؟

سألت الأستاذ عبد المحسن فلم يسمع ، وآثرت أن أنتظر ، فجأة وجدت يدا تضغط على كتفى ، تلفت ، وكان ممدوح زميلنا مدرس اللغة الإنجليزية يحاول وهو يشرئب أن يرى عبد الوهاب ، ابتسمت ولاطفته ، وانصرفت إلى متابعة مايدور ، وعادت مكبرات الصوت تتحدث عن الموافقة الإجماعية .

هل أعلنت نتيجة سوريا ؟

ولم يرد الأستذ عبد المحسن ، وتسلط السؤال على لدرجة عجيبة ، وفى المرة الثامنة – بدون مبالغة – فوجئت به ينفجر فى غيظ ، كأننى تلميذ صغير يستحق التأنيب والزجر . .

ياأخى اسكت . . « شايف الميدان مليان بالمباحث والمخابرات وتصر على السؤال » . .

المباحث والمخابرات ؟ لم أكن غرًّا لحد أن أظن الميدان خالياً منهما ، لكن

لماذا فى مناسبة كهذه ؟ وهل قلت مالاتحمد عقباه ؟

– هل أخطأت عندما . . ؟

– أيوه اسكت .

وابتعد عنى وقال ممدوح ناصحاً :

– ياعم خد بالك من نفسك .

– وهل أذنبت ؟

– أنت حر . . نصحناك .

وتشبثت به حتى لا يبتعد . وشعرت أنى صغير ، أننى لا أزال تلميذاً صغيراً بين مدرسيه ، وكتمت كل سؤال فى نفسى ، وعلى غير انتظار ، أعلنت نتيجة الاستفتاء فى سوريا : ٩٨,٩٪ « فيما أذكر » . . هكذا شاءت سوريا أن تبدى « تشددها وتطرفها » المعهودين من أول لحظة فجاءت نسبتها أقل من مصر بـ ١٪ « بحاله » . . لابد أن سوريا تنوى لنا الكثير . .

لحقت بالأستاذ عبد المحسن وقد شعرت الآن أنى كنت محقاً فى سؤالى ، ولكن لاداعى للجدل هنا كما قال ، بل ولاداعى للنقاش فى هذا الأمر مطلقاً ، وربطت بين ماقال وماحدث منى أمس فى لجنة الاستفتاء ، ووجدتنى أشعر براحة حقيقية للتفسير الذى وهبه الرجل لى دون أن يدرى ، لسلوكى أنا الغريب فى لجنة الاستفتاء . . لماذا استنكر ماحدث منى أمس إذن ؟ هاهى ذى المباحث والمخابرات منبثة فى كل مكان ، كما يقول الرجل المحنك ، الداهية .

واستمرت الوقائع الرسمية لإعلان الوحدة ، وألقى عبد الناصر كلمة قصيرة على غير ماكان منتظرًا ، وحاول عبد الوهاب جهده أن ينجح ، لكن فتيات الكورس المحيطات به لم يكن على درجة طيبة من التدريب . .

هكذا لم ينجح نشيد عبد الوهاب ، فلم نردده نحن فى الميدان ، ولارددته

بقية أحياء القاهرة التى تلتقط الإذاعة معنا ، ولارددت مصر كلها نشيد الوحدة كما قال أمس ممدوح . .

وهكذا استحال فى ذلك اليوم أن يشدو الصوت العذب .

فأخلى مكانه ، كسيفاً وجلاً ، لهتافات اللوريات ، وضجة مكبرات الصوت . .

زيارة فى المساء :

جاءنى فى مساء اليوم صديقى وزميلى وبلدياتى أحمد . . وكانت صحف الصباح قد نشرت وقائع الاحتفال . . والنتائج الرسمية للاستفتاء والقرارات التى اتخذها رئيس الجمهورية العربية المتحدة ، وتناقشنا فى موضوع إعفاء عفيف البزرى من منصبه .

وسأل : هل هو حقاً شيوعى كما يقال ؟

قلت له : يبدو أن هناك أموراً كثيرة لانفهمها .

– أبداً . . الأمر لايتعدى هذا الشيوعى .

– سوف نرى . .

وسألنى فجأة :

– لماذا لم تأت إلى البتانون ؟

– تكاسلت أعطيت صوتى هنا .

– سألوا عنك .

تنبهت .

– هل حرروا لى محضر غياب ؟ أعطيت صوتى هنا فى دار القضاء العالى وبطاقة الانتخاب معى تؤكد ذلك . .

– اطمئن . . لم يحرر محضر لأحد فى البلدة كلها . كانوا جميعاً حاضرين بما فيهم أنت ! وكلكم بالطبع موافقون . . وضحك .

كانت هذه أشد صدمة فى الأمر كله ، تمالكت نفسى وكظمت غيظى ، ووجدتنى بعد انصرافه أمزق بطاقة الانتخاب الصفراء . . ولم أحاول بعد ذلك تجديدها . وهكذا لم أشارك منذ هذه المرة فى انتخاب أواستفتاء .

عبد الناصر فى دمشق :

كانت مفاجأة الصباح حقا هى الإعلان عن وصول الرئيس الراحل إلى دمشق . . كانت مفاجأة للجميع حتى لقد قيل : إن العاملين بمطار دمشق لم يكن لديهم خبر مسبق بالأمر ، وفوجئوا بنزول الرئيس من الطائرة ، على الفور انتشر الخبر فى كل أنحاء دمشق وجميع أنحاء سوريا ، وزحفت الجماهير الهادرة إلى قصر الضيافة . . لم أكن هناك ، لكننى أتذكر مانشرته الصحف . وعلى الرغم من التغطية الإذاعية الممتازة التى نقلت إلينا صدى وصورة هذا الوصول فإن الصور المنشورة فى صحف الصباح كانت أكثر بلاغة وأكثر مقدرة ، كانت دمشق لاتزال فى شتائها الثلجى القارس . . وبرغم ذلك فقد أحاط بالقصر ألوف : نساء يحملن أطفالهن ، وشيوخ يصحبون حفدتهم وصغيراتهم ، وشبان تسلقوا أعمدة النور وقمم الأشجار . .

يستحيل أن تكون هذه مسيرات الاتحاد القومى الذى لم ينهض بعد ، ومحال أن تكون طوابير مدارس سيرت بأوامر من المناطق التعليمية ، كان كل شىء طبيعيًّا وتلقائيًّا وحارًّا برغم الرياح والصقيع ، ترى هل نحن المصريين لانبالى بالأحداث ؟ هل نحن جامدون ، أوأننا كنا متحفظين بشأن الوحدة ، أوهى تجربتنا التاريخية المريرة التى تجعلنا نتوقع بعد كل ضحكة نكدًا وهمًّا . فعاهدنا

النفس ألا انفرح مطلقاً أوأن ذلك أمر طبيعى حين يفقد الناس المبادرة وتأتى إليهم القرارات من أعلى؟ ونسبة الـ ٩٩,٩٪ . . إذن ؟

– رأيت كيف استقبل السوريون عبد الناصر؟

– نعم . .

– استقبالات رائعة ، مارأيك ؟

– رائعة حقاً .

– . . لكننا لم نفعل شيئاً من ذلك هنا انظر إلى الصور . .

– رأيتها .

– لكن نحن لماذا لم نفعل مثلهم ؟

– ألم تكن معنا فى ميدان عابدين ؟

– يارجل ! . . هؤلاء جميعا طلاب وتلاميذ سيرتهم المناطق التعليمية . . بالأمر أوبتوع الاتحاد القومى !

ووجدتنى أتخذ منه الموقف نفسه الذى اتخذه منى الأستاذ عبدالمحسن بالأمس ، لكننى لكيلا أحرجه حاولت جهدى أن أغير الموضوع لكنه – وهو شخص بالغ الطيبة – ألح فى النقاش .

– اسمع . . أظن السبب أن السوريين هم الذين أرادوا الوحدة أكثر مما كنا نريدها !

فقدت كل تحفظ وقلت لممدوح :

– ومع ذلك فقد أصبحنا شعباً واحداً . ولتكن الوحدة لخيرنا معاً . .

وحتى اليوم تظل هذه الاستقبالات تمثل فى ذاكرتى كلما دار حديث عن تلك الأيام . وأظل على الدوام أربط بينها وبين تلك المكانة التى كانت لسوريا فى قلب عبد الناصر إلى آخر أيام حياته ، وأتذكر هنا ماقاله لسامى الدروبى فى

طرابلس وقت مباحثات الوحدة الرباعية بين مصر وليبيا وسوريا والسودان التى حضرها العراق أيضاً حين عبر عن أمنيته فى إعلان قيام الوحدة الرباعية من شرفة قصر الرياسة بدمشق .

لقد كان لهذه الاستقبالات الأسطورية أثرها بالفعل فى قلب الرجل حتى كانت سوريا تمثل نقطة ضعف فيه . . ولست أتوقف هنا عند مجرد الأثر العاطفى . . إذ إن لهذه العاطفة – وللعواطف الإنسانية عموماً – أثرها فى مئات التفصيلات الصغيرة . . وإذا كان المؤرخون والمنظرون العظام لايبالون بهذه التفاصيل بدعوى تفاهتها فى مقابل الأمور العظيمة والخالدة . . فإننى ليس عناداً أوحبًّا فى الاختلاف – أرى لهذه التفاصيل مكانة أكثر أهمية إلى حد كبير . .

أليست هذه التفاصيل بتجمعها تصنع الأمور الكبيرة ؟

أليست هى قبل ذلك وبعده هى التى تشكل حياتنا ؟

ألم يكن لها أثرها – بل كل الأثر – على حياتنا نحن المصريين البسطاء ؟

الخاص . . العام :

إذا كان الحديث غن النفس الذى سقته فيما سبق يظل خاصًّا بى كشخص فإن الحديث عن ظروف حياتى هنا لايتوقف على وحدى وإنما يمتد ليشمل جيلاً بأكمله ، بل وظروف مصر كلها .

فى عام ١٩٥٩ انتهيت من دراستى الجامعية بنجاح ، وأسعدنى الحظ أن وزارة التربية قد سوت حالتى الوظيفية فمنحت الدرجة السادسة فى أبريل من العام التالى مباشرة ، أما العلاوة الدورية التى كنت أستحقها فى مايو من العام نفسه فقد حصلت عليها بالفعل ، ولكن بحساب الدرجة الجديدة « العالية » وهكذا قفز مرتبى مرة واحدة من ١٤ جنيها إلى ١٧ جنيهاً وليس فى الأمر أية

سخرية على الإطلاق . .

ولكى تكون الأمور واضحة فلابد من وقفة قصيرة لتفسير الأمور :

كان الحاصلون على المؤهلات فوق المتوسطة (مثل معاهد المعلمين الخاصة) يعينون بالدرجة الثامنة فئة ١٢ جنيهاً ، أما خريجو الجامعات فكانوا يعينون بالدرجة السادسة فئة ١٥ جنيهاً فى الشهر . .

وكان تقدير هذه الفئات على هذا النحو يتم تبعاً لكادر جديد صدر بعد قيام الثورة « لتصحيح الأوضاع » وقبل ذلك كانت الفئات للدرجات السابقة ٩ ، ١٠ ، ١٢ جنيها فى الشهر على التوالى ، وكان الموظفون يمنحون إلى جانب ذلك مايسمى بعلاوة غلاء المعيشة . .

على هذا النحو كان يمكن أن يكون مرتبى عند بدء حياتى العملية « بالدرجة السابعة المتوسطة » ١٢ جنيها + علاوة غلاء المعيشة فيصل إلى مايقرب من ١٥ جنيهاً . لكن ماحدث أمر لايقدر أى إنسان - غير مصرى - على تصوره . لقد قررت الحكومة أن تخصم الزيادة التى حصل عليها الموظفون فى بدء درجاتهم (وهى فى حالتى ٣ جنيهات) من علاوة غلاء المعيشة تحت اسم خصم فرق الكادرين . هكذا وكأن العثور عن اسم لهذا المسمى كفيل بحل الإشكال وبإضفاء صفة الشرعية عليه . . وهذه النظرة الغريبة لم تتوقف على أمور كهذه فحسب ، بل كانت أسلوباً كاملاً يطبق فى مئات الحالات المماثلة وغير المماثلة .

وبمناسبة عيد ثورة يوليو فى عام ١٩٥٨ أى بعد الوحدة بأربعة أشهر قررت حكومة الثورة هدية منها للموظفين أولعل ذلك كان هدية أحد الأعياد الإسلامية لاأذكر ، أن تعيد للموظفين فارق الكادرين الذى يخصم منهم ، وكان معنى ذلك أن يزيد مرتبى جنيهاً ونصف الجنيه ، ليصل المبلغ بعد إضافة غلاء المعيشة إلى مايقرب من جنيهين . ولكن فى اليوم التالى مباشرة صرح وزير

المالية القيسونى بأن الحكومة سترد هذا العام نصف فرق الكادرين فقط ، وترد الباقى فى العام التالى . . واستردنا بالفعل النصف الأول وزاد مرتبى ومرتب أمثالى وهم ألوف مايقرب من ثمانين قرشاً فى الشهر . . وكم فرحنا بذلك فرحاً شديداً . لكن النصف الآخر من فرق الكادرين لم يرد لنا على الإطلاق ، وتناست الحكومة وعدها . ونسى الناس أنفسهم الأمر بعد أن أصبحوا جد مدربين على النسيان .

ومن جهة أخرى كانت الدولة لاتشجع الحصول على أى مؤهل عال فى أثناء الخدمة – وبلغ الأمر حد أن وزارة التربية وزعت منشورات سرية بتشتيت المدرسين المتسببين للدراسة فى الجامعات ، وكانت الجامعة بدورها تطالب بإقرار بعدم التوظف . .

وباختصار لو أننا اتهمنا جميعا بالتلفيق والتزوير فى أوراق رسمية لثبتت التهمة ، فلم يكن أمامنا لمواصلة طريقنا من سبيل آخر ، وترتيباً على ماسبق لم تكن وزارة التربية ولاغيرها من الوزارات تلتزم بتحسين حال الموظف الذى يفلت من كل هذا الحصار ويحصل على مؤهل عال . وترتب على ذلك أن ظل الكثيرون يعملون بالدرجات الدنيا برغم حصولهم على المؤهل الجامعى ، حتى صدر أول قرار لتسوية حالة هؤلاء ، بعد وعود وإلحاحات كثيرة ، فوجدت نفسى أتساوى أنا والحاصلون على المؤهل العالى عام ١٩٥٢ ، لذلك لابد أن أعتبر نفسى محظوظاً بل محظوظاً جدًّا . ألم يكن أمام هؤلاء بديل ؟

كان البديل الوحيد أن يعينوا تعييناً جديداً . . ولم يكن هذا متيسراً على الإطلاق لخريجى الكليات النظرية ، وبالذات كلية الآداب وكليات الأزهر : ذلك أن حكومة الثورة لم تكن حتى عام ١٩٦٢ تلتزم بتعيين خريجى الجامعات والمعاهد العليا أو الأدنى منها ، وهذا هو سر حرصى على مواصلة الدراسة بمعهد

المعلمين فى الوقت الذى كنت أدرس فيه نفسه بكلية الآداب . وهذا نموذج لمئات الحالات . .

إن القارئ بالطبع لايدرى كم تكلف قرار تسوية حالتنا الذى أنعش النفوس وأحيا الآمال ؟ إذا لم تخنى الذاكرة فإننى أزعم أنه تكلف ألفى جنيه (بالنسبة لقرارنا وحده الذى شمل حوالى مائة وعشرين حالة) وأستطيع أن أواصل زعمى فأقرر أن تسوية الحالة لكل العاملين بالتربية والتعليم لم تكن تتكلف على أعلى تقدير مايزيد على عشرة آلاف جنيه . . ومن نافلة القول أن أذكر أنه عندما صدرت قرارات التسوية كان كثيرون قد وصلوا بالترقية العادية للدرجة السادسة ، ومن ثم لم يستفيدوا شيئاً من قرار تسوية حالتهم .

عندما أتذكر هذه الأيام وأستعيد هذه الصور المقبضة ، وكيف كنا نعانى ، وكيف أن الدولة كانت تضن علينا بعشرة آلاف جنيه هى حق ثابت لنا بحجة ضغط الإنفاق ، عندما أتذكر ذلك وكثيراً غيره ، وأعلم الآن أن بلدى فى ذلك الوقت كان غنياً وقادراً — أعجب والألم يعتصر فؤادى من ذلك القدر المصرى — فى مقابل القدر الإغريقى — الذى قدر علينا نحن المصريين ! هل كتب علينا على الدوام أن نعيش فى حالة عوز وفاقة ؟ وإذا كنا نلتمس العذر اليوم للدولة بسبب تلك الإنفاقات الرهيبة على الحروب والتسليح . فكيف يمكننا أن نفهم ظروفها فى عام ١٩٥٨ وماقبلها . . عندما لجأت الدولة إلى طلب التبرعات لتسليح الجيش من أصحاب هذه الرواتب الهزيلة ؟ يالها من صورة كئيبة ! ولكم قدر علينا أن نعانى على الدوام !

هكذا إذن كنت محظوظاً فحصلت على جميع حقوقى وأكثر وقفز مرتبى كما قلت إلى ١٧ جنيها تزيد إلى ١٩ بعد عامين كاملين . .

لكن ماأكثر ماعلى من التزامات نحو الأهل ، والنفس ، ومطالب الحياة

كمدرس فى مدرسة ثانوية له مظهر ، أوينبغى أن يكون له مظهر محترم فى نفوس التلاميذ .

وهكذا . . أيضاً وجدت أن نهاية الطريق ليست نهاية المتاعب كما كنت أقول لنفسى وأنا أدرس ، بل بدايتها الحقيقية ، لامفر إلاأن نترك مصر . ولكن إلى أين ؟ . . ولايدرى الناس اليوم . ولعل كثيرين من جيلى لايعرفون أن حصاراً رهيباً كان مضروباً علينا ، فلانستطيع مغادرة البلاد ، نعم كانت البلاد لاتريد أن تدع المعادين لنظامها يخرجون منها . ولكن نحن . . كان علينا لكى نعمل بعقد فى أى بلد عربى أوغير عربى أن نلجأ لوسائل التزوير . . حقيقة لم تكن عاقبتها مأمونة على الإطلاق ، وقد لا أكون مخطئاً عندما أقرر أن موقف الدولة الغريب من منع أبنائها من السفر هذا لم يتغير إلابعد هزيمة ١٩٦٧ . .

يالها من أمور لايستطيع العقل استيعابها أوفهمها على الإطلاق ! ولكن ماذا كنت أستطيع أن أعمل لأفى بضروريات حياتى وبالتزاماتى التى لامفر منها ؟ ماذا أستطيع أن أفعل وأنا أستهلك نفسى وراحتى فى الدروس الخصوصية التى يحسدنا عليها الحاسدون ، والتى تعطلنى عن القيام بعمل أفضل . . وأن أبدأ هوايتى ككاتب أوحتى أن أطلع على كتاب مفيد ؟ وبدأنا نسمع ونقرأ عن كادر جديد سيصدر لتحسين الأوضاع . . ما المناسبة ياترى ؟ لكى تقل الفوارق ولو على نحو ضئيل بين مرتبات العاملين بالإقليمين أوبالبلدين اللذين أصبحا بلداً واحداً فالمرتبات إذن هناك كبيرة ، نعم بالنسبة لنا على الأقل . . أيمكننى إذن أن أسافر موفداً إلى هناك للعمل بالتدريس ضمن مدرسى الوزارة ؟

وتيسر لى ذلك بفضل معاونة مفتش . وكان رجلا طيباً يكن لى شعوراً أبويًّا حقيقيًّا . .

ومرة أخرى تأكد لى أننى محظوظ . .

وقد يكون مفيداً أن أقول ، إن هذا الكادر الجديد المزعوم لم يطبق إلا فى عام ١٩٦٤ بعد خمس سنوات من أحاديث وتصريحات متصلة ، وعندما طبق لم أفد منه شيئا . لاأنا ولاكل من كانوا فى مثل ظروفى ، ولا الجميع . .

محاولة للتأريخ مرة أخرى :

قبل أن نسافر معا إلى سوريا لابد أن نلم ببعض ماحدث على المسرح الدولى والعربى ، وماحدث داخل دولة الوحدة نفسها فلذلك كله تأثيره على الأحداث التى سوف نرويها . على الرغم من أننا سنتناولها من زاوية إنسانية محضة .

نحن الآن فى سبتمبر (آيلول) ١٩٦٠ ، ومنذ قيام الوحدة فى ٢٢ من فبراير ١٩٥٨ ، حتى الآن ، كان شريط الأحداث هنا وهناك يسرع بشكل غريب (ومرة أخرى فإننى أعتمد فقط على الذاكرة وإن كان هذا ليس تبريراً لأى أخطاء) .

كانت ثورة ١٤ من تموز (يوليو) فى العراق قد هشمت الاتحاد العربى الذى قام بين عمان وبغداد وبدا أن حلم الوحدة بين الجمهورية العربية المتحدة وجمهورية العراق يوشك أن يتحقق . . وبرز عبد السلام عارف كالرجل الأول فى ثورة تموز على اعتبار أن دور عبد الكريم قاسم كما كنا نحس من سياق الأحداث ، يماثل دور اللواء محمد نجيب فى ثورة مصر ، لكن الزعيم الركن أخذ يبدد حلم الوحدة وظلت محكمة المهداوى تستحوذ على اهتمام الجماهير العربية ، وبرز الشيوعيون كقوة هائلة فى العراق ، وتمكن الزعيم الركن من قمع ثورة الشواف بقسوة بالغة ، وأدى الصدام بين دولة الوحدة وبين نظام الزعيم الركن إلى فتور فى العلاقات بين عبد الناصر والاتحاد السوفيتى الذى كان قد بدأ بالفعل تنفيذ مشروع السد العالى وغيره من المشروعات الاقتصادية فى مصر . وحدث

ذلك الصدام المشهور بين عبد الناصر وخروشوف . . وفى هذه الظروف ازدادت حملة أجهزة الإعلام على الاتحاد السوفيتى والشيوعية معاً فأعيد طبع كتاب حقيقة الشيوعية وبيع بسعر رخيص (ثلاثة قروش) ، كما طبع كتاب مدعم بالصور عن ثورة المجر . وكان الشيوعيون المصريون قد أودعوا المعتقلات فى عام ١٩٥٩ .

وقبل ذلك كانت ثورة لبنان ضد كميل شمعون قد قامت ، وتدخل الأسطول السادس هناك ، وانتهى الأمر بأن استُبعد تجديد فترة حكم شمعون . وتولى الرئيس فؤاد شهاب رياسة الجمهورية هناك باتفاق ضمنى - بل يكاد يكون أكثر من ضمنى - بين الجمهورية العربية المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية . وقرب نهاية عام ١٩٦٠ كان كنيدى قد تم انتخابه رئيساً للولايات المتحدة .

كانت ثورة الجزائر تتعاظم ، مما أدى إلى انقلاب فى فرنسا ضد الجمهورية الرابعة .

وعلى المسرح الغربى جانب آخر منه : ذهب رينيه كوتى وجاء شارل ديجول مدعوما بالجيش الفرنسى ، وكانت علاقة وطيدة قد نشأت بين الملك محمد الخامس وعبد الناصر ، وكانت علاقة مصر بالسعودية بالغة السوء بعد اكتشاف مؤامرة على حياة عبد الناصر مولها الملك سعود وكشفها عبد الحميد السراج - وكان هو نفسه الذى حاول الملك سعود التآمر معه ، وزاد نجم السراج تألقا ، وكانت دولة الإمارات ودولة قطر ودولة البحرين لاتزال مجرد محميات ، أما ليبيا فكانت مجرد امتداد جغرافى هائل لا دور له ، وكان سودان - حزب الأمة لايكف عن التحرش بمصر ، ويثير نزاعات على الحدود معها إلى أن قامت ثورة إبراهيم عبود ، وجمدت الخلافات بين البلدين ، لكن العلاقات لم تبلغ مرحلة التعاون .

أما الملك حسين فقد عاد . بعد أن أفلت عرشه بفضل إنزال جنود المظلات البريطانيين فى الأردن غداة ثورة تموز ليدعى أنه زعيم أمة العرب .

أما اليمن فكانت ترتبط بـ ج . ع . م . فى وحدة ثلاثية شكلية وكانت عدن لم تستقل بعد .

كانت الوحدة قد بدأت تعانى من المتاعب . سواء من حملات بغداد وعمان المركزة على السوريين ، أو من نفور السعودية وتحفظها عليها . وفجأة قرأنا فى الصحف نبأ استقالة أربعة من أبرز رجال الحكم فى الإقليم السورى هم أكرم الحورانى نائب رئيس الجمهورية وصلاح البيطار وخليل كلاس (فيما أذكر) ويبقى اسم الرابع (ويبدو أنه مصطفى حمدون) . ومن عجيب الأمور أن كل هؤلاء ماعدا (صلاح البيطار) يضاف إليهم عبد الحميد السراج ينتمون إلى بلدة واحدة فى سوريا هى مدينة حماة التى سيقدر لى أن أعمل بها أوفى بلد تابع لها ، ماهو السبب ياترى ؟ قيل : إن عبد الناصر قد رفض محاولة هؤلاء الأربعة للوصاية على سوريا التى أعلنت عند قيام الوحدة حل الأحزاب بما فيها حزب البعث الذى ينتمى إليه هؤلاء والذى تراد له عن طريق هؤلاء الوصاية ليس على سوريا وحدها بل على دولة الوحدة كلها .

قبل عبد الناصر الاستقالة ولم يبق معه من السوريين سوى صبرى العسلى نائباً لرئيس الجمهورية وتولى عبد الحميد السراج رياسة المجلس التنفيذى فى الإقليم السورى . وكان صبرى العسلى ينتمى إلى الحزب الوطنى ، ولست أذكر الطريقة التى أقصى بها من مسرح الأحداث . فقد كان يتولى منصب نائب رئيس الجمهورية عندما ذهب للعمل هناك المهندس نورالدين كجالة ، وكان الطابع العسكرى يغلب على المجلس التنفيذى السورى برياسة السراج .

كانت سوريا تبدو لنا بأحداث من هذا النوع لغزاً غير مفهوم ، أوعلى أقل

القليل : فإن قيام الوحدة لم يجعلنا ، أويجعل المهتمين منا من عامة الناس أن يزداد فهماً . وعندما ذهب عبد الناصر إلى هناك بعد هذه الاستقالات توجسنا خيفة لكن الاستقبالات كانت أكثر حرارة وهى على الدوام حارة – بل إن مدينة حماة مسقط رأس كل هؤلاء قد فعلت مالم يحدث مطلقاً فى التاريخ ، إذ اندفع المستقبلون إلى عربة عبد الناصر فرفعوها بمن فيها تقديراً وامتناناً . وقيل : إن الناس هناك يكرهون حزب البعث – وبدأ حزب البعث يتردد باعتباره عدوًّا للوحدة هناك – ومصدر مضايقات للمصريين العاملين بسوريا كما سوف نرى .

طمأنتنا هذه الاستقبالات الأسطورية لكنها زادتنا حيرة ، نعم ، فبعد مايقرب من ثلاث سنوات من الوحدة لم نكن نعرف من سوريا سوى هؤلاء التجار حاملى « الشنطة » الذين ينزلون إلى الموانى وإلى القاهرة ليبيعوا « بضائع سوريا » من شرابات وملابس نسائية وبلوفرات وغيرها . . الذين يهددون عند أول احتكاك بهم « بشكيكو لعبد الناصر » . .

حقاًّ كانت تذهب من عندنا إلى هناك وفود وزيارات طلابية ، وكان يأتى من هناك زوار وتجار وأفواج طلاب لكن هذه الأمور ظلت برغم كل ذلك هامشية وقد لاأكون مغالياً إن قلت : إننا كشعب لم نحس بهذه الوحدة إلا من خلال هذه البضائع الاستهلاكية الرخيصة ، ولقد اكتسح الشراب السورى « الأول سايز » بالفعل المصنوع من الخيوط الصناعية الشراب المصرى المصنوع من القطن والذى لم يكن يتحمل أسبوعاً فى الاستعمال ، وأقبل الناس عليه إقبالاً لاحد له . وقد أدى ذلك فيما بعد إلى إغلاق عديد من مصانع هذه الشرابات . ولقد سعدت أنا شخصياً بهذه الشرابات التى حلت لى مشكلة إنفاق لاينتهى ولست هنا أمزح ، فحل مشكلة الملابس لموظف لايزيد دخله على ١٧ جنيها فى الشهر ، وهناك من يحصل على تسعة جنيهات فقط ، ليس بالأمر

المهين ، ولكى أوضح للقارئ مدى أهمية هذا الأمر أذكره بما جاء فى محادثات الوحدة الثلاثية عام ١٩٦٣ بين عبد الناصر والوفدين البعثيين العراقى والسورى عندما تحدث عبد الناصر عن موضوع الشرابات بالتحديد .

هكذا «الشرابات والملابس النسائية والبلوفرات» والشاورمة والحلويات . هى مارأيناه من الوحدة فى مقابل إنفاقات ضخمة لم نكن على دراية بتفاصيلها وإن كنا نحسها تتحملها مصر – الإقليم الجنوبى – فى سبيل هذه الوحدة (ويكفى أن نتذكر ماقاله عبد الناصر بصراحة شديدة بعد الانفصال من أنه عطل مشروعات كثيرة فى مصر لتحظى بها سوريا) ومرّ التصريح مر الكرام عند شعب مدرب على النسيان ، بل مدرب على الانفعال بما يراد له الانفعال به ، والصمت والبرود إزاء الأحداث والأمور التى يراد منه بإزائها ذلك ، على أن أمورا كهذه لم تكن لتفقد شعباً «صبوراً» صبره فالأمجاد هى أكثر ما يمحو الآلام الشخصية ، والتفاصيل الصغيرة . وجاءت معركة التوفيق بين الجيش الأول (الجيش السورى) وإسرائيل لتدعم هذا التصور ، فإذا ما استوعبت إسرائيل الدرس ومضت مدة لا يحدث فيها مجد أو انتصار ، كانت تأتى الأغانى التى تنشدها أعذب الأصوات وأعظمها لتصنع الأمجاد ، وكانت استقبالات السوريين الحارة لعبد الناصر بين وقت وآخر بمثابة الوقود الذى يبقى الجذوة مشتعلة .

الفصل الثانى

بروق ورعد

وطنى الذى لم أره . . !

فى مصر مناطق كثيرة لم أرها حتى اليوم . . ومع ذلك فقد هزنى هذا المطلع من قصيدة لشاعر مصرى يتحدث فيها غداة الوحدة عن وطننا : سوريا . وعندما كنت فى طريقى إلى دمشق كنت نهماً لرؤية وطنى الذى لم أكن قد رأيته بعد .

كنت موفقاً فى السفر . فوهب الله لى رفيقاً مصرياً يعمل فى سوريا منذ بداية الوحدة قبلت عن طيب خاطر أن نزن حقائبنا معاً حتى يتفادى هو دفع رسوم الوزن الزائد . وعرفاناً منه بالجميل استضافنى الليلة الأولى فى دمشق . وفى الصباح وهو يودعنى بعد أن أرشدنى إلى مبنى وزارة التربية والتعليم زودنى بنصيحة مؤداها أننى ينبغى ألاأكون غبياً لهذا الحد وأقبل خلط حقائبى بأحد ، وبخاصة عند العودة خشية أن تكون بهذه الحقائب ممنوعات أو مخدرات ! وجمت بعض الشىء ، لكن لهفتى لرؤية وطنى الذى لم أكن قد رأيته جعلتنى أترك كل هاجس ، وكان هذا إجراء أكثر من عملى ، فلست أول إنسان يتعرض

لمن أو لما يكدر صفوه وهو مايزال بعد فى بدء طريقه (ولهذا ينبغى أن نكون حذرين فى إسداء نصائحنا لمن نرى أنهم يحتاجون إليها) . .

أثار دهشتى صغر مبنى وزارة التربية الذى لايكاد يصل لحجم مبنى إحدى مراقبات منطقتنا التعليمية ، علمت أننى قد وزعت للعمل فى محافظة حماة ، ودهشت أكثر عندما علمت أن الذى كان يوقع أوراقى بلا حجاب ولاحرس هو أمين سر الوزارة (أرجو أن تكون التسمية صحيحة) ، وهو بمثابة وكيل الوزارة كما قيل لى ، وحدست أن الحاكم فى سوريا – قياساً على ذلك – ليست له المهابة التى للحاكم فى مصر ، وكان هذا فى الحقيقة استنتاجاً صحيحاً .

وجدتنى أثرى دفعة واحدة حينما وجدت فى جيبى ببساطة مائتى ليرة سورية (تعادل ٢٥ جنيهاً مصرياً) دفعة واحدة صرفت لى مقدماً لتخصم بعد ذلك من مستحقاتى ، ولكننى اكتشفت أمراً طريفاً ، لقد اكتشفت ولست أدرى سر هذا التدقيق فى طباعى أن بطاقتى الشخصية ينبغى أن تجدد بعد مضى شهرين ، ما العمل ؟ واتفق كثيرون من المصريين على أن هذا أمر طريف فعلاً ولا سابقة له عندهم . ونصح أحد الذين سبقونا للعمل هناك بأن أسأل مديرية (مصلحة) الجوازات والجنسية (أوشىء من هذا القبيل) فهى فى طريقنا .

كنت أسير مع اثنين من المصريين ، وكان يرشدنا إلى الطريق صديق ثالث يعمل منذ عام بسوريا ، ولم نكن نعرف حتى مجرد أسماء البعض ، فى طريقنا إلى أحد الأوتيلات فى حى بجوار المسجد الأموى وسوق الحميدية .

دمشق مدينة جميلة ، وهادئة ، وكان ذلك بالإضافة إلى ما أصبح فى جيبى من مال مبعث انتعاش لى ، واستبعدت تحذير رفيق السفر نهائياً من ذاكرتى ، وقع بصرنا على مبنى المديرية المبتغاة توجهت بالسؤال وفى يدى بطاقتى الشخصية إلى أحد العاملين فأشار بيده إلى زميل له .

قبل أن أتم كلامى ، قال الأخير :

– أستاذ . . مابحكى معك .

قلت مأخوذاً .

– والسبب ؟

– ما بتعرف أن الساعة تنتين (ألاتعرف أن الساعة الآن هى الثانية ؟ انتهى وقت دوامى (وقت عملى) .

– لكنى أسأل مجرد سؤال .

– وأنا لن أرد !

شعرت بإهانة لاحد لها فثبت عليه عينى لحظة . فنظر إلى شزرا ، وانصرف عنى ، وجذبنى برفق أحد أصدقائى المصريين ، فوضع بذلك حداً لهذا الموقف الغريب . .

إلى هذا الحد ،ونحن الذين نتسابق فى مصر لخدمة الغريب . . وهكذا منذ اللحظة الأولى . . يالها من بداية !

ليلتان فى دمشق :

توجهنا إلى الأوتيل وكان هذا الموقف الغريب من موظف الجوازات يلقى بظله الكئيب علينا وعلى بالذات بدرجة أكبر بالطبع ، حتى إننى لم أبال بصديقى وهو يشير إلى سوق الحميدية . . .

لم يكن الصديقان اللذان بقيا معى بعد انصراف الثالث ، موزعين مثلى على محافظة حماة ، بل كان أحدهما سيعمل بدير الزور ، والآخر سيتجه إلى القامشلى (على ماأذكر) .

استرعت نظرى نظافة الأوتيل وحسن الخدمة به وقد فوجئت من قائمة

الأسعار المعلقة بالحجرة التى نزلنا فيها ثلاثتنا إنه فندق من الدرجة الثالثة ، أين من هذا لوكاندات كلوت بك مثلاً ؟ وكان هذا بالإضافة إلى معلومات متناثرة سابقة تدفع إلى استنتاج الأهمية التى يعطيها السوريون السياحة الداخلية والفندقية ، أقول ذلك الآن لأنى لاحظت الملاحظة نفسها فى أوتيلات حماة وحمص وحلب . . بل وسلمية التى سأعمل بها عاماً كاملاً .

دمشق فى الليل مدينة ساحرة حقا . لكنها لاتسهر كثيراً مثل القاهرة ، طفنا ببعض شوارعها ، وقابلنا العديد من المصريين الذين كانوا يقيمون فيها مثلنا لليلة أوليلتين . اشترينا بعض الأغراض أى (الأمتعة) وضحكت أنا لتذكرى ماحملته معى . فعندما تكون على سفر تظن نفسك ذاهباً إلى الصحراء ، وتثقل حقائبك بما لالزوم له ، تناولنا العشاء فى أحد المطاعم ، وللمرة الثانية فى يوم واحد نأكل الكفتة والكباب . فالأسعار برغم ارتفاع الأجور رخيصة . وليست بالارتفاع الذى كنا نسمع عنه أونتطوع نحن من تلقاء أنفسنا لنستنتجه لا كاحتمال فقط ، بل كحقائق راسخة لنستطيع أن نبرر لأنفسنا انخفاض أجورنا فى مصر وارتفاع أجور « مواطنينا » فى سوريا .

عند عودتنا اشترى كل منا كيلو تفاح ولم نصدق أن ثمن الكيلو لايتجاوز مايعادل عشرة قروش مصرية . كان هذا موسم التفاح السورى الذى يدوم لشهرين ثم يخلو الميدان للتفاح اللبنانى شهور بقية العام . هانحن أولاء نتحدث عن التفاح ونحمله معنا ولوشئنا لاشترينا كميات مضاعفة . . وعجبت كيف لايأكله السوريون ليل نهار ؟ لكنْ مهلاً فهل يكون التفاح لديهم أكثر ممايساويه البرتقال عندنا مثلاً ؟ لكن كل شعب نهم على الدوام لما لاليس عنده .

فى الصباح بدأنا نجول فى المدينة . تأملت نهر بردى ياله من نهر ! بل جدول صغير ! بردى والنيل ! لكن أصغر جدول بين حقولنا تجرى به مياه أكثر من

تلك التى « تتدفق » فى بردى ، لكن دمشق لاتشرب من بردى. إنهاتشرب من نبع طبيعى يسمى الفيجة ، أولعل هذا هو اسم شركة المياه التى تديره ، أوهو اسمها معاً . ماألذ مياه النبع ! رائعة وبالغة العذوبة ولاتمل من شربها أبداً . دافئة فى أيام الصقيع وباردة فى الصيف .

ومبانى المدينة ليست مرتفعة : ثلاثة أوأربعة طوابق مع وجود بنايات (عمارات) عالية هنا وهناك . والشوارع ، أوبعضها يعلو ويهبط . ولغة الناس لها وقع مختلف . راق لى أنا شخصياً بالرغم من أنهم ، كما قرأت مرة ، يحبون اللهجة المصرية ، بل أذكر أن (ناصر النشاشيبى) قد دعا المصريين غداة الوحدة أن ينقلوا لهجتهم المحببة إلى ربوع الشام : هكذا يحب كل شعب ماعند الآخر . . وبدأت أذنى تستوعب لهجة الشام (تكرم ، بعيونى ، الله وكيلك)

ليست الأمور بالجهامة التى كانت عليها أمس ، نحن إخوة ، ولاينبغى أن أكون عاطفياً مدققاً . ومعاملة موظف الجوازات الفظة أمس لاينبغى أن نعممها فى كل مكان ، مثل هذا الـ . . الذى يسىء إلى بلده وشعبه . كم أنا طيب !

– لم لايكون من الكارهين للوحدة ؟ أليس هناك ١،١٪ صوتوا بـ (لا) ضد الوحدة ؟ ثم ألست تتابع الأحداث وتعرف أن البعثيين الآن يحاربون الوحدة ، أيها الرجل الذى يتابع الأمور باهتمام : ماذا تركت لغيرك إذن ؟ ولمت نفسى على وساوس الأمس وابتسمت .

كنا نسير ثلاثتنا معاً فى كل مكان ، يبذل كل منا مايستطيع لمعاونة أخيه ، بدأنا نألف دمشق لكنناالانزال غرباء. هذا شعورى عندما جئت القاهرة لأول مرة فما بال دمشق ؟ ومع ذلك كنت ألمح نظرات فى شوارع دمشق ، وجوه تشيح على الفور وأخرى تظل تتفحصك فى صمت ، ويهجس هاجس فى نفسى :

ترى ماذا يدور فى رءوس هؤلاء ؟ وأنفض عن نفسى هذه الهواجس

وماذا بمقدورى غير ذلك ؟

عرفنا مكان موقف العربات . وحجز كل منا إلى البلد الذى سيعمل به ، وكنا نكاد الآن نعرف أسماءنا الأولى ، بجرد الأسماء بل قد تغيب عن أحدنا وكنت مثلا أدعى أحمد من أحدهم . وهو اسم والدى على كل حال .

وفى الصباح عندما حان أن نغادر الأوتيل . تناولنا فطورنا معاً . ثم الشاى اللذيذ . . وعجبت مرة أخرى من مذاق الشاى هناك ورخص سعره . . أيختلف هذا والشاى الذى يورد لنا فى مصر ؟ . . وفهمت فيما بعد معنى تلك العبارة التى تدون على عبوات الشاى المصرية (عبىء بمعرفة شركة كذا للاستيراد والتصدير . خصوصى لمصر) ليس فى الأمر خصوصية بمعنى الامتياز . ولكن لأن الشركة تضيف إلى العبوة بعض الأعشاب غير الضارة والتى لاتذهب بطعم الشاى . . هكذا نشرب الشاى مخلوطاً بالأعشاب ويشربونه فى سوريا نقيًّا . ونظل معا مواطنين فى دولة واحدة ! ياله من قدر مصرى غريب .

عندما حزمنا حقائبنا ودفعنا حسابنا كانت القائمة معتدلة للغاية والمعاملة طيبة ، وقبل أن نهم بحمل حقائبنا وجدت صبى الأوتيل يندفع نحونا ويقول بلهجة واثقة لاتردد فيها .

– أستاذ مابتعطينى بخشيش ؟

بهذه اللهجة الحاسمة يطلب البقشيش لنفسه حقًّا لاجدال فيه . وعندما نال « طلبه » تمتم « خاطركم ياشباب » أى مع السلامة . وحملنا حقائبنا وأوقفنا السيارة وكان قد اختفى بالداخل ولم يساعدنا مطلقاً فى حمل الحقائب إلى التاكسى .

تصافحنا بحرارة شديدة ونحن نوشك أن نفترق . كانت السيارات الثلاث بالموقف وعلى كل منا أن يحتل مقعده فى سيارته ، وأكدنا جميعاً بعضنا لبعض

أن نلتقى ، وكتب كل منا اسم زميله واسم المدينة التى سيعمل بها ، لابد أن نتراسل وتواعدنا وأقسمنا . . وكان كل منا يعرف أن الوفاء بهذه الوعود مستحيل .

ركب كل منا فى مقعده ، وظللت أنظر إلى زميل منهما كان يطل من نافذة سيارته بجوار سيارتى التى أركبها ، تبادلنا التحية من النوافذ أكثر من مرة ، وتبادلنا الوعود والعهود ونقل إلى تحيات الزميل الثالث ، الذى كان يراه من السيارة الثالثة ونظرت إلى السيارة الثالثة ، ولولا الحياء والنظرات التى تصوب إلى وتسمع من حولى إلى اللهجة المصرية التى نتحدث بها ، لنزلنا وتحادثنا من جديد . . وأصبحت العاطفة عبئاً نفسيًّا . . لم ينقذنا منها إلا تحرك السيارة المتجهة إلى القامشلى . . وتبادلنا التحيات لآخر مرة وأصبحت وحدى . . وأخذت ألقى بنظراتى إلى الخارج . . هذه دمشق لاتزال وبعد مدة تحركت السيارة تتخذ طريقها إلى حماة مارة بحمص ووجدتنى أقرأ الفاتحة . . وأدعو الله أن يكتب لى السلامة وأن ينقذنى من مخاطر الطريق . .

الطريق :

الطريق وعر ، جبلى ، يلتف بك ويدور ، يمر نصف ساعة بأكمله وتكتشف أنك فى النقطة نفسها يرتفع فتنوء السيارة بالركاب وبالطريق ، وينحدر فتكاد من الاندفاع تنكفئ.ياله من طريق يحتاج إلى سائق صبور متمرس ! على كل من تعود القيادة فى الطريق السهلة أن يراجع نفسه قبل أن يقبل العمل على طريق كهذا. مخاتل هذا الطريق حقًّا ، ولايبوح لك بسره أبداً ، يخبئ الأفق عنك ويغيب عنك لمدى بعيد ، بسبب حدود جبلية قائمة تمنع قدرتك على الإبصار مهما كانت حادة ، ثم فجأة يفضى بك إلى اتساع صحراوى شاسع ، تمرح فيه العين وينطبق الأفق من بعيد ، لكن الخضرة

غائبة ، وليس ثمة من بشر أوحيوان . . وعندما تترك النبك خلف ظهرك تمضى فى الطريق مايقرب من ثلاث ساعات كاملة لاتقابل فيها كوخاً واحداً . . متى تصل إلى حمص ؟

إلى هذه المسافات الشاسعة أنسب ذلك التمايز (الإقليمى) بين أبناء « الإقليم الشمالى » حيث تنكفئ كل مدينة على نفسها حيث هى معزولة ، ويكون التفاعل بينها وبين بقية الوطن أقل مما هو مطلوب . . كأن المدن واحات منفصلة، تقيم منازل وتستخدم أدوات عصرية بدلاً من الجمال والخيام . هذا فى رأيى سر تلك العواطف الإقليمية القوية التى تتضاءل إلى جوارها كل أحاديثنا بل كل ما تقوله مزاحاً . عن محافظاتنا المختلفة ، هذا هو سر الحساسية بين دمشق وحلب ، بين حماة وحمص . . وليس هذا مجرد تسويغ للحقيقة ، فهذا الفراغ المكانى والسكانى يخلق بالفعل فجوة نفسية يكون لها فى النهاية تأثيرها ، وأذكر فى هذا المقام ما ذكره محمد حسنين هيكل عما قامت به فى حركة الانفصال كتلة « الضباط الشوام » . أى أبناء دمشق – ولابد أن نتذكر موقف حلب المناوئ للانفصال ثلاثة أيام كاملة . . لكن لماذا نتعجل الأمور ، لقد وصلنا إلى حماة . . وبدأ الجد . .

قبل أن يفتح الستار :

فى الصباح تبينت أننى لن أعمل بحماة نفسها ، بل بمدينة سلمية إحدى أقضية محافظة حماة ، كان على أن أسرع ، فاليوم الخميس والدراسة ستبدأ يوم السبت .

اتخذت طريقى إلى سلمية ، وكلمات زميل مصرى قابلنى صدفة بحماة تطن فى أذنى :

– خذ بالك ، مدير التربية هنا بعثى اسمه عبد الجبار ، يكره المصريين وكل ما يمت لمصر بصلة .

وماذا بيدى أن أفعل – على كل أنا واحد من عشرات ، وما يجرى عليهم سيجرى على ، ولماذا نستبق الأمور ؟

كانت العربة تتخذ طريقها الملتوى ماضية فى حال سبيلها ، تضاءلت الجبال إلى مجرد تلال وأكمات ، لكن الطريق زاد التواؤه يظل يعلو بك ويهبط . وتستحيل الرؤية لأبعد من أمتار . .

وفجأة تجد نفسك فى مواجهة عربة قادمة بالسرعة نفسها فى لحظة يمكن أن يحدث مالا تحمد عقباه ، لكن أحداً ممن حولك لا يبالى بالخطر . . تعودوا الطريق ، أو هذا هو طريقهم المعتاد . . كل شىء حولك يبعث على دهشتك أما هم ، فهذه حياتهم . الطريق يواصل مراوغته ، ويستحيل أن تكون المسافة فقط ٣٥ كيلو متر كما قيل ، هل حسبوا حساب التعرجات والالتواءات ؟ لابد أن سلمية ستسفر عما قليل عن نفسها ، لكن أكمة هى التى تظهر ، والدنيا من حولك صحراء جرداء . . كأن سلمية هذه أكذوبة لن تتحقق ، أو كأنها هى الأخرى تراوغ . . تغير مكانها المرة بعد المرة ! . أمر لابد أن تتوقعه من مدينة نشأت بها واحدة من أخطر الدعوات الباطنية : الإسماعيلية كما كانت مهداً أو وحياً لحركة أخرى هى حركة القرامطة .

– الأخ مصرى ؟

تلفت كان شاباً أسمر اللون ، ودهشت أن يكون هناك سورى أسمر اللون .

– نعم .

– شو بتشتغل ؟

ورحب بى ، وعاد الصمت ، وألقيت بنظراتى إلى الخارج هرباً من نظرات

الجميع التى كانت تتركز على منذ ركبت . .

فجأة وبعد فترة خلتها دهراً ، استقام الطريق واعتدل ، ونبتت من حوله أشواك ثم أعواد ثم بدأت خضرة ، لكن الأرض التى انفتح عنها الطريق الجبلى امتدت مترامية مسطحة ، ولكن عارية من أية خضرة ، ثم فجأة ظهر دغل كثيف ، أخضر ، وإن كانت خضرته غير يانعة .

– مدرسة الزراعة الثانوية . . مديرها مصرى .

هكذا قال الشاب الأسمر :

غمغمت بلا شىء ، وبدأت تنمو البيوت على الطريق ، لكنه نمو يجمد عند حد ، بيوت تتكون فى معظمها من طابق واحد . . وبدأ البشر يدخلون الصورة ، وتوقفت العربة فى النهاية . . وأرشدونى إلى أوتيل المدينة الوحيد . . وحيانى الشاب الأسمر مرة أخيرة حين غادرنا العربة :

– أخوك حسين . . . وهذا تليفونى ، ونحن يا سيدى فى الخدمة .

قالها باللهجة المصرية ، ربما ليشعرنى ببعض ألفة كنت أحتاج إليها فقد كان كل شىء حولى يشعرنى بالغربة أو بالأحرى يزيدنى إحساساً بها .

سؤال غريب :

فى الأوتيل تعرفت إلى زميلى علاء ، مدرس الرسم ، والذى سيقدر لى أن نقضى العام كله معاً . .

كان يدير الأوتيل رجل مقعد ، له طفل ، صار تلميذاً فيما بعد ، وطفلة تصغره بكثير . عرفنى علاء بالإجراءات التى يجب على أن أتممها ، فتوجهت إلى سراى الحكومة لأسجل اسمى ، كان لابد من هذا الإجراء وإلا فإننى أعد غير موجود على الإطلاق . . كما أكد زميلى الأستاذ الشويحى مدرس الرياضيات ،

وهو مصرى وكان الإجراء غريباً ، وعندما سألت عن ضرورته فيما بعد ، دهش الزملاء السوريون دهشة شديدة كأنما نطقت أمراً معيباً ، أو وجهت نقداً قاسياً أو إهانة ، واعتذرت بجهلى . . فقد كنا حتى ذلك الوقت لم نطبق نظام الحكم المحلى الذى عرفته سوريا قبلنا بوقت طويل . .

وحيث كنت أنا وزميلى علاء العزبين الوحيدين وسط زملائنا المصريين . وكان عددهم سبعة ، فقد كان من الأسهل أن يتردد الزملاء علينا فى الأوتيل . .

وذات مرة بينما كنت أودع أحد الزملاء ، وجدت ابنة صاحب الأوتيل ، وهى طفلة لم تكد تبلغ الخامسة من العمر ، تسألنى فجأة :

– أستاذ ؟

– نعم .

– هل زائركم هذا . . مصرى ؟

قلت بدهشة :

– نعم .

– والزائر السابق أيضاً . . هل هو مصرى ؟

– نعم .

– وكل الذين يأتون للسؤال عنكم ؟

قلت بمزيد من الدهشة :

– نعم .

– أستاذ شو بدكم من سوريا ؟

نظرت إليها ، وظلت نظراتها ثابتة لا تطرف . . فانسحبت من الموقف دهشاً ، ولابد أننى قد قلت لنفسى : بل نحن الذين نقول يا بنيتى . . ماذا تريد سوريا منا ؟

وتحذير أغرب :

بدأنا نبحث عن سكن مناسب ، وأخذ زملاؤنا الذين سبقونا إلى المدينة – بحكم خبرتهم . . ففارق أيام يعد فى مثل هذه الحالات خبرة كبيرة – يصحبوننا . كنا نسأل هنا وهناك ، ولاحظت أن رجلا من أهل البلدة يرتدى عقالاً وجاكتة فوق الجلباب ، ويسير بحذائنا ملازماً إيانا . . ظللت أرقب الامر عن كثب فتأكد لى أنه يتتبعنا ، استرعيتُ نظر زملائى فتنبهوا ، واتجه إليه الأستاذ الشويحى بالسؤال مقلداً اللهجة السورية التى بدأ يرطن بها فى « جرأة » شديدة :

– شو يازلمة ؟ . .

وبدا أن الرجل لم يبال بالسؤال ، وإنما تلفت حواليه واستوثق من خلو الشارع من الرقباء ، وقال محذراً :

– أستاذ . ما تشتروا لحم من أبو حسين أو أبو اسماعيل ! .

وتساءل علاء :

– ليش ؟

وأكمل الرجل حديثه :

– ها دول يا سيدى كفرة . .

– كفرة !

– وما بيكبروا على الذبيحة .

وتركنا الرجل فى دهشتنا دون أن يقول المزيد ، وانسل هو من شارع جانبى . .

يالها من أسئلة ! ويالها من ألغاز !

أسرة سورية :

سرعان ما عثرنا بسهولة على مسكن ، ويمكن القول هنا بأننا لم نواجه فى هذا الصدد سوى صعوبة الاختيار . فالمساكن ، فى ذلك الوقت – وهذا تحفظ لابد منه – كثيرة ورخيصة ، لكن ما يؤسفنى حقاً هو أن أقرر أن العديد من زملائنا – برغم ارتفاع دخولهم – قد سكنوا مع أسرهم حجرة فى منزل وإن كان الأمر لم يسترع – مجرد استرعاء نظر زملائنا السوريين .

اقتسمت وعلاء حجرة مفروشة وكان علينا أن ندفع مقابل السكن والخدمة بما فيها الغسيل والكى . . مبلغاً لا يتجاوز ثمانية جنيهات فى الشهر (أربعة من كل منا) وكان يقيم بالحجرة المقابلة لنا ، ولبعض الوقت ، زميل فلسطينى من صفد كان مدرساً للغة الإنجليزية معنا .

والغريب أن أهل البيت كانوا أكثر من سعداء بنا ، ولعل هذا يعطينا فكرة عما يعانونه من فقر ، فقد كان الإيجار الشهرى الذى ندفعه حديث أهل المدينة دون مبالغة على الإطلاق .

إننى لم أخف منذ بداية حديثى حقيقة ظروفى المادية ، ومن ثم فلست أنا الذى يسخر من فقر الفقراء – إن كان فى ذلك سخرية على الإطلاق – كما أننى لا أتخذ من ظروف حياة أناس ربطتنى بهم عاطفة مودة ومجاملة مادة للتشهير ، وحين أتعرض لبعض ظروفهم هنا فلأن الضرورة وحدها هى التى تملى على ذلك لأهمية ما أقول فى تفهم سياق الأحداث ، بل فى فهم الكثير مما يحدث فى نطاق أعم .

كان رب العائلة واسمه الشيخ فهيم . . . يعمل حارساً ليلياً ، ويتقاضى فى مقابل ذلك ما يبلغ نحو ١٢ جنيهاً مصرياً ، وكان يعول أسرة كبيرة العدد .

وعلمت منه – وكان هو يتباهى بذلك – أنه كان جنديًا فى جيش الاحتلال الجيش الفرنسى ، ثم أصبح جندياً فى جيش وطنه سوريا ، وخاض حرب فلسطين وأبدى ضروباً من الشجاعة على حسب ما كان يحكى لنا ، ولست أخاله إلا صادقاً .

إن ظروف الفقراء فى كل مكان تتشابه ، وكم يبذل هؤلاء من جهد – وبخاصة حين يحرصون على كبريائهم – يفوق طاقة الفرد العادى ليوازنوا حياتهم ، وخاصة إذا كان عليهم أن يرسلوا أولادهم لطلب العلم ، حتى لو كان التعليم كله بالمجان ! ومع ذلك فعن طريق هذه الأسرة علمت الكثير من ظروف حياة الفقراء السوريين . وكيف يعيش بعضهم على الكفاف ؟ وكيف يتحايلون – حتى على أنفسهم – لكسب قوتهم أو حتى « لتمرير » وجبة ؟ .

وقد رأيتهم مراراً وهم يعدون نباتاً لا أعرف اسمه ، وهو فى نظرى لا يعدو إلا أن يكون بعض العشب ، طعاما ! كنت أتألم لذلك ، ولكنى لم أكن أملك إلا هذه العاطفة التى لا تسمن ولا تغنى من جوع . .

ولعل الكثيرين منا لم يسمع بشىء اسمه الزعتر أو السعتر ، وهو شىء أشبه « بالدقة » أى خليط الملح بالفلفل بالسمسم . ولعله يضاف إلى ذلك عند الطعام زيت الزيتون ، أما الأغنية الشهيرة التى تدعو « بو على » لكى يشرفنا – أى يزورنا وتعده بأنها – المحبوبة – ستعمل له تبولة ، فإنها – أى الأغنية لا تمجد سوى طبق من السلاطة أعد إعداداً خاصا – أى على طريقة البلاد . .

ولست أسوق ذلك – وهو قليل من كثير أعرفه – إلا لأننى أسمع والعجب يثيرنى أن هناك من يعير المصريين بأكل الفول . بل إننى أسوق ذلك هنا لأن كلمات إبراهيم ماخوس وزير خارجية سوريا ، والبعثى النمطى – أى الذى يقول على الدوام ما لا يفهم ومالا ترابط فيه - كلماته التى قالها فى مؤتمر الخرطوم عام

١٩٦٧ غداة الهزيمة الشائنة ، والتى تباهى بانسحاب الجيش السورى من الجولان دون قتال : والتى تعنى أن من الضرورى الحرص على الجيش وعدم إهلاكه بالقتال لأنه جيش عقائدى . . ثم يضيف ضاحكاً – من كان له نفس خالية ليضحك فى هذه الأيام سوى وزراء البعث :

– جيشنا عقائدى . . (مو بياكل فول)

أى أنه لا يأكل الفول !

وكأن الفول لا يرقى إلى مستوى السعتر أو التبولة . لكنّ هناك أناساً على الدوام لا يستحيون ! وإن كان هناك ما أضيفه فهو أننى أعتذر لهذه الأسرة الطيبة إن كان هنا أية شبهة للإساءة ، وسأظل أذكر على الدوام أمانة كل أبنائها وتفانيهم .

لكنها الظروف اللعين التى تملى على كل منا مواقف ربما لا يريدها . .

طبيعة جامدة :

كانت هذه الأسرة هى المنظار الذى نظرنا منه إلى سلمية ، والتى علمنا منها بعض ظروف هذه المدينة الجفول .

وأول ما يقال فى هذا الصدد هو ما أصاب هذه المدينة من جفاف طيلة سنوات الوحدة ، وربما قبل ذلك بكثير بالنسبة لها وحدها ؛ إذ من المعروف أن الجفاف أصاب معظم مناطق سوريا طيلة سنوات الوحدة ، وهو أمر بشع بالنسبة لبلاد تزرع محصولاتها على مياه الأمطار .

وتعد سلمية واحدة من أخصب مناطق سوريا على الرغم من أنها تشكل كما يقال زحف الصحراء على الحضر أو زحف الحضر على الصحراء . وكانت شهرتها الحقيقية تتمثل فى إنتاجها الغزير للكروم . ويحكى لك بعض أهلها –

حين يسعدك الحظ ويتحدث واحد منهم إليك – كيف أنهم عندما كانوا يريدون الشرب ، كانوا يحدثون حفرة فى الأرض وسرعان ما تجود الأرض بالمياه العذبة لكن ما حدث لسلمية كان شيئاً يستحق التأمل والاعتبار حقًّا : لقد أغرت المكاسب الهائلة التى يحققها القطن كلَّ أبناء البلدة ، فاقتلعوا الكروم ، وجلبوا الماكينات والجرارات وبدءوا يزرعون القطن ، وامتلأت الجيوب بالأموال وأثرى الناس ثراء شديداً . .

لكن الطبيعة كانت تعمل قوانينها التى لا تعنيها فى شىء قوانين البشر ! وعاما بعد عام بدأت المياه الجوفية تقل ، ومع اختفاء الغطاء الأخضر – أى النباتات – من فوق سطح الأرض قلت كذلك كميات الأمطار ، وبدأ الجفاف يهلك النبات الذى أسعده الحظ برخة مطر فيها أو يقتل البذور فى المهاد . . وبدأت سلمية تعانى ، وخلت الأرض من كل خضرة ، وتحولت مدرسة الزراعة الثانوية هناك من ضرورة لابد منها إلى مجرد شاهد حى على المأساة ، وذبلت أغصان الأشجار ، وتحولت أطرافها إلى ما يشبه الأشواك !

وجاءت الوحدة فى هذه الأثناء ، لتحمل على كاهلها عبء شىء خارج عن إرادتها ، وكم من أمور خارجة عن إرادة البشر ، أثقلت كاهل الوحدة الوليدة فى حين كان عودها الغض لما يستطع بعد أن يتحمل أى أعباء .

إسماعيليون وقدامسة :

سرعان ما تكشف لغز ذلك التحذير العجيب الذى سمعناه من « مواطننا » السورى من سلمية والذى نهانا فيه عن أكل اللحوم من عند فلان وعلان من أبناء المدينة . والقضية ببساطة – وكلمة قضية واحدة من الكلمات الشائعة على لسان السوريين ، ومن السهل أن يسأل أى إنسان شو القضية حتى لو كنت

تبحث عن عود ثقاب ، ولعل فى هذا بعض العذر لمن يتساءل هل للغة دور فى تضليل الشعوب أو فى سوء الفهم ؟ – القضية هى أن هذه المدينة – كما سبقت الإشارة – تضم هى وقرية مصياف التابعة أيضا لحماة العدد الأكبر من إسماعيليى سوريا .

والإسماعيليون فئة إسلامية لها طقوسها الخاصة التى تبعد بها كثيراً عن الطقوس الإسلامية كما يمارسها أهل السنة . ولو أن المشكلة ظلت عند هذا الحد لهان الأمر ، ولكن الذى جعل الأمور تبلغ هذه الدرجة الحادة أن المدينة تضم أقلية من أهل السنة يطلق عليهم اسم القدامسة ، وللأولين أى الإسماعيليين جامع يطلق عليه اسم جامعة ، وتؤدى فيه الطقوس يومين فى الأسبوع ويتوجه إليه الناس رجالاً ونساء – وهذا هو كل ما أمكننا فهمه ، وظل الأمر لغزاً بالنسبة لنا لا يجوز لنا من ناحيتهم أن نعرفه ، كما أننا من جانبنا – كمصريين – لم تكن لتنقصنا الحساسيات حتى نضيف إليها حساسية أننا نريد أن نعرف ماذا يدور فى الجامعة ، لكننا كنا نرى مثلاً مقبرة الأمير على خان الشهير زوج ريتا هيوارت – تعد داخل هذه الجامعة وقد لاحظنا أن أهل البلدة يكثرون من قوله : الله كريم أستاذ ، وكنا نرددها بحسن نية ، لكن زكيلا لنا شامياً هو ميخائيل – سنتناوله فيما بعد – قال محذراً وموضحاً :

– أستاذ لا تجارهم فى مثل هيك قول .

– ليش سيدى .

– خيو . ما بتعرف إن زعيم الطايفة تبعهم اسمه كريم خان . .

– صحيح !

– فهمت خيو ليش عم بيقولوا إن الله كريم . . ها دول أستاذ عم بيلتووا بالمعنى . ولما عم بتقولوها لهم بيظنونك عم بتسخروا منهم !

وهكذا بدأ اللغز يتضح أوقل يزيد غموضاً. أما الآخرون فكان لهم مسجد أو أكثر- يؤدون فيه الصلوات الخمس ومن نافلة القول أن نقول : إن الأولين لا يصومون رمضان لكن الأخيرين يحرصون على ذلك.

وهكذا وجدنا أنفسنا طرفاً فى قضية لا دخل لنا فيها ، وكم هناك من قضايا ، فى سوريا ، لم يكن لنا بها أى دخل ، ولكنها حسبت علينا ، إننا كمسلمين أهل السنة ، علينا بالفعل ألا نأكل إلا ما كبر عليه عند ذبحه ، وهذا سيؤدى إلى أن نتعامل نحن و فريق دون فريق ، الأمر الذى سيبدو معه أننا ننحاز إلى طرف دون طرف ، لقد كان القدامسة أقلية فجاء المصريون ليزيدوهم عدداً وقوة.

ولم يكن الأمر فى الحقيقة يقف عند هذه القشور ، لقد ووجهت سلطات الوحدة الوليدة بهذه المشكلة : أى مشكلة الطائفية ، فكان إن أصدرت أوامرها بعدم ذكر اسم الطائفية فى بطاقات النفوس أى شهادات الميلاد ، إن الوليد إما أنه مسلم أو مسيحى أو يهودى (إن وجد) لكن اسم الطائفة لا يذكر أبداً ، ولم يكن من السهل أن يتقبل أبناء الطوائف ، وبالذات الأقليات ، مثل هذا الإجراء.

وذات يوم ، وبينما كنت وحدى بحجرة المدرسين وجدت زميلا من أهل سلمية. وكان اسمه عبد الكريم وآسف لأنى نسيت بقية اسمه ، يجلس معى على غير العادة :

- أهلين أستاذ . .

قلت مقلداً لهجة السوريين ، أو بمعنى أصح محاولا ألا أكون مختلفاً معهم

- أهلين سيدى.

وسألنى عن أحوال حسن . وهو ابن عم له كان تلميذاً ، بالسنة الأولى

الثانوية ، وأجبت إجابة روتينية ، لكن أسئلته امتدت إلى أمور أخرى ثم سأل عن أحوال القاهرة والعيش فيها . . ثم فاجأنى بأن (حسن) قد وقع عليه الاختيار كى يسافر إلى القاهرة ليدرس بالأزهر . وكان الأمر عادياً حتى هذه اللحظة ، لكن القضية كما يقولون ما لبثت أن بدت على خطورتها سألنى .

– لكن شوبده يدرس بالأزهر ؟

وصمت حائراً ، فقال لى بصراحة نادرة فى الظروف التى مررنا بها :

– يا أخى نحن إسماعيليون كما تعرف . . فكيف يدرس حسن بالأزهر ؟

وكان فى الأمر أكثر من لغز ، من الذى رشحه إذن ؟ وما هى الجهة التى تتولى ذلك ! ولماذا يوافق أهله إذا كان فى الأمر ما يخشونه .

– هل سيدرس مبادئ أهل السنة . . والله ما بدرى !

فقلت له وقد تذكرت شيئاً قرأته ولم أستوعبه وقت قراءته الاستيعاب الكافى :

– إن هناك لجنة للتقريب بين المذاهب الإسلامية . .

– بعرف . . لكن هل سيعترف الأزهر بمذهب الإمام جعفر الصادق . . ؟

وصمت وواصل هو : هيه . . بنشوف . .

ونفث دخان سيجارته وخيل إلى أنه يكاد يتميز غيظا . .

وسرعان ما ازددت فهماً للقضية :

لقد لجأت سلطات الوحدة إلى اختيار بعض أبناء من مناطق الأقليات الإسلامية كالدروز والعلويين والإسماعيليين ، لترسلهم للدراسة بالأزهر ، وقال من نقل إلى هذه المعلومة : إن الغرض من ذلك هو أن يقوم هؤلاء فيما بعد بمهمة تشبه مهمة التبشير فى مناطقهم بعد أن ينتهوا من دراستهم بالأزهر – بعد عمر طويل – وإذا صح هذا ، وإن كان أهالى المدينة ينظرون إليه كحقيقة سلم

بصحتها ، فكأننا كنا نرمى إلى تحلية مياه البحر المالح بإلقاء قطعة من السكر فيها كل يوم وياله من تفكير!

لكن قضية الطائفية فى سوريا ، أمر لا ينبغى أن نمر به ببساطة فى عجالة كهذه ، وبالإضافة إلى أثرها المدمر على الوحدة ، فقد كان لها أثرها حقًّا علينا كبشر عاديين فى سلمية . .

المدرسة السورية تقرير شامل :

إذا اعتبرنا المسافة من حمص إلى حماة بمثابة قاعدة لمثلث فإن سلمية تشكل بالفعل قمته . وثمة طريقان ، هما بمثابة ذراعى المثلث ، يبدأ أحدهما من حماة ويبلغ طوله حوالى ٣٦ ك . وهو جبلى كما سبق القول ، ويبدأ الآخر من حمص يبلغ طوله ٤٨ ك . وهو منبسط ، ويلتقى الاثنان عند سلمية التى تشكل كما سبق القول رأس هذا المثلث .

ومدرسة سلمية تقع على طريق حمص — حماة هذا عند نهايته من جهة حمص ، هناك المبنى الأصلى للمدرسة الذى ينتهى إلى فناء ، بل إلى فراغ كبير تملؤه الأحجار والحصى ، ويحيط بهذا الفراغ الواسع فصول ملحقة بالمدرسة ، بنيت بالتأكيد بعد تزايد عدد طلابها .

المبنى كله من طابق واحد ، ويعطيك اتساع المكان الشديد فكرة — ستؤيدها بعد ذلك بيوت المدينة — أن الأرض هناك تكاد تكون بلا ثمن ، أو على الأقل ، ليست لها القيمة نفسها فى مصر . وإن كان لابد من تحفظ هام ، إذ لابد أن نتذكر أننا الآن فى مدينة شبه صحراوية .

وتضم المدرسة قسمين : الإعدادى والثانوى ويشكلان معاً مرحلة واحدة

(برغم وجود الشهادة الإعدادية فاصلاً بين القسمين) يطلق عليها اسم المرحلة التجهيزية .

يبلغ نصاب المدرس إذا عمل بالمرحلة الإعدادية وحدها ٢٠ ساعة فى الأسبوع ، ويبلغ نصابه إذا عمل بالمرحلة الثانوية وحدها ١٨ ساعة (حصة) أما إذا كان جدوله خليطاً بين المرحلتين فيبلغ نصابه ١٩ حصة فى مقابل ٢٤ حصة لمدرس الإعدادى و ٢٠ حصة لمدرس الثانوى فى مصر فى ذلك الوقت بخلاف الحصص الإضافية التى لا يحصيها عد .

وأول شىء تسر له إذا كنت مدرساً مصريًّا أن تعرف أن نظام الحصة الإضافية هذا لا وجود له هناك : بمعنى أنه إذا غاب أو مرض مدرس مادة ما فلست مكلفاً بملء الفراغ ، ومن ثم تعفى من هذه المهمة البالغة السخف ، وهى مهمة أن تعمل فى فصل لا تدرس له . وتشغل فراغ مادة لا تدرسها أنت ، بل والأدهى أن يكون التلاميذ لا يدرسون المادة التى تدرسها ومن ثم تكون مهمتك أشبه بمهمة رجل بوليس . عليه أن يلزم أكثر من أربعين شابًّا فتيًّا الصمت أى أن يسجنهم فى مقاعدهم التى تضيق بها أجسادهم المملوءة بالفتوة والصحة دون أن يقدم لهم أى مقابل !

لكن الساعات الإضافية تعرف فى سوريا على نحو آخر : فهناك عجز كبير فى هيئات التدريس نتج عنه وجود مئات ، بل ألوف الساعات ، فى مواد دراسية مختلفة ، منها مواد رئيسية كاللغات لا تجد من يقوم بها ، وتسمى هذه بالشواغر .

لهذا السبب يوكل لكل مدرس عدد من الساعات الشواغر هذه ، فى المادة أو المواد التى يقرر هو نفسه أنه كفء فى تدريسها . ويفضل بالطبع أن تكون فى داخل اختصاصه وهذا شرط لم يكن يتوافر إلا فى النادر ، ويؤجر المدرس على

هذه الشواغر فى مقابل الساعة ثمانى ليرات أى ما يزيد على جنيه مصرى كامل وقبل الوحدة ، ومن ثم قبل مجىء المدرسين المصريين ، لم يكن هناك حد أقصى لعدد الساعات الشواغر التى يُعطاها أى مدرس ، ومن ثم كان الدخل منها يكاد يزيد على راتبه الأصلى ،ولقد تقرر حد أقصى لها بعد الوحدة مما أدى بالطبع إلى انخفاض دخل المدرسين السوريين .

ولهذا الأمر بالطبع أثره فى النفوس هناك ، مهما تكن الحجج التى لديك والتى تتصل بمستوى التعليم وما إلى ذلك . وهذه حساسية جديدة كان على الوحدة أن تتحملها .

وبالنسبة لى ، كان يشاركنى فى تدريس اللغة الفرنسية مدرس مصرى عمل هناك قبلى بثلاث سنوات ، وحيث أوفد هذا الرجل فى بعثة إلى فرنسا فى ذلك العام ، فقد أصبحت المدرس الوحيد ، ومن ثم كان نصابى كاملاً من الشواغر مما ضاعف حقيقة فى دخلى . أما بقية الحصص فقد كانت من نصيب مدرس للتاريخ ، سيصبح لمرحلة صديقاً لى ، اسمه ميخائيل . وينتمى إلى قرية معلولة الشهيرة بكنائسها السيريانية والتى فى ضواحى دمشق .

وأعجب ما فى الأمر أنه لم يكن يخضع لأى إشراف فى ذلك ، ولو كنت أعلم وقتها أننى سأتناول هذه الأمور لاحتفظت بصورة لورقة الامتحان أو الفحص كما تسمى هناك التى وضعها للتلاميذ والتى تنبئ دون حاجة لأى إيضاح أن التلاميذ يكادون لم يدرسوا شيئاً على الإطلاق !

كان يعمل بهذه المدرسة – إن لم تخنى الذاكرة – خمسة وعشرون مدرسا ، منهم اثنان فقط من أبناء سلمية .

أما عددنا نحن المصريين – أو أبناء الإقليم الجنوبى حتى لا نتهم بمعاداة الوحدة ،فيبلغ سبعة يعملون بتدريس المواد الرئيسية بالمدرسة : الرياضة ،

العلوم ، الفيزياء ، الإنجليزية . الفرنسية ، بالإضافة إلى المواد الحديثة ، أو التى كان يدرسها غير مختص من قبل وهى الرسم والموسيقى .

وكان هناك كذلك ثلاثة شوام أى ينتمون إلى دمشق هم ميخائيل الذى تحدثت عنه ومحمود عجاج ، الفلسطينى من صفد ، وجارنا فى المسكن ، وأحمد رأفت مرادنى مدرس الجغرافيا والذى لابد أن يدرس أى شىء ولوكان الدين لتكملة نصابه من الشواغر .

وأغرب ما فى رأفت هذا أن عمه أخا والده مباشرة ، تركى يقيم فى تركيا ، وهذا ما يعنى أنه من أسرة تركية أصبح نصفها سورياً يتحدث عن القومية العربية دون أن يمل ، وظل نصفها تركياً يكن الازدراء للعرب « والعجيب أن حالته ليست الحالة (الوحيدة) من هذه الزاوية . . فكم عرفت من حالات مشابهة على قلة من عرفت من السوريين ! ويضاف إليهم واحد من اللاذقية هو محمد خلاص وكان مدرساً للتربية الرياضية . ودرس علومه بالمعهد الرياضى العالى بالإسكندرية .

وكان الباقون من أبناء مدينة حماة وهؤلاء جميعاً من فئة الموظفين « داخل الملاك » أى داخل الكادر : ذلك أن المدارس تكلف أحياناً أناساً من غير المدرسين تأنس فيهم الكفاءة بملء بعض الشواغر . ويطلق على هؤلاء فئة « خارج الملاك » وينطبق هذا الاسم أيضاً على العاملين بالمدارس الأهلية .

ويلقى التعليم الأهلى هناك عناية الدولة ، ويبدو أنه مربح حتى إن رواتب العاملين به تضارع رواتب غيرهم من فئة « داخل الملاك » .

ومدير المدرسة ، ليس هو بالضرورى أكبر المدرسين درجة ، بل حتى ولا أكثرهم خبرة ، ولا يعد شغل هذا المنصب ترقية أو تفضيلا ، وقد أخبرنا الزميل رأفت مرادنى ، وهو فى سنى نفسها : أنه فى العام الماضى كان يعمل مديراً

لمدرسة ثانوية فى بوكمال أو البو كمال كما كان يسميها ، وهى مدينة على الحدود السورية العراقية على نهر الفرات ، وكان يدير مدرستنا رجل طاعن فى السن ، ضخم الجسم ، لايزال يرتدى الطربوش ويقال إنه يكاد أنهى تعليمه الثانوى ، كان من أهالى سلمية اسمه مصطفى الجندى لكن كنيته « أبو معن » تغلب على اسمه . كان يسرف فى الإشادة والترحيب بنا .

« الله يعطيكم العافية . . أستاذ » ، لكنى كنت أشعر أنه يضيق بنا ، ولعله كان يرتاب فينا . لكن تلك قضية أخرى ،كان يعاونه فى الإدارة أمين سر وثلاثة مشرفين وكلٌ من أبناء سلمية .

ويطلق على الساعى أو الفراش هناك اسم الآذن ، وهؤلاء هم أكثر العاملين بالمدرسة غرابة بالنسبة لنا : كان أحدهم وهو أكثرهم دماثة وطيبة موكلا بأمر البريد ، وليس له من عمل آخر ، ولابد أن العمل كان موزعاً بين الباقين ، ولكن الأمر بلغ حد أن أحدهم ، وكان أكثرهم طولا وأضخمهم جسماً كان ينام – بالفعل لا بقصد المبالغة – على سرير أو تخت كما يسمونه يضعه فى أحد الممرات ، ولم يكن أى من هؤلاء جميعاً يكلف نفسه مشقة النهوض عند مرور المدرس أو المدير ، وعندنا كنا نحتم أن يحضر أحدهم « الطباشير » أو الطباشور كما يقولون « فى الفصل كانوا يبدون ضيقاً ونفوراً . لقد كانت هذه أمور جديدة علينا ، لكننا سرعان ما ألفناها ، وأعتقد أنهم من جانبهم حاولوا الاستجابة لبعض طباعنا .

يبدأ اليوم المدرسى فى الثامنة صباحا ، ويدخل المدرس من الشارع ، أو حجرة المدرسين رأسا إلى الفصل ، لا طابور صباح ، ولا نشيد وطنى ولا تحية علم أو قسم . ويستطيع المدرس أن يغادر الفصل قبل انتهاء الحصة إذا كان قد انتهى من الشرح ولم يعد لديه ما يقوله دون أن يسائله أحد !

كان هذا مبعث حيرة لنا واستنكار من جانبنا ، نحن الذين نضيق بكثرة القيود فى مدارسنا . هل نحن محبون لكثرة القيود برغم استنكارنا لها ، أو أننا نكره أن يكون بديلها هى هذه الفوضى الضاربة ؟ أو أنها روح المقارنة بين نمطى حياة مختلفين . وهذه حالة لن تسلم منا نحن أو هم « ففى كل قضية » تمس سوريا كنت تجد مصريًّا يقول :

. . . إحنا عندنا . . .

وفى كل « قضية » تمس مصر تجد أكثر من سورى يقول . . أستاذ . . نحنا عندنا . . وهذه بدورها قضية أخرى .

أما الطلاب ، فهم جفولون ، لا تنال ثقتهم بسهولة ، قد يقدرون جهدك ويشيدون بك « الله يعطيك العافية أستاذ » لكن تظل بينك وبينهم مسافة ، بل فجوة ، تكاد نظنها جفوة لا سبيل لإزالتها ، وتظن فى برودهم أو صمتهم استعلاء أو ازدراء ، لكن هذه هى طباعهم . فى البداية لم يكونوا يبالون بالنهوض عند دخولك الفصل ، لكنهم بعد ذلك تعودوا لكن ليس بتلقائية وبساطة الطالب المصرى .

ومع ذلك فمن يدرى ؟ ربما نظن نحن فيهم كبرياء وتعالياً أو ازدراء وهم يرون فينا متعنتين نفرض مالا لزوم له . . ما الداعى أن ينهض طالب عند دخول أستاذه ؟ هكذا سئلت مرة . ولم تقنعهم فكرة إظهار الاحترام فقلت ، ثم إن لذلك فائدة هامة للطالب هى أن تنفض عنه الكسل وتحسه بالجدية اللازمة . . هيك ، أى هكذا ! أجاب بعضهم مقتنعاً ، وظل الآخرون على غير اقتناع ، لديهم ألف تحفظ وتحفظ ، ليس السوريون بالبساطة التى نحن عليها ولعل الآية الكريمة تنصرف إليهم عندما تقول (وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) . . فهم على استعداد لأن يجادلوك حتى فى اسمك .

أما أبو معن مدير المدرسة فحين كان يصدعه الطلبة بالشكوى من أمور كهذه منافكان يهز كتفيه . قائلا : شو بدى أساوى . . هادول يا سيدى فراعنة !

أى ماذا بيده أن يفعل معنا نحن الفراعنة !

ولكن ما تلحظه ، أو تأخذه على طلابك فى حجرة الدرس . يهون ألف مرة إلى جانب ما يسلكونه إزاءك فى خارجه . . إنهم فى الشارع لا يلتفتون إليك . ويتصرفون كأنما لا يعرفونك أصلا . . وأقصى ما يجودون به عليك إن أحبوك حباً حقيقياً هو أنه يتيحون لك الفرصة لأن تلقى عليهم بالتحية !

أكنا وحدنا نحن المصريين – المقصودين بهذا السلوك ؟ هل كان سلوكهم يختلف مع المدرسين من أبناء حماة أو دمشق ؟ هذا مالا أستطيع أن أجزم به على الإطلاق ، وإن كنت ، وكل المصريين معى . . لا أستطيع إلا أن أقارن بين سلوك كهذا ، وبين سلوك طلابنا فى مصر ومثل هذه المقارنة ، التى كانوا – السوريون – بدورهم يعقدونها ، كانت منشأ كثير من الحساسيات ، وهى التى – أى الحساسيات كانت كثيرة لحد لا تحتاج معه إلى مزيد . .

نصيحة من الأستاذ أدفاوى :

يقتضى الأمر كى تبين بعض « أركان » هذه النصيحة . . القيمة أن نعود إلى بعض الشئون الإدارية : كان المصرى المنتدب للعمل بسوريا يتقاضى راتبه فى مصر كما هو ، ويتم هذا على نفقة الإقليم الجنوبى الذى هو مصر ، ويتقاضى بالإضافة إلى ذلك على نفقة سوريا « علاوة إقليم » تعادل مرتب زميل له ، له أقدميته نفسها يعمل بسوريا ، وكان من حقنا أن نحول راتبنا المصرى إلى سوريا فيصرف لنا فى هذه الحالة بالليرات ، ونفيد نحن من فرق العملة ، إذ كان سعر صرف الجنيه رسمياً ٩,١٥ من الليرة لكنه كان فى السوق الحرة لا يزيد عن ٨

ليرات فى أحسن الأحوال .

ومع أن المعاملة – فى الحالة المقابلة – كانت بالمثل مع فارق هام هو أن الزميل السورى يحتفظ براتبه فى سوريا وهو كبير . . ومن حقه أن يحوله . . وإن كان بالطبع يفضل أن يشترى به الجنيهات من السوق الحرة ، بالإضافة إلى علاوة إقليم فى مصر توازى مرتبه الأصلى . . مع ذلك كله فإن الأمر كان مساراً لحساسية جديدة : المصريون يحصلون على راتبين !

السوريون الذين يذهبون إلى مصر كذلك .

لكنك لا تجد أذنا مصغية وتظل « القضية » مقصورة على الراتبين اللذين يحصل عليهما المدرس المصرى . فإن عدت وتمسكت بوجهة نظرك قال لك محدثك :

نحنا أستاذ نقصد الاثنين أنتم وهم .

أى أن ما نقوله عليكم نقوله عن السوريين الذين يذهبون إلى مصر . وهكذا فبدلاً من أن تقنع محدثك وتزيل بعض الحساسية إذا بك تزيدها وما حيلتك ؟

وفى إحدى الأمسيات ، وكنا لم نقض بعد بسلمية أكثر من أسبوعين جاءنا زميلنا الأستاذ الشويحى طالباً إلينا الذهاب لزيارة بعض المصريين العاملين بسلمية من مواطنينا . . أبناء الإقليم الجنوبى . .

كان هؤلاء يعملون بالمدارس الابتدائية ، وكانوا يسبقوننا فى هذه البلدة بأكثر من عامين ، فهم أول من جاء سلمية بعد الوحدة مباشرة . .

وبعد الحفاوة والترحيب دارت الأحاديث المعهودة ، فهم أكثر منا خبرة بالبلاد ، و « بمواطنينا » السوريين ، وبعد نصائح عديدة أهملنا الكثير منها ،إذ يبدو أن النصائح لا تدرك صحتها إلا بعد أن تمر بها ، ولذلك فوفر على نفسك نصائحك ، فلن يستجيب لها أحد إلا بعد أن يدرك صحتها بنفسه ، ليبدأ هو

بدوره فى إسدائها لمن سيخالفونها . . بعد ذلك كان هناك زميل من هؤلاء صامت لم يتكلم،نحيل هو – وكان مطرقاً إلى الأرض ، ثم فجأة رفع رأسه وبدأ يتحدث :

– وإذا سألوكم عن المرتبات فقولوا لهم : إننا لا نتقاضى فقط مرتبين ؛ بل إننا نتقاضى ثلاثة رواتب. تساءلت : ثلاثة ؟ فواصل حديثه دون أن يلقى بالا .

– الأول هو مرتب الإقليم الجنوبى ، والثانى علاوة الإقليم الشمالى ، أما الثالث فهو من جهة لا نبوح بسرها . .

وقطع دهشتنا ، بعد أن تفرس فى وجوهنا واحداً واحداً واستمر يفسر الأمر ببساطة شديدة :

– سيظنون هذه الجهة هى المخابرات العامة ، أو يظنونها رياسة الجمهورية . . دعوهم وما يظنون . .

ولم يعلق أحدنا بكلمة . وما فائدة أن تجادل رجلا سبقك إلى هناك بثلاث سنوات ، ولابد أنه قد نفذ بالفعل ما ينصحك به . وأين ؟ فى موطن لا يمكن لأحد أن يتباهى به على الإطلاق . . وهؤلاء نحن نتبرع بتشويه صورتنا . .

ومع ذلك ، فكلما عادت بى الذاكرة إلى هذه الأيام ، أكاد أعيد النظر فى تقديرى لما حدث من الزميل برغم استنكارى له : من يدرى ؟ لعل روح العداء التى بدأنا نواجه بها هى التى اضطرته لهذه الحيلة الساذجة والخطرة معا . . لعله كان يبحث عن ملاذ بأيسر السبل بعد أن أضعفته الصراحه والاستقامة . . ألا تذكر هذا الزميل الذى نسيت اسمه ، والذى قابلك فى دمشق هائماً ، يحاول تدبير أموره وهم يطوحون به من الجنوب إلى الشمال ، ومن الشمال إلى الجنوب ، ويتهمونه بمعاداة الوحدة ؟

ومع ذلك فأيا كان الأمر فهذا هو ما حدث ، وكم كانت له من نتائج تبعث على الأسف ! لم أعلم بها إلا فى نهاية الأحداث .

ولكن مهلا ، فنحن ما نزال بعد فى بدايتها .

عندما تكون الغربة هى الوطن :

من طبيعة الأمور أن تكون دائرة علاقاتك فى البداية ، فى أى بلد تعمل به ضيقة ثم تأخذ بعد ذلك فى الاتساع . . لكن الذى حدث معنا كان العكس من ذلك ، ولو من ناحية مظهرية . .

لقد ألفت الغربة بيننا وبين كثيرين ، وفجأة وجدت لى العديد من الأصدقاء : كل المصريين بالطبع ، بالإضافة إلى الزملاء السوريين العاملين هناك والذين اضطرتهم الظروف إلى الإقامة فى سلمية . ولقد كانت علاقتنا – علاء وأنا – بهؤلاء الأخيرين فى البداية أوثق حتى من علاقتنا بزملائنا المصريين لأسباب عديدة قد يكون منها أن النفس تنزع إلى الارتباط بالمختلف عنها ، وبالغريب ، مفترضة – فى حالتنا هذه – أن المصريين الذين معنا إنما هم منا ، مع أنهم هم الآخرون كما ستثبت التجربة لم يألف بعضهم بعضاً أيضاً ، وأن الذى ربطهم بعضهم ببعض هى الغربة والوضع الذى وجدوا أنفسهم فيه . .

كان زميلنا محمود عجاج ، هذا الفلسطينى من صفد هو أول من توطدت به أواصر الصداقة فهو زميل وجار فى وقت معاً ، كان لبقاً واسع الاطلاع ، ومع ذلك فلم يفتنى أن ألاحظ أمراً له دلالته : لقد كان يقضى معظم الوقت فى حجرتنا ، وفى هذه الحالة يتصرف على راحته تماماً ، لكننا عندما ندخل حجرته نظل نحس أننا – برغم الترحيب الحار – مجرد ضيوف ، وقلت لنفسى مراراً

لاداعى لهذه الحساسية المفرطة ، فنحن هنا غرباء ، نبحث عن الصديق ، ربما بأى ثمن .

وعن طريق هذا الزميل توطدت صداقتنا كذلك ببقية الزملاء الشوام : أى أبناء دمشق ، مع أنه كان بينهم واحد من أبناء اللاذقية لم أكن أشعر نحوه بأى ارتياح ، ومع ذلك فقد ربطت بيننا جميعاً هذه الغربة التى كنا فيها جميعاً ، فأبناء دمشق هم أيضاً غرباء فى سلمية . وإن كان وقع الغربة على الفريقين يختلف . .

كنا نتناول الغداء معاً فى مطعم واحد ، وبعد فترة راحة قصيرة تمتلئ حجرتنا بهم ، وتبدأسهرة مرحة ، يكون نجمها بلا منازع هو أحمد رأفت مرادنى بروحه المرحة ونكاته الجميلة ، وحكاياته الدمشقية التى تستحق وحدها وقفة خاصة . .

وذات يوم فوجئنا بأهل البيت يخبروننا – علاء وأنا – أن (محمود عجاج) قد ترك مسكنه ، وأنه أقام مع زملائنا الشوام . . هكذا دون كلمة ، دون تمهيد . .

سألنى علاء : – ماذا حدث ؟

ولم يكن لدى رد ، ولم يكن ينتظر رداً ، لكنا أضفنا الأمر إلى الألغاز التى بدأنا لا أقول نواجهها بل نألفها : لقد كنا غرباء ، ووجدت علاء يكرر الفكرة التى قلتها نفسها لنفسى بأننا فى حاجة هناك إلى صديق . . بأية طريقة . . وهكذا تغلبت الحكمة وحرصنا على بقاء روابطنا قوية ، وفوجئت بعلاء يقول ونحن عائدان من السهر عندهم ذات ليلة :

– أتدرى ما هو السبب ؟

– فيم ؟

– فى خروج عجاج من مسكننا ؟ لقد أغراه ميخائيل على الإقامة معهم ،

لأن لديهم حجرة خالية . . وسيوفر ذلك لكل منهم خمس ليرات (أى نصف جنيه . من دخل يبلغ فى مجموعة ما يزيد على مائة الجنيه) . . وضحك ضحكة لها مغزاها ، ثم قال مقلداً اللهجة السورية .

– هيك أستاذ ! (أى هكذا يا أستاذ) .

ومع ذلك فإن ذلك لم يؤثر على العلاقة فى شىء . . وكم شهدتنا سلمية نشترى معاً الطعام ونحمله بأيدينا ! وكم من ليلة كنا مصدر الضجة (الوحيدة) فى الشوارع الصامتة ! وكم رنت ضحكاتنا فى المدينة حتى كدنا نسمع لها صدى . ! لكن الصوت كان يتلاشى وتعود للشوارع جهامتها الحجرية المتدثرة بغبشة الليل الذى تسبح فيه هنا وهناك بعض مصابيح جد متباعدة ، شحيحة الضوء . كأنما تضن هى الأخرى علينا بنورها . فنضحك ونتضاحك من جديد ، وتظل البيوت مغلقة نوافذها وأبوابها . . كأنما تزور هذه النوافذ والأبواب عنا ، مستنكرة أن يخطو فوق أرض شوارعها غرباء !

فى الاتحاد القومى لأول ولآخر مرة :

يغرينى جو الحريات الذى نعيش فيه أن أعترف . وأرجو ألا أكون بذلك أشى بنفسى ، إننى لم أكن يوماً لا عضواً بهيئة التحرير ، فى زمن كنا فيه كلنا هيئة التحرير ، ولا بعد ذلك فى الاتحاد القومى بالرغم من أن « الظروف العصيبة التى كان يمر بها الوطن – ولست أدرى لماذا تكون ظروفنا على الدوام عصيبة ؟ كانت تحتم على كل منا أن يكون عضواً فى هذا التنظيم السياسى ، لتتوحد كل الصفوف فى وجه جميع المؤامرات « التى تحاك ضد الوطن » وإذا كنت قد أصبحت بعد ذلك عضواً فى الاتحاد الاشتراكى ، فقد كان ذلك لأن مدير المصلحة التى عملت بها بعد تركى للتدريس لم يكن هو الذى يسمح بأن

ينقص عدد موظفيه المنضمين – بكامل حريتهم – إلى الاتحاد الاشتراكي واحداً ، وإلا فكيف يواجه بعد ذلك رئيسه ؟ وكيف سيواجه رئيسه رئيسه الأعلى ؟ وكيف سيواجه هذا الرئيس الأعلى وكيل الوزارة ؟ . وكيف سيواجه سيادة وكيل الوزارة السيد الوزير ؟ . . ونتوقف عند هذا الحد ولكل مقام مقال . ومع ذلك فقد ظلت علاقتي بالاتحاد الاشتراكي مقصورة على مبلغ العشرين مليماً التي تخصم مني كاشتراك عضوية مع مرتب كل شهر .

بعد هذا الاعتراف الأبيض ، أظن أن القارئ سيتصور مدى ترددي . وأنا ألبي تلك الدعوة التي وجهت إلينا نحن مدرسي ثانوية سلمية لحضور ندوة بالاتحاد القومي بالبلدة ؟ كيف يمكنك وأنت مصري أن تتملص من دعوة كهذي في بلاد تحسب عليك فيها حركاتك وسكناتك ؟ وكيف سيؤول غيابك ؟ وهل تنقصنا هنا الحساسيات ؟ واستعدت صورة المصري التائه في دمشق والذي نقلوه من حوران في الجنوب إلى القامشلي في أقصى الشمال . . وكان المسكين ساعتها يهذي :

– حاذروا . قد يتهمونك بأي شيء . . حتى بمعاداة الوحدة ذاتها . .

هنا بلغ اقتناعي ذروته ومن قال : إن الإقناع والاقتناع عملية منطقية محضة ؟ ثم لماذا ننحاز هكذا إلى المنطق ومن ثم العقل ؟ ألسنا بذلك نعطل كل الحواس ؟

ولقد هون من الأمر بالنسبة لي – أو قل زادني اقتناعاً ، أننا ذهبنا متساندين معاً : علاء والإخوة الشوام وأنا . . وهناك حدثت المفاجأة التي أسفرت عن أمر جلل : إن زميلنا الأستاذ الشويحي رجل مهم ، وهو واحد من قادة الاتحاد القومي في مصر . وكان يلقي خطاباً حماسياً ذكرني في بعض عباراته – وليس فيها كلها للحقيقة – بلوريات القاهرة التي كانت تهتف للوحدة ولدمال (جمال) .

لا يمكن بأية حال أن أتذكر عبارة واحدة من مئات – لعلها ألوف ، لكن التحفظ هنا ضرورى لمزيد من الدقة – العبارات الحماسية والثورية التى قالها . . والتى أخلت مكانها فيما بعد ، بعد أن أدت دورها المجيد فى مسيرتنا الظافرة نحو المجد والرفعة لعبارات مثل المد ، والمد الثورى والدفع والدفع الثورى والثورة والثورة المضادة إلخ إلخ . . لكن الذى فهمته ولا أزال أذكره أن من الضرورى علينا « فى هذه الظروف العصيبة (تانى !) التى يمر بها الوطن أن نحتشد كلنا فى الاتحاد القومى . . وإلا . .

ولم يكن الزميل فى موقفه هذا هو الزميل الذى صحبنا هو نفسه لزيارة زملائنا المصريين . أو الذى عرفته منذ وقت لا بأس به ، لقد وجدته منظراً سياسياً اكتسب بعد أن حشا كلماته بعدد لا بأس به من الكلمات السورية التى يسىء استخدام معظمها حق المواطنة فى سوريا ، فجاء ذلك تدعيما لحق مماثل منحه إياه قيام دولة الوحدة . .

دار حوار طويل بينه وبين أبى معن ، مدير مدرستنا الذى بذل كثيراً من الجهد والملاينة لإيقاف الاندفاع الثورى لمواطننا مهدئاً ملاطفاً بعبارات مثل : لطفك أستاذ . . عفواً أستاذ . موهيك أستاذ . . دخيلك أستاذ . . لكن الأستاذ ظل مصرًّا على أن الذى يتقاعس عن واجب الوطن إنما هو خارج عن الصف . وأبعد نفسه بنفسه عن مسيرة الثورة . . واكتشفت أننا جميعاً على حافة الخيانة . . إن لم نكن قد خنا بالفعل . . أما ما هذا الذى خناه أو سنخونه ، فهو أمر لا يهم على الإطلاق أو هو واضح كل الوضوح .

طالت الجلسة التى كان يحضرها جميع مدرسى ومعلمى سلمية (المدرس للمرحلة الثانوية والمعلم للمرحلة الابتدائية) وملأ دخان السجائر القاعة ، ودارت أقداح القهوة المرة التى يحوى قاع الواحد منها ثلاث نقط بالعدد . لكنها

كافية لأن تصيبك بيقظة عصبية . . وأصبح الهواء خانقاً . حارا . . لكن الشويحي كان لا يزال (مستفرداً) بنا فى حين أصاب القلق والملل والترقب الجميع ، ورانت كآبة وتوجس شديدان ولابد أن الظنون والوساوس قد حلت بكل النفوس وفجأة دخل حسين . . يتصبب عرقاً – أخبرنى بعد ذلك أنه كان ساعة بدء الجلسة فى دمشق . وأبلغ تليفونيا مضمونَ ما قاله الشويحى ، فطلب إبقاء الندوة معقودة بأية طريقة . وعاد من دمشق رأساً ، وهى مسافة لا تقطعها أسرع سيارة فى أقل من ثلاث ساعات ونصف الساعة – ولم ينتظر حسين ليسمع المزيد وإنما بادر بالقول :

– عفواً أستاذ شويحى .

ثم استرسل قائلا ما معناه إن الاتحاد القومى ليس فرضاً على الآخرين ، ومن شاء الانضمام إليه فرحباً دون أن تكون له ميزة على غيره من المواطنين ، ومن شاء ألا ينضم فلن ينتقص ذلك من حقوقه أبداً . .

ولو فضل أى منكم الانصراف لعمله كمدرس وأخلص فى رسالته فستكون هذه خدمة جليلة لوطنه .

تنفست الصعداء . وكذلك فعل الجميع وانبرى الشويحى مقاطعاً :

– يا أستاذ حسين . . نحنا عندنا بمصر . .

– يا أخى نحنا ما عندكم بمصر . . نحنا هون بسوريا . . بسلمية (أى لسنا نحن عندكم بمصر . ولكننا هنا فى سوريا ، وفى سلمية بالذات) وعند انصرافنا تأبط حسين ذراعى وذراع علاء ، وقد تعرف عليه ووثقت علاقته به هو الآخر :

– شو هذا الشويحى يا أخى . . هذا ما بيعرف شو ظروفنا هون بسوريا . . أو حتى هون بسلمية . .

نعم لم يكن الشويحى عضو الاتحاد القومى ، ورسول التنظيم السياسى إلى بقية البشر يدرك إلى أى مدى تردت إليه الأمور . ؟ لقد كانت الوحدة تعانى من حشرجة الموت . وكان الوضع فى سلمية بالذات قاسيا ، ومما له دلالته . أننى التقيت منذ عامين صدفة بمطار القاهرة وحسين . هذا ، وكان كل منا يتجه وجهة مختلفة وقضيت معه ساعة زمن . ولم ينس أن يذكرنى هذا الذى جرى من الأستاذ الشويحى الذى كان يصيب الأمور المتأزمة . . بأزمة جديدة . .

النموذج لا الشخص :

استضافنا حسين . . – علاء وأنا – فى منزله كان كريماً معنا ، وهو يحب على الدوام أن يحشو كلماته بكلمات مصرية وبلهجة مصرية كذلك . وهو فى هذا وعلى نحو ما كان المقابل لزميلنا العتيد . . وإن كنت حتى اليوم كما كنت أحس الأمر فى حينه . أظن أنه كان يحب مصر من خلال عبد الناصر ، وفيما عدا ذلك فإن فكرته عن مصر ليست أكثر من تجريد لا جسم له . !

وليس تزيداً أن أقول هنا ؛ إن بيت حسين وبيت زميل سلمونى آخر سأحكى حكايته فيما بعد ، وإذا ما استثنينا الزيارات المتبادلة بيننا وبين الإخوة الشوام . كانا هما البيتين الوحيدين اللذين خطت أقدامنا عتبتهما . . من كل بيوت سلمية . .

وليس من نافلة القول كذلك أن أذكر أن (حسين) كان فى بداية طريقه السياسى بعثيا قحاً من أنصار أكرم الحورانى . ثم استبدل بأكرم الحورانى زعامة عبد الناصر وأصبح ناصرياً . . وفى حين تخلى معظم البعثيين عن الوحدة بعد ابتعاد الحورانى وزملائه عن مسيرة الوحدة ، ظل حسين . . متعاوناً مع سلطات

الوحدة . وأميناً للاتحاد القومى فى هذه المنطقة من سوريا . ثم لجأ إلى مصر بعد الانفصال . .

لقد لعب حسين . وسيلعب دوراً هاماً فى هذه الشهادة التى أدلى بها لكنى مع ذلك ، وعلى الرغم من صداقتى له بل ومحبتى إياه ، لا أستطيع إلا أن أعجب مما انتهى إليه الحال به . إنه الآن واحد من مديرى جريدة السفير اللبنانية التى تأتمر بأمر القذافى . فهل يا ترى قد وجد حسين فى القذافى الوريث الحقيقى لعبد الناصر . . أو تراها هى محنة أولئك الذين يؤمنون بالأشخاص أكثر مما يؤمنون بالأوطان أو المبادئ . أو على الأقل يرون هذه الأوطان والمبادئ قد تجسدت فى شخص واحد يرتبطون بمصيره ويكون ذات يوم ما هو كائن الآن . ! إنها محنة حقيقية قد يكون أحد أسبابها أنه قد قدر على بعض أبناء هذا المشرق أن تكون لعبة السياسة كالرهان وحين يقامر الإنسان بحياته ومستقبله ، بل ووطنه نفسه على جواد سياسى فإنه يجد نفسه قد انساق فى تيار أقوى منه ، بحيث يكون من العسير عليه أن يتوقف لحظة يتأمل أين هو الآن مما كان يريد أن يحقق ؟ . وقد يدفعه اليأس إلى مزيد من الخطأ ولا أقول التورط ، وتصبح الحياة سلسلة من مراهنات يائسة أكثر منها خاطئة . .

حكايات دمشقية :

يهمس محمود عجاج فى أذنى كلما « حكى » : أى تحدث – رأفت مرادنى قائلا :

– هذا نمط للشامى القح . وأعجب من هذا الرجل نصف التركى الذى يحمل خصائص الشام بكل هذه الدقة ، وإن كانت خفة دمه وقدرته على الإضحاك تخمد فى رأسك كل سؤال .

والشيء الذى كان يتباهى به رأفت مرادنى هو شطارة الشوام وذكاؤهم وينظر إلينا – أنا وعلاء – ضاحكاً . ويكون الحديث دائراً عن سلوك تجار الشنطة السوريين فى القاهرة وغزو السلع السورية للسوق المصرية .

– أستاذ ، بتعرف أن التاجر اليهودى لو فتح جاره شامى يغلق محله فى الحال . !

فأقول ضاحكاً :

– هيك ؟

ولا أنسى له نصيحة أخذت بها ، فحين طلب إلينا تثبيت الساعات الإضافية أى تحديدها – فالنظام هناك أنك تحدد ساعات من التى تدرسها تعد إضافية . بحيث تحصل على أجرها حتى لو لم تدرس سواها ، ولا تحصل على أجرها إذا لم تدرسها ولو درست مع ذلك كل الأسبوع ، لقد جاء بأجندة العام وحصر أيام الإجازات وانتقى الأيام التى لا تقع بها إجازة أو على الأقل تقل عدد أيام الإجازات التى تحل فيها ، كان رأفت لا يكف عن التباهى بذكاء الشوام ولا بأس من أن أورد هنا حكايتين مازلت أذكرهما له :

بتعرف كيف كنا بنقضى العيد !

ويحكى كيف كان يحصل من والده على نصف ليرة مصروف عيد . لكنه بدلاً من أن ينفقها فى اللهو يشترى بها (سكاكر) (أى حلويات) ويذهب لينتقى أجمل نواصى دمشق ، ويقف بها عارضها للبيع ، وفى نهاية النهار يعود وقد قضى يوماً جميلاً فى أحسن أحياء دمشق . واحتفظ بمصروفه وكسب فوق ذلك نصف ليرة .

فأقول له مازحاً :

– ولابد أن الذين اشتروا منك ليسوا شواماً !

– تمام أستاذ .

– ويضحك مازحاً :

– كانوا مصريين ، بتعرف ليش بنسمى النقود مصارى . . لأننا بنأخذها من مصر !

لكن الحكاية التى لا أنساها له مطلقاً هى حكايته عن الطريقة التى كان يلجأ إليها هو وزملاؤه فى تركيا :

«كنا نشترى دولارات بمائة ليرة سورية . ونضع الدولارات فى الجراب (الشراب) . وفى تركيا نستبدل بالدولار ليرات تركية . الدولار . مرتفع كثيراً بالنسبة لليرة التركية . والأسعار هناك معتدلة للغاية . ننفق ببذخ . ونقضى أسبوعاً بأكمله . وعند عودتنا نشترى بما تبقى معنا سلعاً تركية مطلوبة فى سوريا ، وعند عودتنا نبيعها بنحو مائة ليرة . وبذلك نكون قد قضينا أسبوع سياحة على حساب أعمامنا الأتراك . .

ومع أننى لست ضليعاً فى الاقتصاد . بل لا أكاد أطيقه ، كما أننى لا أعرف شيئا من اقتصاديات السياحة . . فإننى كلما شاهدت أفواج السياح العرب الذين يملئون القاهرة . . ذكرت حكاية رأفت مرادنى وتساءلت : يا ترى هل هذا البذخ من جهة والمعاناة من جهة أخرى تأتى لنا بكسب حقيقى أم هى على حسابنا ؟ . . ويغرينى بالسؤال ما أعرفه عن سعر الجنيه المصرى فى السوق السوداء هناك ، وعن مئات الطرق التى يمكنه أن يسلكها ليأتى إلينا . . ولو فى الحقائب الدبلوماسية !

دعاة الوحدة صناع الانفصال :

أصر حسين أن يودعنا . وأن يقطع معنا الطريق حتى منزلنا . . كان الوقت

ليلا ، والطريق ساكناً . والقمر يبعث بأشعته بشكل عبثى ليضىء للاأحد . . وكان الحديث مرحاً . وفى حين كان يختصنى بالأحاديث الجادة ، ربما لأننى لم أستطع أن أكشف عن قدرة على المزاح ، كان يسعد كثيراً لنكات علاء الذكية والصريحة معاً . . وعندما بلغنا مكان الأوتيل . حيث تنتصب أشجار بالغة الطول ، بدت فى ضوء القمر كأنما هى دغل صغير انشقت الأرض فجأة عن عدد لا يقل عن ثمانية من البشر . . كانوا تحت الأشجار صامتين . . ومع أنهم لم يبدوا حراكاً فإننى نظرت إليهم بتوجس . . وبانت ملامحهم أكثر وزاد صمتهم إن كان من الممكن للصمت أن يزيد . حاذيناهم فلم يتزحزحوا من أماكنهم . . كان بعضهم يقف بعرض الطريق ، وكان لابد أن ننفصل ثلاثتنا حتى نتفادى منهم . ومررنا مخلفين إياهم خلفنا ، لم يلق حسين عليهم بتحية ولا هم نظروا إلينا وإن كانوا بالطبع يرقبوننا فى الخفاء .

– هادول يا سيدى زملاؤنا .

وصمت ثم قال مكملا :

– مساكين . . شوبدى أحكى . .

لكنه حكى ، وأخبرنا أن هؤلاء هم رفقة البعث ، كانوا معاً رفقاء طريق . تلاميذ أكرم الحورانى ، لكن الوحدة قامت . خيو – أى يا أخى – وظهر عبد الناصر وتجسدت فيه الآمال ، لكنّ زملاءنا متشبثون بالأيام الخوالى . بحلم سيطرة البعث . . ما بيعرفو أن الأيام اتغيرت وأن المنطقة فيها اليوم عبد الناصر . هيك . . عبد الناصر هو الرمز ، ومصر هى المنطلق . . والوحدة قامت . . لكن هادول ما ينسوا أبداً أكرم الحورانى ..وعندما خالف عبد الناصر واستقال ابتعد هؤلاء عن العمل . . قام الاتحاد القومى ، لكنهم مصرون على حزب البعث . مساكين والله . ! .

والآن . . هل هم مساكين حقاً ؟ لكن الإجابة هنا ستكون خادعة للغاية ؛ فليس المنطق هو الذى يحكم هذه الساحة وإنما هى المقامرة . . وليس الرابح على الدوام هو أمهر اللاعبين أو أكثرهم ذكاء . . ثم من يدريك أن لهؤلاء اليوم مكاناً على خريطة الأحداث ؟ . فأين أكرم الذى كانوا يتغنون به ، ويجعلون منه الأمل والهدف والوسيلة ؟ أين أكرم الحورانى الآن من البعث ومن دولة البعث ؟ وهل ظل هؤلاء على ولائهم له أو صاروا من أتباع أحمد عبيد أو محمد عمران أو صلاح جديد أو نور الدين الأتاسى أو حافظ الأسد . . أو حتى ذلك الثنائى البعثى الكوميدى يوسف زعين وإبراهيم ماخوس . ؟ . هل ظلوا حيث هم أو كنستهم مكنسة السياسة السورية التى تزيح كل سنة من الطريق أعداداً كبيرة تتطاير كالقش والنفايات ؟

ليست لدينا إجابة قاطعة على مكانة هؤلاء اليوم ، ويعنينا منهم فقط ما كنا نلمسه هناك فى تلك الأيام ، كانوا يصمتون عنا . . لكن الأسئلة السخيفة التى كانوا يلقنونها طلابَنا كانت تشهد على دورهم الحقيقى . وموقفهم الحقيقى من الوحدة ، التى رفعوا شعاراتها براقة مخادعة ، لكنهم عملوا جهدهم على تحقيق الانفصال – بل على تكريس الانفصال ، لكن هذه قضية سنعود إليها فى حينها . .

أيها الغاصبون . .

كانت سهرتنا المعتادة توشك أن تبدأ ، وكنا قد انتهينا من التهام طعامنا الذى كنا نتخاطفه بعضا من بعض برغم كثرته . . قمت بإعداد الشاى وغسل رأفت الأكواب وتعاون الباقون فى تنظيف المنضدة من بقايا الطعام . . على رشفات الشاى بدأت السهرة ، وقص رأفت حكاية من حكاياته التى لا تنفد عن أيامه

فى البوكمال ، وأشار محمود عجاج أن نقترب ، تلفت حواليه وهمس راوياً نكتة جنسية تضرج وجهه منها خجلا . . وحان الدور على ميخائيل فرفض أن يحكى إلا إذا ناديناه أبا عمران . . وقص حكاية والده الأمى الذى ركب بحسارة باخرة طاف بها كل العالم ، ونزل فى كل المدن دون أن يكون على معرفة بكلمة أجنبية واحدة ! وتحدث علاء عن الموديل التى كان يرسمها ، وجاء دورى فبدأت أحكى عن يوم دخلت الفصل فى السعيدية الثانوية فنادانى طالب كى أجلس إلى جواره وكيف انفجروا ضاحكين قائلين هيه هيه عندما علموا أن هذا « الولد » الصغير أستاذ لهم . . وامتدت يد خلاص ، زميلنا اللاذقانى ، تعبث بأزرار الراديو وكانت أغنية لعبد الوهاب ، توقفت عن حكايتى وران الصمت :

يا جارة الوادى طربت وعادنى   ما يشبه الأحلام من ذكراك . .

هل يمكن أن يبارى أحد عبد الوهاب فى جمال صوته وعذوبة لحنه ، والقمر بدر يطل من السماء يكسو الأرض بفضة لا تحول ؟ . واليوم أبلغنى أبو معن أن الطلاب يمتدحون عملى : يعطيك العافية أستاذ ، وألقى على واحد من أهل البلدة فى مديرية البريد بالسلام . وأحوال الأسرة فى القاهرة مطمئنة ، ويوشك أول الشهر أن يبدأ . والجيب لا يزال عامرا بالأموال . . لكن اللحن الجميل قد انتهى ، وأخلى مكانه لمساحة صمت تبادلنا خلالها النظرات والتحيات ممنين النفس بلحن آخر من عبد الوهاب :

– أيها الإخوة فى الشمال الحبيب . . أيها السوريون الأشاوس ، أخرجوا من بلادكم هؤلاء الغاصبين . . إن المستعمرين المصريين قد جاءوكم يسلبون خيرات بلادكم . .

وأسكت (أبو عمران) الصوت المزعج . . وكانت إذاعة عمان . وران

صمت وأطرق الجميع برءوسهم ثم تلاقت النظرات ووسانى عجاج بنظرة إشفاق وتعلق بصرى بعلاء . قال ميخائيل :

– غاصبون ومستعمرون . هذا كلب ما يسوى ! .

وقال رأفت :

– يقال : إنه من ابناء سلمية .

– لابد أنه بعثى .

– وهكذا التقى البعث والملك حسين . مهزلة !

أحسست بحرج شديد ، ولم تعد لى رغبة فى متابعة السهر ، ولكن كيف السبيل إلى النهوض ، وأنقذنى من ورطتى علاء . . كان الأمر أوضح من أن يداريه أحد ، فأسرفوا فى استبقائنا دون حماس .

وليلتها ، تقلبت مرات فى فراشى ، أنا الذى أنام على الفور ما إن أضع رأسى على المخدة كما يقولون ، وفى كل مرة أتقلب فيها كنت أسمع صوت علاء . .

– ألم تنم أنت أيضاً بعد يا أستاذ ؟

شو . . يعنى شو ؟

بدأت بركات البعث تنهال علينا فى شكل أسئلة تبدو بريئة فى شكلها لكنها – حين تتأملها ، أو حين تحملها على معناها الحقيقى تحمل معنى بالغ الخبث . .

ذات يوم شكا لنا زميلنا الأستاذ عامر مدرس الموسيقى ذو الأعصاب المرهفة للغاية . والذى لم يعرف فى حياته أن هناك ما يسمى عنفاً أو دماء ، والذى وجد « زعيمنا » الشويحى أن أفضل وسيلة لدعم مركزه – أى مركز

زميلنا – أن يشيع أنه قريب للمشير عبد الحكيم عامر مستغلا فى ذلك تشابه الاسمين ، ونتذكر هنا نصيحة الأستاذ الأدفاوى – ذات يوم شكا لنا الزميل أن طالباً فاجأة بسؤال غريب :

– أستاذ ، هل كل المصريين حشاشون !

لم يفعل الرجل سوى أن انفعل غاضباً ، ولابد أنه قد رد ردًّا عصبيًّا ، يعنى أننا هنا لنعلمكم وعيب أن تحدثونا بهذه اللهجة . فحمل الطلاب كلماته معنى مغايراً واشتكوا لزملائنا السوريين وبالطبع لأبى معن . عاتبنا أكثر من واحد :

– شو هذا الأستاذ عامر؟ كيف يقول للطلاب : إنكم هنا لتعلمونا ؟

ونشرح لهم ما يمكن أن يعنيه . فيهز محدثك رأسه مبتسماً ابتسامة لا تفهم منها إن كان يوافقك أو يعارضك .

– هيك يا سيدى . . منيح (أى طيب . . طيب) وجاء الدور على لأشكو لزملائنا أسئلة أقل استفزازاً . تستجوبنى لماذا يحشو المصريون حديثهم بكلمات أجنبية أو « مو » ؟ عربية . .

أقول لهم ملايناً ومصطنعاً الهدوء :

– ألا يستخدمون كلمات شوفير وكاراج وفيزياء و . .و . .

– أى أستاذ (أى نعم)

– هذه أيضاً كلمات أجنبية .

– هيك ؟ منيح أستاذ . الله يعطيك العافية .

لكنك تحس أن الاتهام مايزال قائماً . وحتى يكون القارئ معنا فى الصورة فإننى أسمح لنفسى أن أقفز إلى مباحثات الوحدة الثلاثية التى جرت فيما بعد بين عبد الناصر وبعثى العراق وسوريا وكيف أن لؤى الأتاسى قد اتهم مصر بأن وجه القاهرة غير عربى لمجرد وجود لافتات تحمل بيانات بالإنجليزية إلى جانب العربية ،

لندرك أن استنتاجاتنا لم تكن مجافية للصواب . .

ولابد أن زميلنا الأستاذ الشويحى كان بدوره يتعرض لأسئلة مماثلة . وذات يوم اجتمع بحجرة المدرسين عدد كثير من مدرسى المدرسة . وفوجئت به يوجه سؤالاً «كالسهم» إلى زميلنا الشامى رأفت مرادنى :

– أستاذ رأفت . شو معنى شو ؟

فأجابه بسؤال :

– شو عم تحكى ؟

– احكى شو معنى شو . . إيه يعنى كلمة شو ؟

فقال رأفت مازحاً ليغالب المفاجأة :

– شو معناها شو !

ورد زميل حموى جاد هو الأستاذ سعيد الكيلانى

– شو بتعنى كيف ياأستاذ شويحى

وجاء السؤال مباغتاً :

– وهل شو هذه . . كلمة عربية . . شو وهون وشلونك ومثل هيك كلمات . .

لم يتلق ردًا وفى حين أقر الأستاذ الكيلانى بأنه مايبيعرف تحول رأفت من المزاح إلى الغضب الشديد ، وظل كثيرون يرقبون الموقف . كأنه مبارزة حقيقية . وعجبت من رد الفعل هذا . وأدركت كم هم حساسون هؤلاء السوريون . حساسون لحد المرض ! وتأكد لى ذلك حين وجدت الأمر يلح على رأفت فى كل مناسبة .

– شو هذا الأستاذ شويحى ياأخى . . شو بده منا ؟ كيف أن كلمة شو وشلون مو عربية . . شو بده يحكى . . يالها من حساسيات غريبة ! لكن أليس

أولى بهؤلاء الحساسين . أن يراعو كذلك حساسية غيرهم ؟ وألا يلقوا الآخرين بالطوب مادام أنه يزعجهم لحد الهلع رذاذ الماء ؟ . .

لكن أسئلة الطلاب تطرقت فيما بعد إلى ماهو أخطر وأجل !

سياحة سورية :

من الأمور التي حمدتها للسوريين حبهم للتجوال والتنقل بين مختلف مدن بلادهم . وكنت أستمع معجباً بالتلميذ الصغير وهو (يحكى) عن زيارته للقامشلي مثلاً مع والده ويقارن مارأى بما شاهده فى حوران على سبيل المثال . كنت أعجب بذلك لأننى أدرك أننى لم أغادر قريتنا إلا إلى شبين الكوم عندما حتمت ذلك مسيرتى فى الدراسة . ولم أكن قبل ذلك قد شاهدت عاصمة « مديريتنا » . ثم غادرت المنوفية رأساً إلى القاهرة بقصد الدراسة والعمل . وأنا واثق أننى نموذج لملايين مثلى من المصريين ، لذلك فقد سعدت بأشقائنا الشوام وهم يعرضون علينا السفر إلى حمص لقضاء عطلة دراسية لا أتذكر مناسبتها .

دهشت فى أثناء الطريق من هذه الأراضى الواسعة التى لاتنتهى ، حيث يتوقف مدى البصر . فهى أرض مستوية . بالغة الخصب ، لكنك لاتلمح فيها لانباتاً ولا شجراً . أترى الجفاف هو السبب أم هو نقص الأيدى العاملة ، ولم أكن أدرى أن هذه الأسئلة التى تفرض نفسها فرضاً على أى إنسان يرى مثل هذا المشهد تثير مثل هذه الحساسية ، فقد كانت هناك فى هذا الوقت إشاعة قوية تسرى فى كل أنحاء سوريا مؤداها أن عبد الناصر بسبيله إلى أن يهجر إلى سوريا مئات الألوف من الفلاحين المصريين . وإذا كان من السهل تفهم حساسية السوريين لإشاعة كهذه وكيف بدءوا يتخوفون من مصر والمصريين - وسوف نرى فى النهاية من الذى استفاد اقتصاده على حساب اقتصاد الآخر ؟

ومن الذين هاجروا دون أن يكون أحد بحاجة إليهم ؟ ومن الذين حيل بينهم من قبل حتى أن يفكروا فى الأمر ولو كانت الحاجة إليهم ماسة - إذا كان كل ذلك وارداً فإن الذى لم أستطع فهمه مطلقاً هو هذه الحساسية التى بانت فى كلمات معلم حموى (أى من أبناء حماة) لقيته عند بعض مواطنينا المصريين فى سلمية كنت «أحكى» متصوراً أننى أداهنه - وعفواً للتعبير لكن الأيام كانت قد علمتنى ضرورة أن أجامل السوريين فى إطراء بلادهم - قال مواطننا السورى :

- أستاذ . . فى أيام العباسيين كانت الأراضى من هون . من حماة حتى بغداد كلها مزروعة . . أديش بتعرف شو إمكانات سوريا . . سوريا أستاذ بإمكانها تعيش ثلاثين مليون نسمة . .

وليس هناك بالطبع غبار فى كل هذا الحكى ، لكن الغبار بل التراب نفسه كان يهب دوماً من كلماته الغاضبة . قال المواطن هذا وهمّ منصرفاً .

- خاطركم ،

وخرج وتركنى حائراً مع نفسى سألت مواطنى المصرى :

- ماذا دهاه ؟ هل أسأت إلى سوريا فيما قلت ؟

قال عن تجربة :

- هم هكذا . خذهم على حالتهم هذه ولاتتعب نفسك . ومع ذلك فما بالنا يستدرجنا الحديث لنحكى نحن أيضاً بمناسبة وبدون مناسبة . ولماذا لانتهز الفرصة لنسيح فى بلاد الله لنرى خلق الله بعد أن حبسنا أنفسنا طويلاً فى قرانا أو فى داخل أنفسنا ،

وضحكت بصوت عال من «مزحة» أطلقها رأفت مرادنى . كان تعليقاً عاديا . وكنت الضاحك الوحيد . وأكتشفت أنى أريد أن أضحك ، أن أكسر هذه القوقعة التى سجنت نفسى فيها وسجنتنى فيها ظروفى كمصرى . كيف أسيح

حقا فى مصر وهذه دخولنا ؟ ألا تحتاج الأسفار إلى «أموال» لانقود ؟ والأمور نسبية على كل حال . .

– أستاذ ، أعلم أمزجة المصريين : كان معى عدد لابأس به منهم فى البوكمال . . سأريكم شىء تحفة (أى أمر بالغ الجمال) فى حمص . .

وقاد رأفت مرادنى المسيرة . ونزلنا حمص . واتجهنا إلى موقف الباصات . . ورأيت حركة نشيطة نفتقدها فى مدننا الإقليمية اللهم إلا إذا كانت معبرا لحركة سياحية ، واتجهنا إلى منطقة أسماها الزميل وآسف أننى نسيت اسمها . وإن كنت أذكر أنها منطقة على نهر العاصى . ونظر إلينا الزميل وانتظر الجميع آهة إعجاب من جانبنا لكن ذلك لم يحدث مطلقاً ، ولو كنت وقتها قد خبرت السوريين بما فيه الكفاية لفعلتها ولو متصنعاً ليس فقط لأجاملهم . بل كذلك لأنقذ الوحدة قدر طاقتى من حساسيات غريبة . . وسأل علاء ببراءة :

– فين يارأفت المنطقة اللى بتحكى عنها ؟

– هذى هى ياسيدى .

– هى دى ؟

قال وكأنه يعانى من خيبة أمل حقيقية :

– شى فظيع ! القضية أن مافى شىء فى سوريا بيعجب المصريين . . ومع ذلك فقد كنا معذورين . . كيف يمكن من عاش فى بلد كمصر يرى الترعة تتفرع عن رياح . . والرياح يتفرع عن فرع للنيل ثم يقيم على ضفاف النيل نفسه – أن يخلب لبه قناة مياه بالغة التواضع حتى لو كانت تسمى «نهر» العاصى ؟ لكننا سرعان ماسوينا الأمر بمزحة جديدة . وكان كل منا – نحن وهم – جد ملهوفين على أن نسرى عن النفس عناء غربة حقيقية ترزح فوق صدرنا فى سلمية . . وفى الحقيقة فإن زملاءنا الشوام كانوا أكثر صراحة بكثير مما

يتوقع المرء فأرشدونا إلى ما يعد من خبايا البلاد . وأكثر هذه الخبايا حساسية – ولو من ناحية الكبرياء القومى – هو حى « الفضيلة » ولقد تأملت الأمر . وتفرجت . وأشهد أن شيئاً لايعدل تقززى من مناظر تهدر فيها آدمية المرأة وإنسانية الرجل إلا مشاهد مثلها رأيتها – على أوسع – فى حلب . . أقول ذلك متأسياً ،ومع ذلك فإننى أذكر كم تناولتها بنعومة مبضع الجراح . وبرقة بالغة القسوة حين سألنى طالب سؤالاً استفزازيا .

– أستاذ هل صحيح أن الشاب بالقاهرة يستطيع أن ينادى أية فتاة فتأتى معه ؟

– من قال لك ؟

– هم .

– هم من ؟

– كل الذين ذهبو إلى القاهرة !

وقد يتصور القارئ أن هذا عبث صبيان . لكن أموراً كهذه لها أهمية أكبر عند هؤلاء القوم ، وتجد نفسك مرغماً إرغاماً أن تسترعى نظره إلى القشة التى فى عينه قبل أن يلومك هو على شبهة الغبار التى فوق رموشك !

ومع ذلك فلماذا هذا الفكر كله ؟ لقد قضينا أياماً جميلة حقا بحمص . ربما كان أجمل مافيها أننا فككنا إسارنا المضروب حولنا فى سلمية . وأننى أضفت إلى قائمة المدن التى رأيتها حتى الآن – وهى قائمة هزيلة للغاية – مدينة جديدة . وعندما ركبنا التاكسى عائدين علمت أن الضريح الذى تمر أمامه العربة رائحة غادية هو ضريح سيف الله المسلول خالد بن الوليد . وعجبت كيف ينعزل ضريح كهذا عن المدينة . أم ترى المدينة هى التى انعزلت وتباعدت عنه ؟ نعم : لوأن ضريحاً كهذا وجد لنفسه مكاناً فى مصر. فأى مكانة سوف تكون له

عندئذ ؟ ولسنا هنا نسوق السؤال حبًّا فى مجرد التساؤل ، بل إن للسؤال أهميته « بحق وحقيق » . .

فضول . . ولكن ؟

فجأة سألنى زميلنا المصرى عازر . مدرس الرياضيات والذى قضى بالبلدة عامين قبل مجيئنا :

– أستاذ ، هل جئتم إلى المدرسة أمس عن طريق الجامعة ! ؟ .

قلت دون أن ألقى بالاً : نعم .

– وأول أمس ؟

– صحيح .

وكان معكم الأستاذ الفلسطينى .

– كان .

– وبعد الظهر اشتريتم لحماً من (فلان) ؟

قلت مقلداً اللهجة السورية كما يفعل هو :

– شو القضية سيدى . . هل هذا استجواب ؟

ضحك وقال باللهجة المصرية :

– علشان تعرفوا أن كل شىء بتعملوه معروف .

– وشو بنعمل ؟

هز كتفيه أبداً . ولاحاجة .

– ولكن من أدراك . ؟

– أخبرتنى به فتاة كانت تزور زوجتى .

– وهل هذه أخبار ؟

– بالنسبة لهم أخبار .

– هيك .

– لكان (أى طبعاً) – . . ولعلمك الناس يراقبونكم فى كل شىء . .

كان الأمر مبعث دهشة حقيقية لى . لكننى وجدت علاء ثائراً .

– تصور .

– إيه .

– إحنا عايشين فين !

– شو القضية .

– يادى القضايا الغريبة . .

– وحكى لى عن رجل « طويل عريض » . . وجده يقف خلفه . ويطل من فوق كتفيه . ليقرأ مكتوباً . وصل له أى لعلاء . كان علاء تلهفاً منه . قد فضه ووقف إلى جوار مبنى البريد يقرؤه . .

– فضول . . ماتزعلش ؟

– ما ازعلش ؟

وقصصت عليه ما قال عازر ، وأعاد هو مرة أخرى شكاواه المرة من تسلل بنت أصحاب البيت وقراءتها للمراسلات التى تصل إليه :

– ولعلمك . . كل جواباتنا تقرأ . . هنا وماذا بإمكاننا أن نفعل حقًّا ؟ وهل ما يحدث معنا فضول نجد مثله فى كل مكان ، فى مصر نفسها ، أو إن الأمر هنا قد تجاوز كل حد معقول بالنسبة لنا . . أو ترى كان هذا الأمر مقصوداً . . أو كان يتم تلقائيًّا لكنه تعبير عن أمور أكبر؟ فإن كان ذلك صحيحاً . . فماذا يا ترى كان أهل هذه البلدة يظنوننا ؟

عروبة مصر :

كان السؤال غريب الوقع على أذنى ، وإن لم يكن مفاجئاً لى منذ تيقنا ما حدسه الشويحى من أن البعثيين يحرضون الطلاب على توجيه أسئلة استفزازية لنا ، لكن وقعه الغريب جاء من أننى لست مدرس تاريخ ولا مكان فى حصة اللغة الفرنسية مطلقاً لسؤال عن عروبة مصر ، لكن السؤال انطلق كالسهم .

– أستاذ ، هل المصريون حقًّا فراعنة ؟

نظرت إلى الطالب ، فاعتدل فى وقفته ، قلت له بلهجة محايدة عله يتراجع عما بدر منه إن استحال أن يعتذر :

– بسأل أستاذ . . هل مصر . . يعنى أصلها فرعونى ؟

تمالكت مشاعرى :

– ألست ترانى عربيًّا ؟

– عفواً أستاذ . . موقصدى . . لكن هيك بيقولوا .

– ماذا يقولون .

– يقولون ! إن مصر ليست عربية .

– ليست الآن ؟ . . أو لم تكن فى الماضى ؟ حدد . ران صمت وارتفع صوت ينادى بالعودة إلى الدرس ، لكننى بإصرار شديد وجدتنى مدفوعاً لقبول التحدى :

– يعنى أستاذ . . لم تكن ، نعم لم تكن .

– والآن .

– أستاذ ، عفواً . إن كنت غضبت ما فى داع .

قلت مقاطعاً .

– لكنى لم أغضب ؛ ومن الأفضل أن نواجه الأمور جميعاً . وصمت ، وقلت بهدوء لكنه ينم عن غضب شديد :

– الآن فقط نتساءل : أقصد تتساءلون هل مصر عربية أو لا ؟ إن كان لديكم شك فى ذلك فلماذا فرضتم الوحدة على مصر؟

ران صمت خطر وزاد علو صوتى :

– ولماذا لم تسألوا جنود مصر عن عروبتهم عندما جاءوا عام ١٩٥٧ ليتخذوا طريقهم إلى الشمال ليقفوا فى مواجهة حشود عدنان مندريس ؟ ومع ذلك فلا بأس من السؤال . وقولوا لمن يحرضونكم .

– عفواً أستاذ . ليس هناك من يحرضنا .

– بل هناك من يحرضونكم وأنا أعرف كل شىء . قولوا لهؤلاء : نعم كانت مصر فرعونية حين كان هناك الآشوريون والبابليون والميكاديون والآراميون والحيثيون والمؤابيون . . وكل هذه الشعوب التى لا يحصيها عد والتى سكنت هذه المناطق . والآن فكما أن بلادكم عربية فإن مصر أيضاً عربية . . وأكثر من ذلك قولوا لهم : أنتم تعلمون جيداً أنه ليست هناك الآن مصر أو سوريا بل هناك دولة الوحدة التى طالما ناديتم بها واستجبنا نحن لكم . .

– هيك يا أستاذ ، الله يعطيك العافية .

– ويعطيك ، ولكن دعنا نكن صرحاء بعضنا مع بعض مرة واحدة . إن العروبة فى نظرنا حضارة وليست عرقاً . فإذا ما فهمتم العروبة بهذا الشكل فهو خطر عليكم أنتم

– كيف أستاذ ؟

– قلت لى كيف ؟ هل ذهبت إلى مصر؟ لو أنك ذهبت إلى هناك فستجد شعباً موحداً وواحداً . قد تختلف اللهجات وبعض العادات هنا أو هناك لكنهم

جميعاً قد انصهروا فى بوتقة واحدة ، أقصد ليس هناك فى مصر أجناس تتمايز لا عرقاً ولا لغة . . وليس لدينا تعصب دينى . لكنكم هنا . . إن لديكم هنا أكراداً وشراكسة . .

واتجهت الأبصار نحو طالب اسمه عبد الكريم . وجدت يده ترتجف وتململ هو فى جلسته وعرفت أنه كردى . وواصلت حديثى . .

هكذا ترون أن الفهم العرقى للعروبة ليس فى مصلحتكم أقصد فى مصلحتنا فى دولة الوحدة . .

وكان لابد أن أنزع الأشواك وأن أضع البلسم على جراح تعمدت أن أنكأها كأسلوب للعلاج وليس سعياً وراء المتاعب وإيلام غيرى بغير ما سبب .

إذن فيا أبنائى لا تلعبوا لعبة الاستعمار (وعجبت أننى فى لحظة ما أصلح لأن أكون عضواً أصيلاً فى الاتحاد القومى) .

إنه هو الذى يبث مثل هذه المفاهيم . . وأرجوكم كذلك ألا تسرفوا فى الاستماع إلى إذاعة عمان (ووجدت أن خلق العدو المشترك هو أفضل وسيلة للم الشمل فقلت مواصلاً دون توقف) فالحراب الإنجليزية هى التى صنعت عرش حسين وأبقت عليه .

وهتف طالب من أبناء الضيعة ، أى العزبة فى اقتناع ظاهر :

– الله يعطيك العافية أستاذ . هيك . .

وعدت إلى الدرس كأن شيئاً لم يكن ، ولست إخالنى الآن وأنا أتذكر كل ذلك إلا مجازفاً شديد المغامرة ، أنا الذى يعرف عنه الجميع أنه حذر يحسب حساب كل كلمة يتفوه بها . . ومع ذلك ، وعلى الرغم من إدراكى لحقيقة ما ينتظرنى من وزيرنا العتيد هناك سيد يوسف أو مديرنا البعثى هنا عبد الجبار ، فلم أكن أستطيع . أن أقول إلا ما قلت . . وليكن بعد ذلك ما يكون . . ولكن

أثبتت أحداث كثيرة بعد ذلك أن هذا الأسلوب لم يكن فقط هو أكثر الأساليب شجاعة ومدعاة للاحترام . بل أكثرها جلباً للسلامة فى زمن كانت كلمة منك ، أو كان تردد منك سواء يمكن لأى منهما أن يعود عليك بأفدح الأضرار . . دونما حاجة لأى استيضاح . .

حَنِينٌ :

كان العشاء قد انتهى وبدأت اسهرة . . كانت سهرة جادة حظها من الأسى أكثر من حظها من المرح ، وسيطرت حكايات محمود عجاج عن مغادرة أسرته لصفد على حكايات رأفت الدمشقية . . فانصرف الأخير إلى المطبخ يعيد أطباق الطعام . — والآن . وبعد قيام دولة الوحدة ، فقد انتعشت آمال اللاجئين فى الخيام .

لن يعيدنا إلى ديارنا إلا هذا الرجال (الرجل) عبد الناصر .

ودقت الساعة ، وكانت نشرة الأخبار . سيقوم البانديت جواهر لال نهرو بزيارة للجمهورية العربية المتحدة لمدة خمسة أيام . يزور خلالها القاهرة والإسكندرية ثم يقضى يوماً بدمشق .

وتنهد محمد خلاص .

— هكذا . دمشق أصبحت مدينة من الدرجة الثانية . . دمشق بعد القاهرة والإسكندرية .

— شو القضية سيدى .

وكرر خلاص لرأفت ما سبق أن قال وبنغمة أكثر شجناً .

— ألم تدرك ذلك إلا الآن ؟ تعرف شوصار حى السفارات عندنا بدمشق ، أصبح «خراب» . . مجرد قنصليات .

– مع أن دمشق أقدم مدينة فى التاريخ .
وأمن ميخائيل .
– أى معلوم . عاصمة الأمويين خيو (يا أخى) ونظر إلى محمود عجاج ثم نظر إلى الباقين نظرة ذات معنى . وقال لميخائيل :
– كيفك أبو عمران ؟
ثم توجه إلينا .
– أهلين أستاذ علاء . . أهلين أستاذ (. . .) وقلد اللهجة المصرية فرصة سعيدة يا بهوات .
رددت ضاحكاً :
تكرم سيدى .
وضحك الجميع ضحكة عالية ، من الحلق أكثر منها من القلب . ورفض الباقون رغبة أبديتها فى الانصراف ، وتنبه رأفت بذكائه الشامى ، وسرى عنا بحكاية دمشقية جديدة . وقلت لنفسى تلك هى القضية كما يقول رأفت ، ولابد لنا أن نتعود «هيك» أمور . .

اللواء السليب :

زميلى علاء نموذج للمصرى الطيب المحب للعشرة . الذى لا يطيق أن يقضى ساعة واحدة ساكناً . والذى يسعى لمعرفة الجميع وإقامة صلة بالجميع ربما لا لشىء إلا للصلة فى ذاتها ، ولسنا فى هذا مختلفين وإن كانت طباعنا تختلف ووسائلنا لذلك أيضاً تختلف . ومع ذلك فليست هذه هى «قضيتنا» اليوم وإن كنت أكتفى بذلك الآن على قدر نصيبه فى فقرتنا هذه ، وحتى نصل إلى ذلك لابد أن أقرر واقعاً ينبغى لنا أن نقاومه وإن كنت أراه مع الأسف الشديد

يستشرى أكثر فأكثر. أما هذا الواقع فهو هذا الميل من المتعلمين المصريين إلى التخصص ، أو ولنقلها صريحة . الاكتفاء بالتعليم المهنى عوضاً عن الثقافة العامة ، مع ضرورة ذلك الشديدة . وبخاصة لمن يعملون بمجال التدريس .

وتبدأ «قضيتنا» بسؤال مفاجئ من علاء لى فور وصولى إلى البيت :

– أستاذ ، هل هناك فى سوريا شيء اسمه اللواء السليب ؟ عجبت للمفاجأة وقلت :

– إيه المناسبة ؟

– يا خويا النهاردة فى الحصة . فى سنة ثانية لقيت ولد . .

وحكى لى كيف وقف الطالب يتحدث باندفاع كأنه يخطب بأن الدراسة كان ينبغى أن تتوقف فى هذا اليوم ، وأنه لا خير فى دولة الوحدة ما لم تقم باسترداد اللواء السليب . وأننا إذا كنا قد سكتنا على الظلم ونحن خمسة ملايين فلا ينبغى أن نسكت عن ذلك وقد تجاوزنا الأربعين مليوناً . . إن اللواء السليب يا أستاذ هو فلسطيننا الأولى . .

قلت له :

– نعم ، نعم ، كان يحدثك عن لواء الإسكندرونة .

– تمام . إيه بقى الحكاية ؟

وحكيت له القصة على قدر ما لدى من معلومات شديدة العمومية .

– أمال إيه حكاية السليب دى ؟

وشرحت له المقصود باللفظ واشتقاقاته وما إلى ذلك فهز رأسه موافقاً ، لكننى تألمت للغاية حين وجدته يسأل رأفت عند حضوره إلينا مع بقية زملائنا الشوام :

– قل يا رأفت . . هو فيه حاجة عندكم اسمها اللواء السليب ، وشرح

رأفت . وأفاض حقيقة ولقد أفدت أنا كثيراً من شرحه ، لكن الذى آلمنى أن لهجة السؤال كانت بالغة الدلالة . وكانت تؤكد ما بدأ السوريون يأخذونه علينا من أن المصريين قليلو الاهتمام بما يتجاوز نطاق تخصصهم . وسأل ميخائيل :

– لكن أستاذ بتظن إن فيه أملاً لتحرير الإسكندرونة ؟

– والله بتذكر إن عبد الناصر صرح بعد الوحدة بأن دولة الوحدة معنية بقضية اللواء السليب لكن مندريس رد عليه رداً فيه كثير من التحدى .

حقًّا لقد كان موقف الأساتذة يتسم بالتعقل ، أما الطلاب الذين يحرضهم من يحرضونهم فليسوا كذلك ، ووجدتنى أسرح بعيداً عن شروح رأفت وأعجب مما هو مطلوب منا : فمرة يشككون فى عروبتنا ، ومرة يطعنوننا فى شرفنا ، ومرة يسألون ما جدوى الوحدة معنا إن لم نسترد اللواء السليب .

ياله من قدر غريب ! ومع ذلك فلست بمستطيع حتى اليوم أن أجتث من الذاكرة هاتين الصورتين اللتين تجلت فيهما ، بالنسبة لى . بشاعة ما حدث للإسكندرونة . .

١ – النهر الجاف :

كان أتعس ما رأيت فى حلب . . اسمه نهر قويق إن لم تخنى الذاكرة ، قادنى إليه الإخوة الشوام ، وكرر رأفت مرادنى شرحه لتطورات القضية . ورأيت أنا المأساة . . نسيت ما قال عن تآمر فرنسا مع تركيا ، ونسيت ما ذكر عن جهود عصبة الأمم ، وعن الاستفتاءين اللذين أكدا عروبة الإسكندرونة ، ورغبة أهلها فى أن يكونوا أنفسهم : أن يكونوا عرباً ، وأن يظلوا عرباً لا أتراكاً .

نسيت كل شىء ، نسيته من وجدانى ، لأنه لم يخلف فى العقل إلا معلومات باردة يمكنك أن تجد أضعافها فى الكتب والمخطوطات . . لكن النهر الجاف ،

الذى تكاد تظنه مجرد أخدود عميق ، يذكرك بالمأساة التى كانت تحيق بالوطن العربى ، فتجفف الأنهار وتقتل النبات ، وتباعد بين الأهل ، وتحول الإخوة إلى أعداء . . نهر جاف : ألم تروا نهراً جافًا ؟

أتذكر الأيام التى كانت تجف فيها ترعة قريتى ، وبحر شبين ، لأربعين يوماً أيام سدّة الشتاء . لكن ذلك لا يشبه مطلقاً ما رأيت ؛ فكل ما حول ترعنا أيام السدّة من خضرة يانعة ، يظل يذكر المياه ، ويؤكد أن انقطاعها أمر عابر حتمته مقتضيات المصلحة وضروراتها . . أما هنا يا إلهى ، إنه ليس نهراً جافًا وإنما هو نهر ميت ، كل ما حوله يشعرك بالموت . لا شجر ولا نبات ولا خضرة ، إنما أعمدة نور من حديد صلب ، كأنها أشجار الماضى وقد ماتت واقفة . نهر ميت ينتشر حوله الموت . بل يموت الموت نفسه ويخلف رماداً وقحولة وتراباً خصباً قتل النماء فيه غياب المياه . نهر لم يعد سوى ملعب أطفال يلهون فى مجراه الجاف ، سعداء لا يدرون أنهم يطأون بأقدامهم أرض المأساة . . . المأساة التى تنتظرهم فى مناطق أخرى من وطنهم العربى الكبير . .

رأيت الكثير فى حلب ، أعجبت بأشياء ونفرت من أشياء ، لكننى لن أنسى مطلقاً هذا النهر المأساة ، يجسد بامتداده الجاف الميت عنت الأتراك المتجبرين ، وعناد العرب العاجزين ، وكارثة الوطن الذى ضاع ، وهل إلى رجوعه من سبيل ؟ . . .

٢ - غريب فى وطنه :

أذكره ما أزال ، تمضى كل هذه السنين ، وصورته فى الذاكرة والوجدان محفورة ، لم يكن ثمة بيننا من معرفة أو اتصال ، إنما رأيته رؤية عابرة ، وكان مع زميل ، صافحنى مبتسماً ، وهو على الدوام يبتسم . . أبيض الوجه ، هو

وكل السوريين بيض الوجوه . لكن بياض وجهه مشع ، بياض نورانى ، آسر وحزين ، نور يصدر عن نيران هادئة دءوب ، تحترق فى أتونها الأحشاء . . أهذا صحيح ، أم أننى أخلع على الرجل ما أحسست أنا به ؟ لكنه حدسى ، ويقينى أن الأمر كما ذكرت . عرفنى به الزميل السورى - (فلان) . . من الإسكندرونة .

صافحته بحرارة . . أأسرفت فى الترحيب به ؟ وشعرت أنى تجاوزت الحد . فليس هناك مايربطنى به . ثم إن الإسراف فى الترحيب فى غير ما مناسبة سيزيد جراحه ألماً . سيشى بعاطفتى . وسيؤكد له مايعرفه هو عن يقين . مايلح عليه فى كل لحظات ليله وساعات نهاره . وما يحاول عبثاً أن يهرب منه . إنه غريب فى وطنه ، غريب وسط قومه ، وأهله هناك فى مسقط رأسه لم يعودوا أهله . . فالإسكندرونة . هذه القريبة النائية . . هى وطنه ومنفى أهله .

من يومها أتألم . ومن نورانيته أحسست - ولا أزال - أى نار تكويه فى داخله ؟ ومن يومها كذلك لايغيب عن بالى شكله . ترك يدى كأنما ضاق بترحيبى . بمودتى الواشية . بآلامه المفروضة عليه . والتى تفصح بدورها عن حاله فيظل حيا مايريد هو أن ينساه ولو للحظة . . وظللت أرقبه وهو ينصرف . وظل صوت وقع أقدامه يقل حتى تلاشى . وأدركت إلى أى حد يكون الوجود - فى وضع ما - عذاباً ومأساة ؟ .

نعم . ماالوطن ، وما الذى ينسبه إلى سوريا ؟ وبدأت قريتى التى غادرتها منذ مايزيد على سنوات عشر دون أن أعود إلى زيارتها مرة - تشغل وجدانى . لاتبارحنى . إننى أملكها لأننى أنتمى إليها . أملكها مع أننى لاأمتلك شبراً واحدا منها . إنها هويتى الصغرى التى صنعت لى باندماجها مع هويات أخرى أصغر أو أكبر . هويتى الكبرى ، مصريتى ، هكذا ، بوجود قريتى أحس أننى أقف فى

مصر على أرض صلبة ، بوجودها أساهم أنا فى مصر وطناً ووجوداً . لوأنها – جدلاً – قد ضاعت . . فكيف أكون مصرياً ؟ . .

عشرون عاماً تمضى منذ رأيته هذه الرؤية العابرة . لكنه لم يبرح ذاكرتى . ولم يفارق وجدانى ، وكم علمنى دون أن يدرى أو يقصد معنى الوطن ، ومعنى أن يغترب الإنسان فى وطنه . وبين بنى قومه ! فأن تعيش مع قوم لايفهمونك أو فى كنف نظام لاتأتلف معه أمر تعس . يشعرك حقا بالغربة ، لكنها غربة تهون إلى جانب تلك التى يحسها إنسان فقد الأرض التى يقف عليها ، وتاه سائحاً فى أرض الوطن الكبير . كريشة تتقاذفها الرياح ! .

هل يجدى فى ذلك أن تنال رعاية أكبر . أو تحاط بحنان أزيد ؟ كلا ! ! فذلك كله قد يأتى إليك بالنقيض .

ولقد رأيت هذا النقيض على وجهه . رأيت النار فى الأحشاء تضىء وجهه الأبيض . فتجعل بياضه نورانيا حزيناً . .

قبل أن تفقد الشمس حرارتها :

كان شتاء سوريا القارس لم يبدأ بعد . فشمس الخريف ماتزال تتلكأ فى سماء أخذت تتجمع فيها مزق السحاب الداكنة لتحول بين أشعتها الدافئة وأديم الأرض ، حين أعلن عن وصول عبد الناصر إلى اللاذقية فى جولة تشتمل على كل محافظات الإقليم الشمالى من جيم عين ميم .

وحين حل موعد وصوله لحماة ، كانت حياة غير تلك التى بدأنا نألفها : فمنذ الصباح الباكر كانت التاكسيات والباصات والعربات الخاصة ، واللوريات تغطى الطرق المتجهة من كل صوب إلى حماة ، غاصة بالبشر ، الذاهبين لتأدية الواجب الوطنى فى تحية عبد الناصر – وليس فى التعبير أدنى مبالغة – ولرؤية

الرجل الأسمر الذى تعلقت به الأمانى والأحلام والطموحات . الرجل الذى سيستعيد الإسكندرونة السليب وسيحرر أرض فلسطين ، ويهزم الاستعمار فى كل مكان ، وكانت فرصة فريدة لنا أن نشعر ببعض زهو فى أن نرى مواطننا ، زعيمنا ، تلتف حوله قلوب غير قلوبنا - إنه فخر لنا على كل حال ، يعوض هذا الذى نكتم الشكوى حتى الآن عنه .

كنا قد اتخذنا مكاننا بين الجموع الهادرة قرب سينما حماة أمام المنتدى ، حين أعلن الحماس الذى تفجر ، والصيحات التى علت عن قدوم موكب الزعيم قادماً من طريق المطار ، كنت كأننى أحلم . . لكن عبد الناصر قد تجسد أمامى حقيقة لامراء فيها ، يجاوره عبد الحكيم عامر . ويحف بهما عبد الحميد السراج وبقية المسئولين السوريين ، ووجدتنى أصفق مع المصفقين ، فقد كنت مشغولاً بفكرة استولت على ، وحدت بينى وبين الزعيم ، إنه تجسيد لمصر كلها وأنا مصرى .

وهؤلاء هم السوريون يهرعون إلى حمل عربته على أكتافهم بمن فيها ، لكن الموكب سرعان ماتجاوز المنطقة التى كنت بها ، واندفعت الجماهير خلف الموكب ، إنهم أولى به منى ، ومنا جميعاً ، فنحن لم نحاول فى مصر أن نرفع عربته - على سبيل المثال .

لقد كانت حماة هى أول من فعل هذا لعبد الناصر ، وفى مناسبة كان ينتظر فيها حدوث عكس ذلك على الإطلاق ، فلقد حدث ذلك فى العام الأسبق ، وكان رجالات البعث قد هجروا الوحدة واستقالوا ، وجلهم - كما سبق القول - ينتمون لمدينة حماة ، مسقط رأسهم .

هل كان ذلك حبا فى عبد الناصر ، أو كراهية لأكرم الحورانى ورفاقه ؟

قد يكون السبب الأمرين معاً ، لكن الموكب الآن قد تجاوزنى بكثير ، وعزيز على حقاً أن ينتهى المشهد ، الذى تهيأنا له أياماً بطولها ، بهذه البساطة

وسألت (حسين) ، إلى أين ينتهى الموكب ؟

– فى سراى الحكومة ، وسيلقى خطاباً .

عجبت أن يجد الرجل كلمات يقولها فى كل مدينة لاتريد إلا أن تسمع صوته ، وقال حسين . . ضاحكاً .

– هذا مايعذبك ؟ إذن فلا تقلق عليه .

وجدتنى أذهب متشبثاً باللحظة فى إلحاح طفولى ، وربما هو إلحاح أشد عمقاً من هذا الوصف المبتسر ، فوجدت أن عبد الناصر قد أنهى كلمته ، ووجدت المشير يلوح بيده النحيلة بقوة مهدداً الاستعمار وإسرائيل ، ومن هم وراء إسرائيل .

وإذا جاز لى فى هذه المناسبة أن أقول شيئاً عن نفسى ، فإنى لأعجب حقاً من هذه القدرة العجيبة فى نفسى على الانفصال عما يدور حولى ، لأتأمله فى الوقت نفسه الذى أظل منفعلاً به ، وساعتها سيطرت على أفكار عجيبة ، هؤلاء هم الناس ملء السمع والبصر ، على مقربة منى ، أراهم رأى العين ، إن الزعيم الأسطورة مجرد واحد من البشر – هل فى هذا اكتشاف ؟ نعم ولا . . فى وقت معاً فهأنتذا تكاد تلامس الأسطورة التى تخالها من كثرة ماتسمع عنها شبحاً عملاقاً . إنه مجرد إنسان ، ولست أتحدث هنا مطلقاً من منظور سياسى كما أننى لا أقصد الرمز ، ولكنى أعنى ما أقول بمعناه القريب ، أهكذا تزول الرهبة أو بعضها إذا ما اقتربنا من الهالة ورأينا صاحبها إنساناً عادياً ؟ ! فما بالنا لو رأيناه يجوع ويعطش ويغلبه النوم ؟

لكن المسافة لم تلبث أن تتباعد ، ويعود الزعيم مجرد صورة معلقة فى كل مكان . . أسطورة أين نحن منها ؟ وهل كنا سوى نقطة لا ترى وسط ملايين النقاط التى تصنع الصورة ، بل ربما كنا خارجها ؟

ومع ذلك فلقد خلفت هذه الزيارة فى نفسى أسئلة كان بعضها ابن الساعة ، وألح بعضها بعد ذلك بأقل من عام ، حين أمكن لسحب سوريا فى هذا الوقت نفسه ، من العام التالى أن تحجب شمس الوحدة ، وأن تذهب بكل مافى قرصها من حرارة أو دفء ، ولسوف تشهد هذه المدينة فى ذلك الوقت – عندما يحل – المظاهرات نفسها والحشود أنفسهم يهتفون ضد الوحدة – التى هتفت لها منذ قليل – وتندد بالرجل الذى همت اليوم أن ترفع عربته بمن فيها على الأكتاف كما رفعتها فى العام الماضى ؟ هل هؤلاء اليوم هم أولئك فى الغد ، بعد نحو عام ؟ أو أن الذين خرجو اليوم يعادلون أولئك الذين لم يخرجوا – إن كان هناك حقا من لم يخرج – وكان الانفصال فرصة الذين لم يخرجوا ليخرجوا ، ولكل موقف مناصروه ؟ وإذا كان هذا الافتراض صحيحاً – وهو بعيد عن الصحة بكل المقاييس فى حالتنا هذه – فلماذا لم يخرج الذين خرجوا اليوم ليتشبثوا بالموقف الذى يقفونه اليوم ، أم تراها عقلية الجماهير . . وإن كان فى ذلك تبسيط للظاهرة مخل لحد يبلغ مرتبة الخطأ .

ومن جهة أخرى ، فإن مالمسته فى سوريا بالنسبة لعبد الناصر أمر يبعث على تلمس العذر للرجل والإشفاق حقا عليه ، بل محاولة تبرير الكثير من تصرفاته التى تبعث على الجدل ، لقد بدأ عبد الناصر – حين كان مجرد تعبير عن مطالب مصر – واقعيا يقبل اتفاقية الجلاء ١٩٥٤ التى لاتحقق طموحات الحركة الوطنية المصرية ، وأرسل دعاته ليبرر مايفعل بطول البلاد وعرضها ، داعياً إلى قبولها خطوة واقعية فى سبيل تحقيق الأمانى المصرية ، أما عندما صار تجسيداً لقومية تشمل عالماً عربيا يمتد من المحيط إلى الخليج فقد أصبح حالماً ساعياً إلى المستحيل ، ولو أهدر كل ماهو ممكن ومتاح ، ألم تتح لهذا الرجل لحظة يتأمل فيها الأمور ويحاسب ذاته ؟ ألم يفرق يوماً واحداً بين الحقيقة وبين الأسطورة ،

ويدرك أن رسالة الزعيم قد تكون فى ظروف ما – إن لم يكن ذلك صحيحاً على الدوام – أن يضىء العقول لاأن يثير العواطف ، أن يواجه الأساطير الباطلة لاأن يساهم فى التضخيم من أحجامها ، مع أن هذا فى الحقيقة هو المحك الحقيقى لعظمة العظماء ؟

ولقد كان السر فى كل ماحدث – فى رأيى – هو هذه الاستقبالات الأسطورية التى كانت تلقاه بها سوريا ، فهام حباً بهذه الشقراء المتقلبة المفتونة بجمالها ، معتمداً على صبر السمراء أم الأولاد ، ورضائها بالمقسوم ، ومع ذلك فقد يكون عذره أنه – كزعيم – كان بعيداً عن التفاصيل وتفاصيل التفاصيل ، التى تستغرق حياتنا بل هى حياتنا بالفعل . .

ومن جهة أخرى ، فقد عدنا من هذا الاستقبال ، وسؤال كبير يطرح نفسه علينا جميعاً نحن المصريين العاملين بسلمية :

– إذا كانت هذه هى حقيقة مشاعرهم نحو الرجل – فلماذا هذه الجفوة معنا ؟

وأظن أننا ساعتها اتفقنا جميعاً ، بما فينا الشويحى الذى عاد واحداً منا لانجد مبرراً واحداً لأن نخشاه بعد الخذلان الذى لقيه فى الاتحاد القومى ، اتفقنا على أن السوريين يحبون عبد الناصر بلا أدنى جدال ، أما فكرتهم عن مصر ، وعن المصريين فأمر آخر . . إنها وحدة بينهم وبينه ، أكثر منها وحدة بين قطرين . .

وما زلت واثقاً من أنه استنتاج صحيح حتى اليوم !

أشياء صغيرة :

إنها حقاً أشياء صغيرة لدرجة يجد المرء نفسه محرجاً عند الحديث عنها ، أقصد عند كتابتها ، ذلك أن للكلمة المكتوبة على الدوام ثقلاً أكبر بكثير من

الكلمة المسموعة . فهي تعني مسئولية أكبر . لذلك فقد لانجد حرجاً من أن نذكر شفهياً مانعرفه عن قوم ، لكن أن نكتبه فأمر يبعث على الحرج وعلى الضيق هنا وهناك .

إن رأفت مرادني مثلاً لايفتأ يتباهى بذكاء الشوام ، ويقص الحكاية تلو الحكاية ونضحك نحن ، لكن أن تتحول هذه الحكاية إلى سلوك فأمر مختلف . وحين يصبح هذا السلوك هو الأمر الاعتيادى والذى يطلب إلينا الاعتياد عليه ، بحكم أننا غرباء نسعى إلى الصداقة بأية طريقة – فأمر لن يفضى بنا إلا إلى كراهية أنفسنا بالفعل .

فوجئت يوماً بعلاء يخطرنى أن (محمد خلاص) قد نقل إلى محافظة أدلب ، فلم يهزنى الأمر ، لأننى لم آلف هذا الرجل اللاذقانى يوماً واحداً . لكن علاء أردف :

– أو تدرى ماذا كان يشغل إخوانك منذ سمعوا النبأ .

أن يدبروا أمرهم على الفور وأن يبحثوا إمكان أن يجدوا من يشغل محله .

– وخلاص يسمع كل ذلك ؟

– يسمعه كأمر طبيعى للغاية

– هيك ؟

– هيك . ثم قال بعد فترة صمت : أى عاطفة لدى هؤلاء ؟

وبدأنا ننتبه إلى هذه الأمور الصغيرة التى يراها بعضٌ ذكاء ويسلكها كأنها أمر طبيعى ، لكن الأمر غير الطبيعى مطلقاً أن ترد على المعاملة بالمثل ، وحين غضبوا من ذلك وحين أحقد أبا عمران علىّ تكاسلى إزاء القيام بواجبات الضيافة نحوهم وصرخ :

إيه ياأستاذ ! . . نحنا ضيوف . هيك مابيجوز . كانت فرصة لى لأكرر له

بعض عبارات صدرت منه هو ، حين تجرأت وطالبته بما يطالبنى به اليوم ، فانصرف غاضباً . . ومن العجيب أن زياراتهم لنا بعد ذلك قد توقفت . .

ومع أننى أدرك وأحفظ الحكمة التى تقول - إن الإنسان لابد أن يظمأ إذا لم يشرب مراراً على القذى ، وأعرف حكمة أخرى علمتنى إياها الأيام وهى أن النفس لاتعطى أفضل مافيها إلاعن بعد ، وأن الخطأ كل الخطأ فى الاندماج وكثرة التلاقى - فإن ماحدث لم يكن منه بد مادام هناك من يظن نفسه أكثر ذكاء من الآخرين . وأن ما فى يد الآخرين حلال مطلوب ، وما فى يده هو مقدس وحرام على غيره !

أهى أمور صغيرة ؟ لم أنكر ذلك ، ومن قال -كذلك - إن الذى يحركنا فى حياتنا هى الأمور الكبرى وحدها ؟ !

وهل هناك من يجادل -كذلك - فى أن لهذه الأشياء الصغيرة دلالاتها الكبرى . . والخطيرة ؟

ثلوج تتراكم :

فرق كبير بين أن تعرف أن جو بلد ما حار أو بارد . . وبين أن تعيش أنت هذه الحرارة أوالبرودة وتكتوى بأيهما .

ولم يكن مفاجئاً لنا أن برد سوريا شديد . . أوأن البرد يتراكم ليصير ثلجا يقطع الطريق ويغطى الجبال والوديان وكل شيء ، وحين تلاحمت السحب السورية القاتمة لتحيل السماء إلى خيمة بالغة القتامة والجهامة . كنا قد أخذنا حذرنا واحتطنا . ولقد تركت فى هذه الأيام عادة لم أكن من قبل أستلطفها . وهى عادة أن أضع يدى فى جيوبى ، وفى حين كان وقع الأمطار علينا غير سار فإن السرور كان يشع من عيون الشيخ فهيم . . صاحب البيت ، إن المطر هو

حياة سوريا ، وعلينا ألاننسى ذلك . .

لكن شتاء سوريا هذا العام ، والأعوام التى سبقته كان باذخاً فى برودته ، ولكنه شحيح فى أمطاره ، ولم تفعل الأمطار التى سقطت فى بداية الموسم إلاأن أحيت الآمال وألقت بالبذور إلى باطن الأرض وأنبتت النبات أخضر يانعاً . لكن الرخة الأخيرة من المطر لم تسقط ومات المحصول ، هكذا كانت الحال : برد ولا مطر . . وحل ولازرع ، وكم عانينا من الاثنين معاً . وإذا كان الأمر الآخر ، (أى حالة الجفاف) من اختصاص دولة الوحدة ، فقد كان علينا أن نقاسم دولتنا الفتية المعاناة ، وأن نرتجف من البرد ، وقد نصحنا القوم أن نقتنى « صوبا » وهى أسطوانة معدنية تعمل بالمازوت . فيحترق فى داخلها وتشع هى الحرارة فى الحجرة ، ليست غالية الثمن ، هذه الصوبا . . ومع ذلك فقد أكد الناس أن صاحب البيت ملزم بها . وكان هو من جانبه مستعدًّا ، وكنا أكثر منه استعداداً لأن ندفع شيئاً ، لكننا خشينا أن نكون بذلك نفرط فى حقوقنا مما سيؤدى بنا إلى مزيد من التفريط ، كما تعلمنا الدرس من إخواننا الشوام . لكننا كنا ندفع ثمن المازوت .

طويلة هى ليالى الشتاء ، طويلة إلى حد يبعث على السأم والملل ، وفى حين تكون ليالى الشتاء فى مصر هى ليالى الأسرة ، كانت ليالى الشتاء بالنسبة لنا هنا هى ليالى العزلة والوحدة ، وفى حين كنت سعيد الحظ بكثرة مالدى من عمل كمدرس لغة مطالب بالتصحيح والتحضير وماإلى ذلك ، فقد كان علاء أكثر تعْساً منى بكثير إذ يظل خالياً منذ انصرافه من المدرسة إلى حين عودته إليها . .

كيف يمكن أن تقتل « بمعنى الكلمة » هذا الوقت ؟

الشاى وشربناه عدة مرات ، واستمتعنا بصنعه فوق الصوبا . تعشينا والحمد لله ، قشرنا الكستناء (أبو فروة) والتهمنا أكياساً من اللب الأبيض والفول

السودانى والفستق ، وأكلنا شرائح التفاح . . لكن الليل لايزال بطوله ، وتشدو أم كلثوم ونستمع : (حتى الجفا محروم منه ، ياريتها دامت أيامه) . . كأن الإذاعة تريد أن تزيدنا إيلاماً . . ونظل معاً : كل الأحاديث قيلت . كل النكت رويت أكثر من مرة ، دفء صحيح تبعثه الصوبا . لكنه دفء لايبعث على أية بهجة ، كم خسرنا بتلك الجفوة التى حدثت بيننا وبين أذكياء الشام ، ولكن هل كان إلى تجنب ذلك من سبيل ؟

ويرشق كل منا نظراته فى السقف ، والمصباح يضىء الحجرة بلا جدوى ، وصوت الراديو أصبح عذاباً ، كل شىء توقف ، ولم يعد شىء مطلقاً يحدث ، ويأتيك من الخارج صوت الأمطار الهاطلة . لتحيل الشوارع إلى برك وأوحال ، ثم تراوغ فى استنبات المحصولات !

كانت أياماً . كم رددت فيها بيتاً من الشعر حفظته فى أحد دروس المطالعة ، جاء على لسان اثنين تسلقا جبلاً وتعثرا فجأة فهويا ، لولا أن الجليد تراكم حول الحبل . . وظلت حياتهما معلقة بغلظ طبقة الجليد ، وقابليتها للذوبان مع حرارة الجو . . وكم تمثلت فى سوريا هذا البيت فى ليالى الشتاء :

فلا النوم يأتينا ولا الصبح ينجلى ولا الريح مأذون لها بسكون

ولم أكن أدرى حقا كيف كان يأتينى النوم ؟ . .

البحث عن سلوى :

ذات ليلة وجدت علاء يحادثنى بطريقة تشى أن وراءه أكثر مما يقول ، سألنى :

– سيجارة ؟

هو يعلم أننى لاأدخن ، فقلت :

– شكراً ، أنت تعرف . .

دار على عقبيه ، ومد يديه باحثاً عن الدفء فوق الصوبا ، ثم قال :

– ألم تدخن قط ؟

– قط !

– لكن السجائر هنا بالغة الرخص ، الباكيت ثلاثون سيجارة بحوالى ربع ليرة .

– القضية موهيك .

ضحك وعاد يدارى صوته بوضع يده فوق الصوبا .

– معنى ذلك أنك لم تشرب مطلقاً ؟

– مطلقا !

– ياأخى . . أمرك عجيب ، ولم تجرب ذلك قط ؟

– قط !

– تعرف أن النبيذ والعرق هنا رائعان ؟

– لاأعرف ولايهمنى ذلك .

– لكن الجو بارد كما ترى ؟

– اسمع يا علاء . .

والتفت بكل انتباهه . وقلت حقا ماأدهشه :

– إن كنت تريد أن تشرب فلا مانع لدى . .

– ستشرب معى ؟

– كلا

– ولن يضرك ذلك ؟

– أبدا

- معلهش يا أستاذ . . أنت ترى . . لاأحد يحادثنا مجرد الحديث .
- ولا يهمك

وكنت صادقاً معه . فمنذ بدأت أعي الحياة . وأنا أدرك أن هذه الدنيا ليست من صنعي . وأنني لاأخلق الدنيا على هواى ، وأنها هى كما خلقها الله ، والبشر هم البشر ، ولقد ظلت المعادلة الصعبة بيني وبين البشر ، وبين كل من عرفت ، بل ومن لم أعرف . كيف أدع الآخرين وشأنهم وأكون نفسى ؟ وكم هززت رأسى لآراء لا أقتنع بها ؛ لأنني أدرك أن محدثى يراها هى حياته ! وكم قلت مجاريا هيه . . هيه . . صحيح . . وبعدين . . ودون أن أقتنع بما يقال ! وأعتقد أنني قد وفقت فى ذلك وإن كان الآخرون لم يفهمونى تماماً . .

لكن الأمر العجيب حقاً هو أن علاء الذى كان يظن الأمر « مقرفا » بالنسبة لى ، بحيث كان لايتصور أننى قادر على تحمله . هو الذى ضجر منى فى النهاية ، لأننى لاأشاركه فى أى شىء . . كانت طباعنا مختلفة ، ولم يكن بيننا أمام السوريين إلاأننا ننتمى إلى مصر ، ولم يكن بيننا بعضنا وبعض إلاأننا غرباء . .

وإن صديقاً واحداً لكثير :

تجلت حكمة الله جل شأنه فى تلك الرابطة التى ربطتنى بعلاء . فهو ضحوك باش . يختلق الأحاديث اختلاقاً ، يموت لو أن أحداً لم يحادثه ، وله قدرة على حكاية القصة الواحدة عشرين مرة ، وأن يضيف إليها الحواشى فى كل مرة ، على حين أنى على الحال التى شرحتها عن نفسى . هكذا كان علاء يبذل كل جهد فى اقتناص الأصدقاء . فى البحث عن صديق يقبل أن يقيم صداقة معنا .

وإذا كانت علاقتنا قد فترت بالشوام ، فلم يبق أمامنا إلامعسكر الحمويين أى الزملاء من أبناء مدينة حماة ، ولايفوتنى أن أسجل هذه الملاحظة العجيبة ،

فلقد حدث بعد الجفوة إياها أن بدأت حجرة الدراسة تنقسم ثلاثة « معسكرات » متمايزة هى : المصريون على اليسار (بالنسبة للداخل) والحمويون إلى اليمين ، والشوام فى المواجهة ، وظل أبناء سلمية على عزلتهم عنا . عنا جميعاً للحقيقة ، كانت هذه هى القاعدة الصلبة ، التى أخذت شكل عرف يحترمه الجميع ، وماعداه فكان استثناء لايقاس عليه . وكنت أنظر لذلك وأردد بينى وبين نفسى « هيك ، وحدة مايغلبها غلاب » وأضحك ، ويسألنى علاء : مايضحكك ؟ وأشير له إلى وضعنا ، فينصح بأن الحكاية موهيك ، وبأن الناس إن كانوا يجفلون منا فلابد أن نسعى نحن إليهم ، ولقد سعى وسعى كثيراً .

وذات يوم فوجئت به عائداً فى صحبة زميل حموى ، كان الأستاذ سعيد الكيلانى مدرس اللغة العربية ، ولقد كان صديقا بحق ، كان شهماً للغاية ، وكان كريماً ، وفى حين قبل عن طيب خاطر دعوة علاء له ، فقد ظل يعتبرنا ضيوفاً عليه هو شخصيًّا ، كلما زرنا حماة ، لأى سبب من الأسباب ، حتى إننا كنا نزوغ منه أحياناً ونذهب إلى هناك خلسة حتى لا نثقل عليه .

وكان من بين الحمويين كذلك ، زميل يحب الموسيقى ، ويعزف على عود يصاحبه ، واسمه منذر شعار ، ولست أدرى هل الرقة والدماثة اللتان كان يتحلى بهما تعودان إلى الفن الذى يحبه أو إلى طبع أصيل فيه ، وإن كان لم يتح لأى منا فى الحقيقة أن يبادله إلا كلمات المجاملة والترحيب الروتينى ؟ وأذكر أنه كان من بين أبناء حماة زميل لم يحادثنا - جميعاً - مجرد الحديث . وربما لم يلق مطلقاً علينا مجرد السلام ، اسمه أحمد درويش ، وكان يقص شعره على طريقة أديب الشيشيكلى ، وعلمنا أنه يمت إليه بقرابة .

عجيب أمر حماة حقاً ، لقد كانت ذات يوم مسقط رأس معظم حكام

سوريا : الشيشيكلى ، وحسنى الزعيم ، وسامى الحناوى ، والحورانى ، والسراج ، وغيرهم وغيرهم ، ولسنا نسوق ذلك لمجرد التباهى بالمعرفة ، فسوف يكون لذلك كله أثره فى الأحداث الحاسمة ، ونعود الآن إلى زملائنا ، إلى معسكر هؤلاء الحمويين . .

إن جهود علاء الدءوب ، مضافا إليها جهودى المتواضعة فى هذا المجال ، لم تعد علينا إلا بهذا الصديق ، ولسوف تتضح شهامته الحقيقية فى ختام الأحداث حين يبوح لى بسر غريب ، ولم يكن هذا السر إلا فكرته الراسخة عنا ، وعن جميع المصريين . .

لقد كان صديقاً واحداً ، لكنه كان كثيراً حقاً فى هذه الظروف الكئيبة التى قدر علينا أن نحياها هناك . .

ولقد كان حقاً نعم الصديق . .

منشور شيوعى :

لقيت زميلنا : عامراً مدرس الموسيقى ، يسير بصحبة الزميل الشويحى قاصدين المدرسة ، بعد تحية الصباح المعتادة ، همس عامر ، وقد لمحت ذعراً حقيقيا يطل من ملامحه .

– عرفت –

– عرفت ماذا ؟

فقال بنفاد صبر :

– ياأخى حكاية المنشورات !

– أى منشورات ؟

– يوه . . (ثم وجه الحديث للشويحى) دا باين عليه نايم على ودانه .

ضحكت وقلت ملايناً :

– والله يا أستاذ عامر أنا لاأعرف شيئاً

– قل له ياشويحى .

فقال الشويحى :

– اسمع . . فيه منشورات شيوعية مالية البلد ضدنا .

– ضدنا إحنا ؟

– ياأخى ضد الوحدة . . تبقى ضد مين ؟

– آى !

وانطلق الشويحى ساخطاً :

– الشيوعيون . . والبعثيون . . وإذاعة عمان .

وقال عامر :

– حاجة ماتطمننش ، نسفر الأولاد ياشويحى ؟

– انتظر شوية ياعامر ، انتظر .

ماهى الحكاية بالضبط ؟ أسعدنا الحظ فى مساء ذلك اليوم بزيارة مفاجئة من صديقنا حسين ودار الحديث فى كل موضوع . وفجأة سأله علاء عن حكاية المنشورات . .

– أبداً . . ياسيدى ، هادول الشيوعيون خبثاء جداً . . هم أقلية وبيعارضوا الوحدة ، لكن شو بدهم يساووا ، بالليل سيدى . . ألقوا منشور . . منشور واحد . . بيثبتوا إنهم موجودين .

وصمت قليلا ثم قال :

– فهمت أستاذ ؟ فهمت شو القضية . القضية إنهم يثيروا بلبلة وحكايات . . الشيوعيون . . منشورات . . ويأخذوا قوة هى ماهى إلْهُمْ لكن

هيك . . هايدى تاكتيكاتهم .

وسأل عامر :

– يعنى مافيش خوف ؟

فقال حسين ضاحكاً مقلداً اللهجة المصرية :

– أبداً يا أستاذ ، مافيش خوف. اطمئن ياخويا .

وأعترف أن ماقال حسين كان نافعاً لى ولنا جميعاً . . لكن القضية الحقيقية هى أن إخواننا المصريين لم يكونوا ليبالوا مطلقاً بالأمور العامة للحد الكافى ، لقد كان التيار سائراً مندفعاً ، وهم جزء منه فقط ، إما أنهم يشاركون فى دفعه على شكل خاطئ ، منفر غير واع كما يفعل الشويحى ، وإما أن يلزموا الصمت ، كما يفعل عامر – معذوراً – أويؤثر السلامة ويبحث عنها من أقرب طريق وأسهله ، كما كان يفعل زميلنا مدرس اللغة الإنجليزية ولنطلق عليه اسم هاشم . .

نموذج عجيب :

لا أدرى كيف اتخذ هذا الزميل قراره ؟ ولا أى حيثيات كانت لديه لتضعنا جميعاً – سواه – فى مرتبة المشاغبين الخطرين الذين يستحسن – من وجهة نظره – ألاتكون له بهم صلة ؟ وإذا كان شىء كهذا فى ظروفنا هذه مستحيلاً ، فقد حرص على أن تظل صلته بنا فى أضيق نطاق حتى بلغت يوماً ما مرحلة العدم .

ومع ذلك ، فليست هناك فى حدود علمى أسرار ولاألغاز ، لقد جاء المسكين إلى سوريا باحثاً عن زيادة دخله ، وهذا دافع تشاركه فيه الغالبية العظمى ، إن لم يكن كل من ذهب إلى هناك ، لكنه وجد أن مايحقق له ذلك هو أن يظل بعيداً وأن يبتعد وأن يتباعد وأن يسلك كل مشتقات البعد والابتعاد

عن مجريات الأمور كأنما كنا نحن من صانعيها وكأننا لم نكن جميعاً – نحن وهو – مجرد متفرجين ، أوللدقة مجرد كومبارس يفشلون إذا فشل العمل الذى يساهمون فيه ، وينسون إذا نجح هذا العمل ، وفوق ذلك تقع وطأة العمل فى الحالين عليهم !

كان محبًّا للمال ، لكنه من النوع الذى تشيع مقاصده ، إنه فى ذلك المقصد ليس أذكى من الشوام ، ولاأكثر حرصاً من أى واحد منا ، لكن كان بالغ الحرص للحد الذى تشى به تصرفاته .

لم أعرف له مسكناً ولم يقم بأية زيارة لنا مع أننا كنا محط لقاءات كثيرة بين المصريين هناك بعد أن كتب علينا ألاانتعامل إلابعضنا وبعض خشية أن يزوره واحد منا – وكان وعيه الشديد – إن سمى هذا وعيا ، مقصوراً على أمور المال ، لكنه كان ساذجاً لدرجة مزعجة فى الأمور العامة ، وهو فى ذلك ليس أكثر سذاجة من عامر ، لكنْ عامر كان يكل كل أموره للشويحى . . كنت أتميز غيظاً وأنا أسمعه فى حجرة المدرسين « يحكى » للزملاء الشوام الذين صادقوه وكانوا الوحيدين ، ويااللغرابة ، الذين سمح لهم بزيارته ، وذلك بعد جفوتهم معنا ، يحكى عن زيارته لحمص قائلاً :

– وذهبنا إلى حمص واشترينا الأغراض . . جبنا قطرميز (برطمان) زيت زيتون روعة . . وزيتون أخضر . وليس العيب حقاً فيما كان يقول ، لكن فى اللهجة التى كان يتحدث بها ، كانت لهجة تشى بسعادته الفائقة باقتنائه لزيت الزيتون ، وكان يعتبر من البذخ أن يقتنى زيتوناً أخضر !

أسوء الطبع هو ؟ أم الجشع ؟ أم الحرمان الذى عانينا منه جميعا فى مصر ، فجعل الحصول على هذه الأشياء الصغيرة مغنما يتباهى به الناس ؟

وأسمح لنفسى هنا أن أقفز فوق الأحداث لأسأل : ماذا أجداه هو

المسكين : بعده أوتباعده ؟ هل ظل يعمل فى سوريا . . أوقدر عليه ماقدر علينا جميعاً ؟ وهل أدرك اليوم ، أن الأمور ليست بيده ولابيد زملائه وأنه قدر علينا أن نعيش ظروفا لايجدى فيها حرص ولاتنفع فيها شجاعة . . وأن على الإنسان فى كل الأحوال أن يحترم نفسه ، فاحترام الذات هو القيمة الوحيدة الباقية فى أيدينا ، وإن كان شيء كهذا ، يظل القابض عليه كالقابض حقا على الجمر . .

ويا له من أمر يبعث حقاً على الحزن !

اقتحام :

هب علاء من رقدته ذات مساء ، وانتصب واقفاً ! وبدأ يرتدى ملابس الخروج ، والتفت إلى وقال ، كأن الأمر لايحتاج إلى أى نقاش :

– استعد يا أستاذ !

– ليش ؟

قال يستكمل حواراً لابد أنه كان دائراً بينه وبين نفسه :

– ألا تذكر أن مصطفى عيشة زارنا من مدة ؟

– أذكر

– إذن فلنرد الزيارة . .

أطفأ الصوبا ، وارتدى الجوانتى والبالطو ، ولم أجد بدًّا من مجاراته ، فأنا أيضا بحاجة ككل البشر لأن «أحكى» أن أستخدم لسانى الذى وهبه الله لى لأتحدث إلى أحد .

وقطع علاء الصمت ونحن سائران :

– هيك أستاذ لابد أن نقتحم .

– نقتحم ؟ أى قلعة ؟

– نقتحم بيوتهم ، ماذا يريد هؤلاء منا ؟

وأطلق وصفاً يستحيل نقله على الورق !

– وهل تعرف البيت ؟

– بنسأل أستاذ . أنا أعرف الحارة ، وأشار هو مرة إلى البيت ، وطلب إلى أن أشرف . .

وضحك . .

– تعال بقى ياسيدى نشرف . .

ومازلت أذكر وقع المفاجأة على زميلنا مصطفى عيشة ، المشرف بالمدرسة حين دق الباب ، ويفصل الباب الخارجى عن داخل البيت باحة واسعة ، مما يسهل على القارئ تبين أن صوت الطارق لايصل إلى سمع أهل المنزل إلابعد مدة طويلة . .

جاء من جاء ليستفهم من الطارق ، وحين عرف من نحن ، نادى فى لهجة ونغمة لم تغب مطلقاً عن فهمى ، وسرعان ما أهل مصطفى عيشة يتعثر فى خطوه . .

– يأهلين ، ياأهلين ، ياأهلين علاء ، أهلين أستاذ .

– أهلين سيدى .

وكان لدى مصطفى عيشة فى تلك الليلة ضيوف من أهل البلدة أوقل هم أقرباء له ، وأمكن علاء كدأبه على الدوام أن يجد ما يقول ، وأن يسأل عن أمور يعرفها ، وأن يعيد حكايات سمعها ، وأن يدعى تأليف قصص نقلت إليه ، أو أنه كان شاهداً على أمور بلغته عن طريقى أنا و . . و . . كل ذلك ليبقى جذوة الحديث مشتعلة ، وظللت أنا صامتاً إلامن كلمات مجاملة ، وأعتقد أنهم لم يكونوا يلقون بالاً كبيراً إلى ، بسبب ضآلة حجمى وصغر سنى ، وكنت أجد فى

ذلك ملاذاً لابأس به ينأى بي عن أمور لاأحبها أو لاأستسيغها ، وهكذا ساهمت بدوري فى دعم صورة علاء كأخ أكبر لايجوز لأخيه الأصغر أن يأخذ راحته فى حضرته ، وأتاح لى ذلك أن أتأمل مايدور .

كان الترحيب حارًا حقاً . لكن حرارته هى التى كانت تشى به وتكرار كلمات الترحيب والإسراف فى ذلك لايمكن أن يعنى أن الترحيب نابع من القلب ، أما الحديث الذى لامناسبة له عن الأخوة والأصل الواحد فلاتعنى سوى الشك فى صحة ما يقال . . أما النظرات التى ترقبنا من « تحت لتحت » فكانت تتساءل : هل كان لزيارة مفاجئة كهذه من جانبنا أى مغزى أوهدف ؟

لقد ودعنا حقاً بمثل مااستقبلنا به ، لكنى لست بحاجة للقول بأن هذه الزيارة كانت الأولى والأخيرة لمصطفى عيشة ولأى بيت فى سلمية على الإطلاق – باستثناء منزل صديقنا نصف المصرى – بحكم حبه لعبدالناصر، حسين ، كما لابد أن القارئ سيستنتج أن مصطفى عيشة هذا لم « يهوب » نحو مسكننا بعد ذلك على الإطلاق .

يالها من تضحيات !

على غير العادة جاء الأستاذ عبد الكريم إلى حجرة المدرسين وانتظر - وهذا استنتاجى – حتى امتلأت الحجرة ، ثم أخرج باكيت السجائر وأشعل لنفسه سيجارة ودسها فى جيبه ، ثم تساءل بصوته الجهورى :

– والله هايدى أمور بالغة الغرابة .

– شو صار ؟ . .

– ياأخى مابتعرف أن باكيت السجائر اليوم زاد فرنك ، (الفرنك يعادل قرشاً واحداً لاغير) .

ومرت صيحات استنكار .

- كيف ؟

- والله مابعرف !

واتجه إلينا (نحن المصريين) دون أن يخص واحداً بعينه بالحديث :

- أستاذ : هنا الدخان بينتج عندنا هون بسوريا ، فى جبال اللاذقية ، شو بده يزيد . نحنا اللى بننتجه أستاذ .

كان بالغ الغضب وقلت ملاطفاً :

- واحنا الأسعار عندنا بتزيد والله ياأستاذ عبد الكريم .

- فاهم أستاذ ولكن ها الدخان نحنا بننتجه هون . . يعنى مابنستورده ولايتكلف أى شىء . .

أتذكر تلك الكلمات تطن فى أذنى ، كلمات طنانة عن الوحدة والتضحيات . . هل الوحدة هى مجرد الشعارات ورقصات الدبكة وأغنيات الموسكى وسوق الحميدية ، أو هى عمل وتضحيات ؟ . . إذن فلم الغضب ؟ ولكن لاجواب إلاأن على الآخرين وحدهم أن يضحوا . . بالله فرنك واحد يستدعى كل هذه الضجة مع هذا المرتب الضخم ، ونحن الذين نتقاضى هذه الرواتب الهزيلة « نتطوع » بخصم يوم من راتبنا مرة للجزائر ، ومرة لتسليح الجيش ، ومرة . . ومرة . . فى حين تدفع بلادنا التى كانت وقتها بالغة الثراء مساعدات ومعونات لغيرها ذات اليمين وذات الشمال . . بما فى ذلك دعم ميزانية الإقليم الشمالى الذى يبدى ابتهاجه بعيد الوحدة برقصات وأغنيات بشكل لايمكن أن تجاريه فيه مصر ، مصر التى قدر عليها أن تعطى فى صمت ، فتبدو للجاحد كأنها هى التى تأخذ فى حين يغنى ويرقص غيرنا فيبدون بشكل الذين يعطون وهم الذين يأخذون ويستحوذون على كل شىء . .

يقول لى صديقى المصرى بعد أن حكيت له القصة :

– هل تعرف كم زادت السجائر علينا فى هذا الوقت . . . ؟

– . . . ؟

– أكثر من الضعف !

قلت مازحاً :

– لابأس . . كله يهون فى سبيل الوحدة الشاملة . . فأشعل سيجارته قائلاً :

– على رأيك . . ونفث نفساً عميقاً ثم أخذ ينظر إلى الدخان الكثيف يذهب بدداً فى الهواء .

الجمعة اليتيمة :

نمنا وشبعنا نوماً ، استيقظنا لكننا تلكأنا فى الفراش كما نشاء ، اليوم إجازة ولابد من الراحة ، تمطينا وتثاءبنا ، وفركنا جفوننا وتبادلنا تحية الصباح رشقنا عيوننا بالسقف حتى تعبت منا العيون ، نهضت من الفراش ، لابد مما ليس منه بد ، أعددنا الفطور ، أكلنا وأعددنا الشاى ، شربنا الشاى . . لكن عقارب الساعة كانت لاتزال تحوم حول العاشرة ، من العاشرة حتى العاشرة ، إلى أن يداعب النوم جفون معاليك اثنتا عشرة ساعة ينبغى لها أن تمر ، لكن الوقت بطىء ثقيل كالرصاص . .

– أستاذ

قلت : نعم .

– هيا بنا .

– إلى أين ؟

– إلى المسجد . . نصلى .

كانت دهشتى شديدة ، وأكد هو :

– نعم ، نصلى ، لم لا ؟ فلنجرب معهم كل وسيلة .

– مع من ؟

– مع الناس . . مع الناس هون . . هون سيدى ، لابد أن نفعل أى شىء من يدرى ؟ . . وقد نعثر على طريقة للتفاهم معهم ، موهيك ؟ هيا .

توضأنا وذهبنا إلى المسجد ، وأدينا الصلاة ، بارك الله فينا فانزاحت من الوقت ساعتان ، وعدنا نجهز الغذاء فانزاحت ساعتان أخريان . . هانت .

فى الصباح سألنى عازر :

– هل صليتم الجمعة أمس ؟

– نعم

– مع القدامسة ؟

دهشت : وماذا فى الأمر ؟

– أبداً ، لكن الناس جميعاً يتحدثون عن ذلك .

يا للمشكلة اللعين . الطائفية من جديد . الإسماعيليون وأهل السنة . ومادخلنا نحن ؟ هذه مشكلتهم هم وليست مشكلتنا ، هم سوريون ، ونحن مصريون ، لكننا فى وحدة ، هل نسيت ؟ . . ألم تسمع أغنيات صباح م الموسكى لسوق الحميدية ، ومحمد قنديل وحده مايغلبها غلاب ، وعبد الوهاب كان وهماً وأمانى وحلماً . كان طيفاً وصحا النائم يوماً فرأى النور فأغنى . أغنى ثم صحا على الوحدة ، على تحقق الحلم ، على المشاكل الغريبة والقضايا التى لاحصر لها ، كل خطوة مشكلة ، وكل حركة قضية ، وكل كلمة محسوبة ، وأسئلة الطلاب لاتنفد ، وصمت البشر من حولك أقسى من صمت

الجبل ، فهل تنتظر من جبل حديثاً ؟ وقبل أنْ أحكى لعلاء كان هو الذى يحكى لى ، المصريون يظاهرون القدامسة ، إننا هكذا ، نحن معذورون لأننا لم نكن نعرفهم ، أما هم فكانوا يعرفوننا ، فما الجديد ؟ لكن لاتتعب نفسك ، لاتسأل أى سؤال ، هؤلاء هم ، ولاحيلة لك فى الأمر ، لاداعى للصلاة ، حتى لو كان الهدف منها تزجية الوقت . . والعياذ بالله . .

فى المساء بدأنا زيارة لزملائنا المعلمين ، حكيت القصة ، وزارنا – أقصد زارهم – واحد من أهل الحى ، هو بالصدفة اللحام الذى نأكل عنده ، أدلى بدلوه فى القضية ، ثم تطرق إلى المشكلة برمتها ، إلى أن حكى لافض فوه عن العلويين .

– أستاذ ، هادول عندهم كتب سرية ، مافى حدَنْ « أى أحد » يمكن يقرأها ولوضبط أستاذ بيقتلوه . . وعندهم عيد اسمه السادس من نيسان ومابيحتفلوا فيه إلا يوم ١٧ . . تعرف أستاذ شو بيصير هنيك (هناك) مافى حدن يعرف ، لابد أستاذ أن أى غريب يفارق القرية ها اليوم .

ولقد تطرق زائرنا إلى أمور كثيرة ، كان كرجل ينتمى لأهل السنة قد وجد فينا « الونس » فسمح لنفسه أن يحكى الكثير عن العلويين والدروز والإسماعيليين بالطبع . . كانت حكاياته تدهش علاء أكثر منا جميعاً حتى إنه عند عودتنا ، وجدته يقول لى :

– ياأخى حاجة غريبة : هو احنا فين بالضبط ؟

وبدا السؤال يهمه حقاً ويقلقه :

أى بلاد هذه ؟ وأى أناس هؤلاء ؟

وأقنعتنا هذه الحكايات أكثر من غيرها أنه لاداعى حقاً . . حتى للصلاة ! حتى الصلاة كان ينبغى علينا ألانقربها ، علَّ إخوتنا فى سوريا الحبيبة يرضون

عنا . . ومع ذلك فقد ظل الاتهام لنا قائماً . وذات يوم ، وكنا عائدين من حماة ، اشتبك الشويحى ورجل من أهل البلدة فى حوار لاجدوى من ورائه ، حسمه الرجل بقوله :

هيك أستاذ نحنا عندنا فكرة راسخة . . أنتم بدكم (تأسلمونا) من جديد ، أى أننا كمصريين ، أوكسلطة وحدة بمعنى أدق ، ننوى أن نعيد هؤلاء إلى حظيرة الإسلام ، فالرجل لايعد نفسه منتميا إلى طائفة إسلامية ، ولو بالاسم . . وما حيلتنا حقاً فى ذلك ؟

متهم . . عن غير جدارة :

تؤدى الصدفة دوراً عجيباً فى وقائع هذه الشهادة ، بمثل ما تؤدى هذا الدور وأكبر منه فى حياتى نفسها ، بشكل يجعلنى لاأشك مطلقاً فى أنها تصاريف القدر ، نعم القدر ، وحده الذى يمكنه أن يرتب لمثل هذا اللقاء الغريب الذى تم بينى وبين حسن . . تلميذى السابق ، وابن عمه لعبد الكريم (وهذا تعبير صحيح فى اللهجة السورية) زميلى مدرس اللغة الإنجليزية ، الثائر على إرسال ابن أخيه إلى مصر ليدرس مذهب أهل السنة ، لكنه يتركه يفعل ذلك ، والساخط على زيادة ثمن باكيت السجائر فرنكاً واحداً . .

والقضية كما يقول الأخوة أبناء الإقليم الشمالى – فى ذلك الوقت – أننى لم أستطع مطلقاً أن أظل بسلمية خلال عطلة منتصف العام الدراسى ، وقررت العودة إلى مصر مهما كلفنى ذلك من مصروفات ، وبينما كنت أسير بجوار الأمريكين عند تقاطع شارعى فؤاد وسليمان . . وجدته أمامى ، وجهاً لوجه ، وسط هذا الزحام الكبير ، لم أعرفه فى البداية ، كان شخصاً غير الشخص ، الشعر مصفف بعناية ، الوجه وسيم مضرج بالحمرة ، البذلة الأنيقة المكوية . .

الوسامة السورية المعهودة ، يستحيل أن يكون هذا هو حسن . . ابن الجبل أشعث الشعر ، شاحب الوجه ، لكنه حسن .

– أهلين أستاذ .

وكان لابد أن أدارى دهشتى حتى لايقرأ مايدور بنفسى «كل هذا ياحسن فى أقل من ثلاثة أشهر» ؟ ودار الحوار المعتاد ، لكنه أصر على أن أزوره فى مدينة البعوث الإسلامية ، وكان لابد أن ألبى دعوته .

أول ماصدمنى حقاً عند ذهابى إلى هناك أننى لم أجد (حسن) كان قد ذهب فى رحلة إلى أسوان (التى لم أرها حتى الآن) نظمتها إدارة المدينة ، كى يرى السوريون معالم بلدهم مصر ، ألم يكن يعرف ذلك حين حدد لى الموعد ؟ . . لكن ماحدث قد حدث . . واعتذر زملاؤه عنه ، وكانوا فى انتظارى .

تجمع حولى ما لايقل عن ثلاثين إن لم يكن العدد أكبر من ذلك ، وكانوا كرماء أسخياء فى واجبات الضيافة ، وبعد الحكى والذى منه وجدتنى فجأة هدفاً لأسئلة كالسهام ، كانوا جميعاً من مناطق الأقليات الطائفية فى سوريا دروزاً ، وإسماعيليين وعلويين من مختلف فئاتهم . . صدقت إذن الشائعات التى تقال هناك فى سلمية بخصوص الدراسة فى الأزهر .

– أستاذ . هيك بصراحة إديش مرتبك هون بمصر ؟ . .

كان السؤال مفاجئاً مباغتاً ، تداركت الأمر على الفور وقلت :

– هنا فى مصر الأسعار كما لاحظتم أرخص بكثير من سوريا (وكنت هنا أراوغ بل أكاد أكذب كى لاأقول مالاأريد أن يحسب على) . . قاطعنى أكثر من صوت :

– أستاذ نحنا هون بمصر من مدة ونعرف كل شىء إديش ماقلت ؟ . .

– ثلاثين جنيها (وهى فى الواقع ١٧ فقط)

– يعنى ٢٤٠ ليرة مثل مرتب آذن عندنا ، لكن سيادتك أستاذ بمدرسة ثانوية ، كيف بدك تعيش أستاذ ؟ كيف تأكل وتلبس وتسكن . . و . . كيف أستاذ ؟ . .

– يعنى . . الأحوال كما تعرفون ، أصل . . أصل .

– أصل شو أستاذ ؟

واندفع آخر :

–بتعرف أستاذ كام بياخذ الأستاذ تبعنا هون ، خمتاشر جنيه فى الشهر ، هو اللى قال ، قال إنه حتى المعيد بالجامعة بياخد ١٥ جنيه كيف هذا المسكين بده يعيش ؟

ووجدتنى فى ورطة شديدة ، وجدتنى متهماً عن غير جدارة ، فأسئلة كهذه لاينبغى أن توجه إلى ، أنا الذى أعانى ، أنا المجنى عليه ، وأمامكم من ينبغى أن تسألوه :

– شوف أستاذ . . نحنا هون بناكل ، ونشرب ، شاينا فواكهنا . . كل شيء . . حتى كى الملابس أستاذ . . حتى الخدمة . . لكن بتعرف إديش بناخذ . . مصروفات جيب . . مصروفات جيب بس . . كانوا فى الأول عم بيعطونا ١٢ جنيه من إدارة البعثات . . لكن المشير (عامر) شاف أن المبلغ صغير ، فصار يدفع عليهن (أى عليها) ٤ جنيهات . . يعنى نحنا بناخد ١٦ ½ جنيه مصروف جيب . . هيك . .

وحاولت أن أدافع بأية كلمة ، ولابد أن حيرتى كانت بادية للجميع :

– لاتدافع أستاذ ، نحنا بنعرف كل شيء كان الله فى عونكم . .

وحين أذن الله لهذه المحاكمة أن تنتهى وأن يخلو المتهم إلى حال سبيله ، كان

يذهلني حقاً ماسمعت ، لكن الذى بدأت أعيه من كل ماقيل هو أن هذا الرثاء لنا يعنى رفضاً باتا للارتباط بنا ، رفضاً للوحدة ذاتها ، ألايمكن أن يخشوا أن تقضى بهم الأمور ليلقوا مصير ومعاملة المصريين نفسها ؟

وليس تزيداً أن أقول : إننى حملت معى أمانة منهم نقوداً أرسلها بعضهم معونة لأسرته هناك . . فى سوريا الحبيبة !

الصحيح والزائف :

استرعى نظرى عند عودتى وجود طوابير من السوريين واقفة أمام مبنى فى دمشق عرفت أنه مبنى البنك أوالمصرف المركزى السورى ، ماالمناسبة ؟ علمت أنه قد ضبطت ورقات مزيفة من إحدى طبعات قطع النقد السورى ذات مائة الليرة ، أو أنه كان بها عيب فنى لست أدرى ، فأذاع المصرف بياناً يطلب إلى المواطنين تسليم مافى حوزتهم من قطع النقد هذه وإبدالها . . وعند عودتى إلى سلمية علمت أن تغيير هذه القطع النقدية ممكن فى مصارف حماة ، وأنه ليس هناك موعد أقصى كى يتم ذلك ، فسيظل بإمكان كل مواطن ، فى أى وقت تقع فيه فى يده قطعة منها أن يبدلها .

حكاية عادية وتتفق مع قواعد العدل والمنطق . فما الغريب فيها حتى نقف عندها ؟ لكننا لو عدنا بالذاكرة إلى شىء شبيه بذلك حدث مع المصريين من سلطات الوحدة هذه نفسها فلابد حقاً أن يستبد بنا العجب ، إننا إذا وافقنا على أحد السلوكين فلابد بالطبع أن نستنكر الآخر ، ولقد جاءت هذه الحادثة فرصة فريدة لنقف على طريقتين بالغتى التناقض : سماحة وتدليل واحترام لشعب ، وتشدد واستهانة بشعب آخر . . وهذا واحد من أخطر الأسباب التى سببت ، ولاتزال تسبب حتى اليوم ، الكثير مما يشكوه المصريون إزاء إخوانهم العرب ،

ولكن لماذا لانقدم الوقائع ذاتها ؟

فى نحو عام ١٩٥٩ أو ١٩٦٠ اتخذت حكومة الجمهورية العربية المتحدة قراراً بإلغاء ورقة النقد ذات مائة الجنيه ، والورقة ذات الخمسين جنيها ، وتعادل الأولى نحو ألف ليرة وتعادل الأخرى نحو نصف هذا المبلغ ، لم تكن فى هذه الأوراق شبهة تزييف أوخلل فى الطباعة ، فلماذا تم هذا الإجراء ؟ قيل لمواجهة عمليات تهريب المصريين (الأثرياء بالطبع) لأموالهم إلى خارج البلاد بعد قيام الوحدة (مع ملاحظة أنه حتى اليوم لم تكن قد تمت أية تأميمات أومصادرات أوحراسات أوقوانين اشتراكية . . إلى آخر القائمة التى تدفع إلى تهريب الأموال) .

وكيف يتم ذلك !

أعطت الحكومة مواطنيها مهلة أسبوع واحد لتغير مافى حوزتهم من نقود ، وحصرت هذه العملية فى البنك الأهلى (المركزى فيما بعد) وحده ، وهكذا كان على أبناء مصر أن يتجهوا إلى القاهرة لاستنقاذ « تحويشة » العمر ، وأن يكابدوا هذه المشقة ، وإلاخربت بيوتهم .

وفجأة ، ولكى تواجه السلطات محاولة إدخال هذه الأوراق إلى داخل البلاد ، قامت الحكومة بتقصير المهلة إلى أربعة أيام فقط ، وشددت الرقابة على المطارات والموانى ، وقررت مكافأة تبلغ ٢٥٪ لكشافى الجمرك من قيمة المبالغ التى يضبطونها .

مازلت أذكر جيداً هذه الأيام ، ومع أننى ليس لدى ماأشكوه فى هذا الصدد – بصفة شخصية – فلاكان معى نقد يستدعى أن أزاحم فى الطوابير لتغييره ، ولاضاعت على من ثم تحويشة عمر ولاخرب لى بيت ، فمرتب السبعة عشر جنيهاً لايمكن أن يعمر بيتاً لنخشى عليه الخراب . .

ومع ذلك فلايزال قلبي يتعذب كلما تذكرت صورتين تجسدت فيهما بشاعة هذا الإجراء .

الكل باطل

١ - هنـا :

لم أرها لكنني مازلت أذكرها ، ولست أعرف عنها الكثير لكن الخيال أكمل صورتها ، وكل ماقرأته عنها ثلاثة أسطر فى صفحة الحوادث ، لقد جاءت إلى القاهرة من واحة سيوة لتبدل ثلاثة ورقات معها من فئة مائة الجنيه . . جاءت خلال المهلة التي حددتها حكومتها لكنها عرفت فى القاهرة ، أن الموعد قدموه ، وأنه انتهى أمس .

لم تذكر صفحة الحوادث ماحدث للمسكينة ، لم تحدثنا عن الهول الذى ارتسم على وجهها وهى ترى شقاء العمر يتحول إلى وريقات ملونة ، ولاعن الإحباط الذى عانت منه وهى ترى كل ثمرة عمرها تموت جثة باردة بين يديها ، مجرد وريقات عادية يكاد يذيبها عرق اليد ، يدها ، وقد كانت منذ لحظة ثروة تشمخ بها وتعتز ، وسنداً متيناً فى مواجهة الزمن . .

ماذا قالت المسكينة لنفسها ؟ وماذا قالت عندما عادت إلى بلدها لقومها ؟ وكيف فهم الناس الأمر؟ وكيف يمكنهم بعد ذلك أن يثقوا فى وعود أوعهود ؟ . .

لو أن صفحة الحوادث قد قالت - إنها ماتت من الصدمة ، إنها انتحرت ، إنها بكت ، إنها صرخت - لهون ذلك من وقع الأمر على النفس ، لكن صفحة الحوادث قد ضنت علينا بمزيد ، وتركتنا مع هذه السيدة ،

أوتركت هذه السيدة فى أعماقنا ، تتوحد معنا ، ونجد فيها أنفسنا كلما تعرضنا لسلوك جائر . أوعانينا من خديعة . . وكم تعرضنا فى حياتنا لكل من هذا وذاك !

٢ - و هناك :

حدثنا أحد زملاء الأستاذ أدفاوى ، قال :

كنا فى هذه الأيام نعمل بسوريا منذ نحو عامين ، وفى البلدة التى كنا بها كان معنا مصريون يعملون بسوريا منذ ماقبل الوحدة .بعضنا فضل البقاء بسوريا حتى فى أيام الإجازات ليوفر ، حتى لاينفق أى قرش يمكن توفيره . . أما أنا فكنت أحرز أربع ورقات من فئة الخمسين جنيها ، ولعلمك كنا جميعاً نفضل الورقات ذات الفئة الكبيرة لسهولة نقلها ولرخص سعرها ، فكلما زادت قيمة الورقة قل سعرها بشكل نسبى . .

فوجئنا بقرار عبد الناصر ، ما العمل ؟ . . فى البداية لم نصدق ، لكن الأنباء تتوالى والراديو يذيع التنبيه مرة بعد مرة ، ما العمل حقاً ؟ . . لابد أن يسافر أحدنا ، بسيطة ، نتكفل جميعاً بنفقات سفره ، لكن التفتيش دقيق ، والوقت ثمين ، أوراق النقد معنا كعزيز عرفنا مسبقاً موعد موته ، لابد من عمل ، سنفكر فى حيلة لايمكن أن تخطر لأحد على بال ، ذهبنا إلى إسكافى هنا .

سنحشو أوراق النقد فى نعل حذاء فتحى ويسافر بها . فى الصباح كانت الصحف تتحدث عن اكتشاف عملية تهريب ، هل سرقنا مامعنا . . شقانا وعرقنا وغربتنا بين الجبال ولهيب الحر وصقيع الشتاء ؟ . . ماعلينا ؟ . لكنهم بدءوا يشقون النعال . . ويبقرون الشنط ويشقون الجيوب ، ويفكون حشو الجاكتات . المكافأة سخية ٢٥٪ ممايضبط ، ومع ذلك لابد من حل ، لابد

من مخرج وفجأة سمعنا بتقصير المهلة ، اضطربنا أكثر ، تموت بين أيدينا أحلامنا وأمانينا ، وسمعنا أنهم لكى يحكموا قبضتهم على الجمارك وكل المنافذ منعوا الدخول إلى البلاد كلية . ومن يفد إلى ميناء أومطار . . فلابد له أن يلزمه حتى تنتهى المهلة .

تعرف ؟ يقول لى ، استرحنا راحة اليأس ، همدنا وماعدنا نفكر فى وسيلة فقد قضى الأمر ، ومزق واحد منا مامعه من نقد فى حركة عصبية قبل أن تنتهى المهلة . . أما زميل آخر فقد رفض أن يتخلص مما معه حتى بعد انتهاء المهلة . . حتى اليوم (وضحك ضحكة شاحبة) يتصور المسكين أن هذه العملة ستتداول يوماً ما . . سيأتى يوم تتداول فيه . .

أأقول لك ؟ لقد أصيب بعض بنوبة قلبية . .

ونهض بعد أن أتم حديثه ، كان بعينه مايريد أن يداريه ، وفتح النافذة وأطل منها متلمساً برودة الجو وقطرات المطر . .

وأشعل سيجارة ثم سألنى :

– تشرب شاى ؟

وأجبت بالإيجاب فقد كان بحاجة لأن يخلو قليلاً إلى نفسه .

وذهب إلى المطبخ .

أما أنا فكلما تذكرت ذلك تساءلت : هل أفاد اقتصادنا حقاً من إجراء كهذا ؟ ! ألم تهز الحكومة الثقة بها وبمصر كلها وباقتصادها حين سلكت هذا السلوك ؟ . . هل جلس مسئول إلى ضميره يسأل نفسه : كم كسبنا من هذه العملية بافتراض عدالتها أومشروعيتها ؟ . . وكم خسرنا ؟ . . هل تعادل هذه الخسارة المكسب الذى حققناه أوتفوقه بكثير؟ . .

لكنى لست دارساً للاقتصاد ، ولاتعنينى هنا إلا دلالات الأمور ، ولايعنينى

الأمر هنا بصفة خاصة إلا فى بيان الفرق بين معاملتين متعارضتين تصدران من حكومة واحدة . .

وأرجو أن تعود إلى بداية الفقرة لتشاركنا فى السؤال ، أولترشدنا إلى جواب . . أى جواب ، إن كنت ستعثر حقا على هذا الجواب !

رمضان فى سوريا :

عندما حل شهر رمضان عدلت مواعيد الدراسة ، وأنقصت مدة الدروس ، واتخذت الأمور فى شكلها الرسمى المظهر الذى يتفق مع جلال شهر الصوم المبارك ، وأذيع ونشر أن من يضبط مفطراً فى مكان عام يتعرض لكذا ولكيت من العقوبات . . لكن ما كان يحدث فى سلمية كان شيئاً آخر تماماً .

وليس خروجاً عن الموضوع أن أذكر أن لى بالطبع أصدقاء كثيرين من إخواننا المسيحيين المصريين ، وأنى أقدر لهم حرصهم الشديد على مشاعرنا فى أثناء الصيام . وفى مرات كثيرة حاولت تحية بعضهم بطلب الشاى أوالقهوة له ، لكنه أبى بشدة حرصاً منه على مشاعرنا .

لكن الأمر لم يكن على هذا النحو ، أوحتى قريباً منه فى سلمية ، كانت الصورة هى النقيض تماماً ، فما إن حل رمضان حتى أضحت السيجارة كأنها الرمز القومى لمواطنى سلمية ، فهى مشتعلة فى كل مكان ومشرعة فى كل يد ، ويتطاير دخانها لتعبق به كل حجرات وأفنية المدرسة . . الجميع يدخنون : الطلاب ، المدرسون ، المشرفون ، الآذنون . . إلامدير المدرسة لأنه سنى . . ونحن وأبناء حماة ودمشق . وعلى غير العادة امتلأت حجرة المدرسين بالمدرسين الفارين من وجوهنا طيلة العام . . وكذلك بالمشرفين ، وبدأت تدور أكواب الشاى وتنفث أدخنة السجائر . . مع أنها كما شكا عبد الكريم منذ شهر قد زادت

فرنكاً كاملاً (أى عشرة مليمات بحالها) فى الباكيت عبوة ٣٠ سيجارة .

وفى البيت سألتنا نجاح ابنة صاحب البيت بلهجة تجمع بين المزاح والجد والسخرية :

– ليش بتصوموا أستاذ . ما فى عندكم أكل ؟

وكان قدرنا أن نصوم ، وأعجب مافى أمر الصيام أنك قد تهجر الصلاة كسلاً أو إهمالاً ، لكنك لابد أن تصوم . . هذا شأن معظم المسلمين ، لذلك فلابد أن يعذرنا مواطنونا فى دولة الوحدة إذا تمسكنا بالصيام فى سلمية ، لقد جاملناهم وهجرنا المسجد ، فليسامحونا ويلتمسوا لنا العذر إن تمسكنا بالصيام . .

ولقد حاولنا من جانبنا أن نعطى رمضان بهجة ليست له هناك ، فاشترينا قمرالدين ، وهو كثير للغاية ، يطاردك فى كل مكان ، لكنه يشكو هناك هوانه على الناس ، واقتنينا كذلك كل مانسعى للحصول عليه فى مصر . فرمضان بالنسبة للمصريين هو رمضان حتى لوكانوا فى سلمية إحدى أقضية سوريا ، الإقليم الشمالى فى الجمهورية العربية المتحدة ، وبدأنا نتبادل الزيارات وبقية أبناء مصر ونتبادل دعوات الإفطار . .

ومع ذلك فقد أبى رمضان أن ينتهى إلا بمفارقة عجيبة لابد ألاتفوت علينا دلالتها ، لقد جاءت ليلة الرؤية وأعلنت إذاعة القاهرة – عاصمة الجمهورية العربية المتحدة – أن غداً هو المتمم لشهر رمضان ، وكذلك أعلنت دمشق أن الرؤية لم تثبت ، وأن غداً . . إلى آخره ، وانهمكنا نعد العدة لآخر سحور . . وفجأة بعد أن أوغل الليل ، وجدنا دمشق – عاصمة الأمويين كما أكد لنا الشوام – تعلن أن الرؤية فى الإقليم الشمالى (الذى هو سوريا) قد ثبتت وأن غداً هو أول أيام عيد الفطر المبارك أعاده الله عليكم باليمن والإقبال . . لكن

إذاعة العاصمة (التى هى القاهرة) ظلت تذيع برامج رمضان ، وهكذا أصبح صباح غريب : رئيس الجمهورية فى القاهرة ومعه الحكومة التنفيذية للإقليم الجنوبى يكملون صيامهم ، أما نائب رئيس الجمهورية فى دمشق - وكان وقتها المهندس نور الدين كحالة - والحكومة التنفيذية للإقليم الشمالى ورئيسها عبد الحميد السراج . . يتلقون التهانى بحلول عيد الفطر المبارك . . أعاده . . إلى آخره ، ولاأدرى ماذا كان وضع الوزراء المركزيين ؟ . هل اعتمدوا التقويم المصرى جميعاً أوأخذوا بالأسهل - والدين يسر - وساروا على التقويم السورى ، أوعاد كل منهم إلى أصله فصام المصريون وأفطر السوريون ، هذه أمور تغيب عنا بالفعل .

ولكن شو القضية ؟ -كما يقولون - . . .

الحكاية أن أحد شيوخ حماة قد أصر على أنه رأى الهلال بالعين المجردة ، وأن غدا من ثم هو أول أيام العيد ، وإزاء إصراره وتمسكه استجابت السلطات فى حماة ثم فى الإقليم الشمالى كله ، وأنهى الرجل شهر الصيام بنظرة عين واحدة .

ومع أننى لست متطيراً فإننى شعرت كأن فى الأمر نذيراً ، نعم لم يكن ذلك فألا حسناً بالمرة ، ولكن الأدعى من ذلك إلى التأمل هو حرص السوريين على أن يكونوا متمايزين مختلفين حتى فى أمور لاتحتاج لأدنى اجتهاد . .

وقد يبين المعنى الكامن هنا حين نتذكر أسف زملائنا الشوام على مكانة دمشق فى دولة الوحدة ، وليس فى ذلك أى تجريد أو اعتساف . .

الفصل الثالث

أمطار وأوحال

حلب الشهباء :

قررنا جميعاً – أقصد المصريين المقيمين بسلمية – أن نقضى العيد فى حلب ، ولقد زرت حلب من قبل مع زملائنا الشوام قبل أن تحدث هذه الأشياء الصغيرة ، أونتنبه نحن لحدوثها فتحدث القطيعة ، وقتها نزلنا فى أوتيل يملكه أويديره رجل فلسطينى ، ينظر إلى الأمور بمنظار العقل ، كان متعاطفاً مع دولة الوحدة ، مؤمناً بدور مصر وأثرها ومكانتها .

لكننى فى هذه الزيارة صادفت أمراً مغايراً . كنا قد نزلنا بأوتيل كيفما اتفق ، ونزلت وحدى بعد وضع الحقائب ، وجدت أن حذائى يحتاج لمسحه ، فاتجهت إلى صبى يجلس وسط عديدين من زملائه وأمامه صندوقه ، ما إن وضعت قدمى على صندوقه حتى انشقت الأرض عن عملاق يقف بجانبى وينظر إلى نظرة عدوانية بلا أية مقدمات ، تأملته وتوجست منه شراً . كان شعره أشعث مبعثر الملابس وملامحه قاسية . كأن شيئاً فى يغضبه . مد قدمه يزاحم قدمى . أظهرت لامبالاتى ولم أعره اهتماماً ، وكان الصبى قد بدأ يدهن حذائى ، وقال الكائن الطويل العريض :

– ليش عم بتزاحمنا ؟

نظرت إليه ولم أرد .

– ليش مابترد علينا ؟ ليش مابتسأل فينا ؟

ولزمت الصمت بل أشحت بوجهى عنه ، وأحسست بنظراته الخانقة وأنفاسه الغاضبة ، فأردف فى غضب :

– نحنا هون أصحاب الأرض ، هايدى بلادنا !

لم أفهم مايريده هذا الجلف ، فهل معنى أن هذه هى بلاده أن يسلبنى دورى أوأن أسحب قدمى ليضع هو قدمه ، أوأنه يرانى قد اغتصبت بلاده حين وضعت قدمى على صندوق ماسح الأحذية ؟ ويبدو أن هدوئى الظاهرى قد أوحى له بشىء ينبغى عليه أن يحسب حسابه فلزم حده ولم يجاوزه ، وإن كان ذلك لم يمنعه من أن يبصق بصقة كبيرة عقب انصرافى . .

وعند عودتنا مررنا بقرية معرة النعمان ، قرية أبى العلاء المعرى ، فشاهدنا مقبرته عن بعد ، هنا يرقد شاعر العربية الأكبر وفيلسوفها الضرير ، وغير بعيد منه تقف منازل مخروطية الشكل غريبة المبنى والطرلز ، وقال لنا السائق – أوالشوفير – حتى لايظن أشقاؤنا أننا ندخل فى أحاديثنا كلمات أجنبية ومن ثم فوجهنا ليس بعربى (!) :

– هذه قرية شركسية .

وكما أفضى إلى هذه القرية خلاء فسيح أفضت هى الأخرى إلى خلاء أكثر اتساعاً . . وكيف يمكن مع هذه المسافات الشاسعة أن تتفاعل العناصر وتتوحد الأجناس لينصهروا فى بوتقة وطنية واحدة !

ومن يدرى ، قد تنجب هذه القرية « أفذاذاً » يأخذون مكانهم فيما بعد – بل لابد أن ذلك قد حدث فى هذه القرية أوأمثالها – ضمن المنظرين دعاة

العروبة الذين ينعون علينا بعد ذلك أننا نحشو كلماتنا بألفاظ مو عربية ، وقد يتساءل لافض فوه عن علاقة مصر بالعروبة والفرعونية ، وقد يأخذ علينا أننا نستعمل كلمة مصر ذاتها ، ألايدل ذلك على شعوبية وانعزال ؟

هواجس سابقة لأوانها :

قال لى زميلى المصرى المعلم بسلمية ونحن نتحدث عن الأوضاع التى نعانى منها ، قال بأسى كأنما كان ينعى أياماً خوالى :

– الغريب أن هذه أمور جديدة ، هل تعرف ماحدث لنا عندما جئنا إلى هذه البلاد غداة قيام الوحدة ؟ . . لقد قوبلنا بترحاب عجيب ، كنا ضيوفاً كل يوم على بيت من بيوت القرية التى عملنا بها حتى ضيفونا جميعاً ، وعند وصولنا جاء أبناء القرية الجبلية التى عملنا بها ، جاءوا جميعاً لاستقبالنا والترحيب بنا .

ولا يخالجنى شك فى صدق زميلى برغم ماكنا نعانى منه ، ويؤكد صحة مايقول . . ماكنا نسمعه عن حب هؤلاء للمصريين الذين يمرون بسوريا مروراً عابراً ، لكن هذه المعلومة بقدر ماتنصف قوماً فقد أثارت فى نفسى قضية بالغة الخطر : هل الوحدة التى قامت لتدمج شعبين متحابين هى التى باعدت بينهما ؟ وماذا وجد السوريون حقيقة فى المصريين حتى يحدث كل هذا النفور ؟ وهل كانت محبة على البعد يذهب بها الاندماج والرؤية عن قرب ؟ وهل الوحدة مجرد حلم وردى تذهب به أقل تضحية أوأهون عقبة لذلك فهى قوية وهى دعوة ، ضعيفة وهى واقع ، هزيلة وهى دولة ، أوأن السوريين ملولون بطبعهم يريدون ثم لايريدون دون سبب كبير ؟ . .

إن هذه المنطقة فى تفاعل مستمر حتى قبل العروبة والإسلام أى منذ آلاف السنين ، فلماذا لم تتوحد حتى الآن ، لوكانت الوحدة حقاً هى نهاية المطاف ؟

ولماذا تظل مسيرة هذا التفاعل تقارباً ثم تباعداً ، تشاحناً ثم صداقة ، توحداً ثم تفككاً ؟ . . إن مايحدث فى هذه المنطقة اليوم له ظروفه ومبرراته ، ولكل الأحداث التى تمر بها ظروفها ومبرراتها ، لكن الجدير بالتفكير هو الأمر الثابت وراء كل هذه المتغيرات . . هل هو أمر ثابت حقاً . . يطل فى كل مرة بشكل مختلف ؟ وهل تتكافأ عوامل التقارب وعوامل التباعد حين تواتى الظروف لتنشيط أى من هذه العوامل لتثير بدورها على الفور العوامل الأخرى ؟ . . وهكذا دواليك .

متى نواجه أنفسنا بالأسئلة الصعبة ، ونكف عن إلقاء اللوم على غيرنا ؟ . . حقاً أن لهذا (الغير) دوره الذى لاينكر ، لكن هذا (الغير) لاينطلق من فراغ ، ولايخلق مهما بلغت قوته الأمور خلقاً من عدم ، وتبقى القضية الأساسية منوطة بنا . . فمتى نواجه النفس حقاً بالسؤال ؟

بدنا مطر ياجمال !

ظلت أمطار سوريا طيلة سنوات الوحدة تصنع الأوحال ولاتحيى الزرع ، وظل شتاء سوريا بارداً لحد الصقيع كدأبه على الدوام ، لكنه أصبح عقيماً لايخصب أرضاً ولاينبت حباً ، هذا عن الطبيعة . أما عن مسائل البشر فإنها لم تكن تغيب بالطبع عن عبد الناصر . .

لقد كان الرجل رحمه الله يدرك عن حق أنه هو الرابطة الحقيقية إن لم نقل (الوحيدة) بين مصر وسوريا . . وحقا هناك المشير عبد الحكيم عامر معه كل الصلاحيات والسلطات ، لكنه كان الحاكم ولم يكن الزعيم ، وهكذا كلما كان الزعيم يدرك ما تئول إليه الأمور كان يركب طائرته ليهبط فجأة فى مطار دمشق أوحلب ، ليقوم بجولة تعلو فيها الهتافات وتتجدد الآمال وتسرى بعض الحرارة ،

ثم يعود شتاء الوحدة القارص أكثر برودة .

وفى هذه المرة – ولعلها كما أذكر تمت خلال شهر رمضان أولعلها جاءت قرب أعياد الوحدة وكلا التاريخين فى ذلك الوقت كانا متقاربين – لم يقم عبد الناصر بزيارة حماة أوحمص ، لكنه طار من حلب إلى دمشق مباشرة ، وتابعنا نحن الزيارة بأجهزة الراديو . .

كانت المظاهرات والهتافات والأهازيج والموسكى والحميدية والحلم الذى تحقق فجأة والجبار محطم الاستعمار . . وكل ماهو مألوف ومكرور فى مثل هذه المناسبة ، وفجأة التقطت آذاننا هتافاً بالغ الغرابة :

– بدنا مطر ياجمال !

وأعجب من ذلك أن الهتاف تردد بقوة وتكرر عدة مرات ، حتى غدا المطر مطلباً جماهيريًّا لابد أن يستجيب له الزعيم وأن يحققه ! . . لابد أن عبد الناصر قد أخذ ، قد ارتج عليه القول لحظة ، ثم قال رحمه الله بعد أن تغلب على دهشته .

– بدكم مطر؟ وماذا بيدى ؟

وصمت قليلاً ثم قال : ماذا أقول . . حتى الطبيعة ذاتها تحاربنا . . تحارب الوحدة !

ومن علامات الفأل السيئ فى هذه الزيارة نفسها أن عبد الناصر قد تلقى هناك فى دمشق نبأ وفاة الملك محمد الخامس ملك المغرب السابق ، وكانت تربطه به صداقة وطيدة ، ومازلت أذكر تنهيدة الأسى والحزن والتوجع التى صدرت منه والتقطتها أذنى من أجهزة الإذاعة .

هذه الوحدة الوليدة أى أحمال ثقال كتب عليها أن توضع فى رقبتها وهى بعد

غضة ؟ . . وليست أهون هذه الأثقال بالطبع تلك الأحلام المستحيلة التى وضعت عليها .

ومن جهة أخرى فإن هذه الأحمال الثقال نفسها هى التى تدعونا إلى الإشفاق على عبد الناصر أكثر مما تدعونا إلى الملامة ، إنهم يطالبونه بالمطر ، هل كانوا يظنون حقاً أن بمقدور عبد الناصر أن يسقط المطر أو أن ينزل مائدة من السماء ؟ هل صانع المعجزات ومؤمم القناة وهازم الاستعمار بمقدوره أيضا أن يسير السحب فى السماء ؟ هل انداحت المسافة – فى خضم الهتافات والأحلام – بين الممكن والمستحيل ، بين المعقول والشطط ، بل بين العقل والجنون ؟ هل كانوا يحملونه مسئولية الجفاف فيلمزونه ويلمزون وحدتهم معه ؟ مهما تبلغ بى الظنون فلست أعتقد صحة ذلك ، وأجدنى أميل إلى هذه الأحلام ، إلى هذا الشطط . . إلى الأثقال الرهيبة التى ألقيت على كاهل عبد الناصر وكاهل مصر. لقد قامت الوحدة وتسلم عبد الناصر الدفة ، وأصبحت مصر هى المنطلق والركيزة ، فلماذا لانلقى بإسرائيل فى البحر؟ . . ونسترجع لواء الإسكندرونة السليب ؟ . . وكيف يجرؤ المطر ألا يسقط فوق أرض يحكمها عبد الناصر؟

بدنا مطر ياجمال

عبارة من ثلاث أوأربع كلمات لكنها بالغة الكثافة شديدة الإيحاء تطرح عشرات الأسئلة الحائرة والمحيرة فى وقت معاً .

هامش صغير :

أصرت وفود الحركة الوطنية فى لبنان أن تهرع إلى دمشق لتقوم بواجبها الوطنى فى تحية زعيم العرب ، ولست أتذكر هل كانت هذه هى المناسبة التى تم

فيها لقاء عبد الناصر بفؤاد شهاب فى الكشك الخشبى الذى أقيم على الحدود ؟

ولايعدل السوريين فى الترحيب والهتاف والحماس سوى اللبنانيين ، وهكذا حظيت الوحدة بدفعة جديدة ، لكن أن نسأل هل هى دفعة حقيقية مؤثرة ؟ . هذا أمر آخر ، وإن كان للأمر أثره فى جانب غير منتظر من الأمور . .

لقد كان من نتيجة هذه المسيرة القومية التى تغلى بالحماس أن زادت كميات الجنيه المصرى فى أسواق النقد بسوريا مما هبط بقيمته إلى أدنى معدل له طيلة سنوات الوحدة .

ولم تحاول الصحف أن تخفى الأمر ، أوقل : إنه بلغ حداً يستحيل معه الإخفاء ! فألمحت بقدر مايسمح به الحرص على القومية — التى ينبغى أن نخفى فى سبيلها كل شىء متعب حتى لوكان حديثاً عن برودة الطقس — ألمحت إلى أن السبب فى ذلك يعود إلى تدفق هذه المسيرات الوطنية للغاية ، ولن يعدم رجالات الاتحاد القومى تفسيراً يقدمونه . . أستاذ هادول اندسوا مع المظاهرة الوطنية . . هادول أستاذ موجودين بكل مكان ، وتقول له أنت : مفهوم سيدى لكان (أى طبعاً) . .

ولكن لماذا لانبحث عن الجوانب المضيئة ؟ لقد كانت فرصة مواتية لنا أن نستبدل بما معنا من ليرات سورية جنيهات مصرية ، وكانت مضاربة رابحة للغاية بالنسبة لنا ، وكانت مناسبة لاتنسى أيضاً . . ذقنا فيها حلاوة القومية العربية التى تنداح فى داخلها الحدود ، فتعود بالخير العميم على كل العرب بما فيهم المصريون ولو كان ذلك على حساب الجنيه المصرى .

الجيتو المصرى :

ماذا نفعل كى نخرج من هذا المدار المغلق والمحكم حولنا فى سلمية . . إلا أن نندمج معا مصريين مع مصريين ؟

وهكذا أحلنا سلمية . . بعد أن فشلنا فى اجتذابها ، وبعد أن فشلنا كذلك فى اقتحامها ، إلى مجرد منتدى نقلنا إليه بضعة من مصر . . واستغرقتنا سهرات السمر والزيارات المتبادلة ودعوات الغداء والعشاء . . ماذا نريد أكثر من ذلك ؟ . .

لكن الأيام تمضى لتذهب ببهجة كل ما كان بهيجاً أوماحاولنا نحن أن نجعله كذلك ، تمضى لتحقق صدق تلك الحكمة القائلة بأن النفس تعطى أفضل مافيها عن بعد ، وأن كثرة الاحتكاك والاندماج تظهر العيوب بقدر ماتعرى النفوس ، وليست القضية كما يقولون هى أينا على صواب ؟ لكن المشكلة أن كل إنسان يرى نفسه على حق ، وينظر إلى الآخرين بمنظاره هو ، وهل كنا سوى غرباء لايعرف بعضنا بعضاً ، بل لانعمل فى إطار مدينة واحدة حتى لوكانت القاهرة ؟ هكذا بدأت عوامل النفور تتسلل إلينا فيتباعد بعض ويتشرذم آخرون ويتقول آخرون على الآخرين . . ويكره بعضنا بعضنا الآخر !

لقد عزلتنا سلمية ، وعندما كانت لنا بالبلدة فى البداية بعض صلات أوكنا نطمع فى تحقيقها ، فإنها كانت تقوم بدور العازل بيننا بعضنا وبعض ، أما عندما تخلت عنا ولفظتنا فإن شدة الاحتكاك بينناقد جعلت مابيننا يتآكل ، بل بدأت شرارات حاولنا جاهدين أن نقلل من خطرها . . تنطلق من هذه الاحتكاكات . . وكم عقدنا من مجالس صلح بين شخص وآخر وبين شرذمة وأخرى ! لكن السبب لم يكن تعنت فريق أوشخص إزاء الطرف الآخر بقدر

ماكان السبب نابعاً من طبائع الأمور والنفوس . .

وكنا نكتم ذلك ، نسير معاً ونعود معاً ونحاول أن نظل نتزاور ، كنا بعيدين فى مساكننا ، لكننى أخالنا الآن كما لو كنا مقيمين ذلك الوقت فى حارة واحدة ، فى جيتو واحد يضمنا جميعاً ، وأعجب ما فى الأمر أن الناس بدءوا ينتقدوننا متهمين إيانا بأننا لانسير إلامع بعضنا البعض ، ولايزور إلابعضنا بعضاً ، وإننا وياللعجب نقاطعهم ! من يقاطع من ؟ ولكن لافائدة حقاً من أى نقاش أوجدال .

وكانت بسلمية كما قلت فى البداية ، مدرسة للزراعة الثانوية يديرها مصرى اسمه الأستاذ فخرى ، وبها نحو ثلاثة من المدرسين المصريين .

وكان الأستاذ فخرى رجلاً كريماً بحق ، وأمضى بالمدينة مدة طويلة تعود إلى ماقبل الوحدة . . وبدأنا نتزاور ، وفى كل مرة ينزل فيها إلى المدينة (فالمدرسة بعيدة بعض الشىء عنا) كان يمر علينا ومعه زملاؤه ونركب جميعا عربته ، وهى عربة المدرسة وسائقها سورى ، وتنطلق إلى هناك حيث الرحابة والخضرة غير اليانعة . .

ومع ذلك . . شيئاً فشيئاً بدأنا جميعاً نحس بشىء غير طبيعى ، إن المدينة ترقبنا معاً فى صمت ، عربة المدرسة لاتضم سوانا وإمكانات المدرسة فى نظر من هم بعيدون عنا تحت تصرفنا ، أليس مديرها مصرياً إلى آخر هذه السلسلة من الأسئلة التى ستفضى إلى نتيجة لامفر منها . . إننا نحن الغرباء نتمتع بخيرات البلد ؟ . . وبدأت زياراتنا تتباعد خشية مايقوله الناس أومانتخيل أنهم قديقولونه :

ياإلهى ! . . أليس من سبيل للإفلات من هذا المدار المغلق ؟ متى ينتهى هذا العام الدراسى ؟ . . وأى قيمة لهذه النقود معنا ؟ . . أى قيمة فى أن يكون الجيب عامراً والروح تختنق ؟

أعياد الوحدة :

تحاملت على نفسى ، وخرجت متأخراً عن الموعد ، فوجدت شوارع البلدة شبه مهجورة ، وحين وصلت إلى الساحة التى بها الأوتيل الوحيد والمقهى العتيد وسراى الحكومة ، كان الزحام ملحوظا . أفسح لى الناس مكاناً ودعونى للجلوس ، لكن مظهر الأمور كان ينبئ بأن الاحتفال قد أوشك أن ينتهى .

كان يذيع الحفل معلم سورى بالمدارس الابتدائية اسمه خضر العلى (ومن عجيب الصدف أننى سمعت نعيه فى إذاعة دمشق منذ سنوات) كان يتحدث عن الوحدة الكلام المعتاد فى هذه المناسبات ، لكن الذى استرعى نظرى حقاً هو إسهابه فى وصف حماس الشبان والشابات وتعبيرهم عن ذلك برقص الدبكة فى حين لم يكن يمارس هذه الرقصة مايبلغ الخمسة عشر شاباً . بل لعل العدد لم يكن يزيد على عشرة ، ومع ذلك فهذه مبالغات مقبولة مسموح بها . . أوقل تعودناها كجزء من طبائع الأمور ، مع أنها ليست من طبائعها على الإطلاق .

وأذكر أن سلطات المدينة قد سمحت بإنشاء إذاعة محلية لاتسمع إلافى المدينة وحدها ، كان القائمون على احتفالات الوحدة يذيعون منها الأغانى والأهازيج والنداءات . . كنت مندهشاً من هذه الهمة التى دبت فجأة ، لكننى لم أعد أمنى النفس بشىء . . كما أننى لم أعد أستبعد شيئاً أوحتى أستنكره ، فقد ألفت كل شىء ، وبدأت آخذ الناس كما هم ، وتعودت من ثم هيك أمور .

وتستحق احتفالات المساء وقفة خاصة . .

مسرحيات مملة :

كنت قد أعددت عدتى وهيأت نفسى لسماع عدد لايحصى من الأغنيات

والأهازيج التى لم أعد أطرب لها بعد كل الذى خبرناه هناك ، وذهبت إلى مقر الحفل فى المدرسة الزراعية مرتدياً كل ما أملك لمواجهة برد سوريا القارص ، ولست بحاجة للقول بأننى ذهبت إلى هناك مرغماً واستجابة لنصيحة علاء :

– ياللا ياأستاذ : شد حيلك . غياب واحد فينا . . حاجة يعنى مش ظريفة . .

جلست بين الجالسين ، أغالب الرطوبة والبرد والأنفلونزا . . والصداع المنتظر ، أعد الدقائق :

ووجدت لدهشتى أن مدرسة ابتدائية تخرج عن كل ماتوقعت ، فبدأت تقدم مساهمتها فى الحفل بطريقة تخالف ما أعددت نفسى لسماعه . .

« وبمناسبة العيد الثالث للوحدة يسر مدرسة كذا أن تقدم هذه المنوعات الغنائية »

وظهر على المسرح تلميذ صغير ، يحيط به كورس من مجموعة فى سنه نفسها ليغنى أغنية من الفولكلور السورى ظللنا مدة طويلة نحلل معنى كلماتها وماتنطوى عليه الأغنية محاولين فهم إخوتنا فى الوطن :

مادام جيت على الحارة

ماتشرفنا بزيارة

ماراح بتكلفنا كتير

فنجان قهوة

سيجارة

فركت عينى وأذنى معاً لأتيقن هذا الذى لايحتاج إلى تأكيد ، وسمعت صيحات الاستحسان والإعجاب ، وكان صوت التلميذ حلواً بالفعل ، وكان من المفروض بالنسبة لى أن أطرب ، فهأنذا أستمع إلى غير ما أعددت له نفسى

من أغنيات ، ولكن دلالة ماحدث أعادت التساؤلات من جديد إلى نفسى بحيث بدت لى عبارات الاستحسان والإعجاب تعنى فى الحقيقة الكثير بعد أن انتقل التلميذ إلى صباح ليغنى . .

يا إمى طل م الطاقة
وعلىّ دل م الطاقة
شلح لى فل م الطاقة
غمز لى وفل م الطاقة
ياإمى أوف
يابيى أوف
يادلى أوف
م الطــاقة

ولم أكد أفيق من الدهشة حتى فاجأنا زميلنا الشويحى بما هو أدهى وأمر . .

لقد حضرت الكثير من عروض المسرح ، وشهدت فى التليفزيون مئات الأعمال المنغصة والتى تجلب النكد الروحى والذهنى معاً .

وفى طفولتى شاهدت عروض التياترو الجوال والأراجوز وصندوق الدنيا . . وأشهد أننى لم أشاهد فى كل ذلك عملاً يفوق ماعرضته مدرستنا فشلاً . . وفى حين تستطيع فى كل ماذكرت من أماكن أن تغادر المكان أوتغلق الجهاز إذا لم تشأ أن تعذب نفسك أكثر من ذلك ، فإنك هنا ملزم بمتابعة مايقدمه فريق مدرستك لألف سبب وسبب أهمها ألايساء الظن بك وبسلوكك . وخاصة أن الذى بدأت تقدمه مدرستنا تمثيلية مأخوذة عن قصة فى سبيل الحرية . .

على أن أول ما أثار دهشتى هو أن أعرف أن لمدرستنا فريق تمثيل وأن الشويحى هو الذى قام على أمره ، فلست أذكر أنه تطرق مرة واحدة أمامنا لذكر

شىء من هذا القبيل ، ما علينا والحديث الشريف ينصح بالكتمان حتى تقضى الحوائج .

ومع ذلك ومهما تكن مبررات التصاقك بالمقعد برغم كل المضجرات ، فالفن فن ، وفرق كبير بين أن تضطر للبقاء وبين أن تتجاوب أنت وعمل فاشل لحد يثير التقزز ، فتبدأ فى الحديث إلى جارك ، وجار جارك يتحدث إلى جاره . وينشغل الناس عما يدور على خشبة المسرح ، ويصرخ الممثلون لكن أحداً لايسمعهم فيقطع زميلنا (الزعيم) كادر الاتحاد القومى ، ومن قبل هيئة التحرير ومن بعده الله أعلم به لكننى أستطيع أن أحدس ، بقطع التمثيل ليطل بشخصه ويمسك بمكبر الصوت قائلاً :

– سكوت . . وأحب أن أسترعى انتباهكم إلى أن مؤلف هذه المسرحية هو جمال عبد الناصر .

وتنتزع تصفيقات من هنا وهناك ، ويسود صمت تسمع خلاله كلمات وتتتابع فيه أحداث لاجاذبية فيها وليست لها القدرة على الإقناع . ويتحدث جار إلى جاره ، وينتشر الهمس هنا وهناك حتى يصبح ضجة فيأتى صوت الشويحى منذراً .

– أذكركم أن مؤلف هذه المسرحية هو الرئيس جمال عبد الناصر .

ويصفق واحد أو اثنان ويسود صمت ويعود الفشل مجسماً على المسرح ، ويتحول الهمس إلى ضجيج لاينقطع على الرغم من أن الشويحى يذكر الفينة بعد الفينة أن مؤلف المسرحية هو الرئيس جمال عبد الناصر نفسه . . لكن كل شىء قد فقد قدرته على التأثير حتى اسم عبد الناصر ، ولست أدرى كيف جاءت النهاية التى تلكأت طويلا طويلا حتى خيل إلينا أنها لن تجىء لولا أن لكل شىء نهاية فى عالمنا الفانى هذا ؟

على أن الذى لايفارقنى مطلقاً هو أن أكثر هؤلاء الطلاب حماساً فى أثناء هذا العمل وفى ساعات الدرس كذلك كانوا أبناء مدرستنا ، وأذكر منهم طالباً اسمه عبد الرحمن الضحاك وكان تلميذاً لى . . كان بالغ العنف فى هتافاته المعادية لعبد الناصر . . ولمصر . . وللوحدة معاً . . عندما حدث الانفصال . .

مطالب أخرى !

إذا كنت قد أبديت دهشتى من مطالبة السوريين لعبد الناصر بأن يسقط المطر أو أن ينزل مائدة من السماء ، فإن هذه الدهشة تهون حقا إلى جانب ماأفضى إلى به زميلى عازر ، وكان من سنى وقامتى نفسها على وجه التقريب أى أننا كنا فى حكم الأولاد الصغار .

لقد وجدت أننا بسننا وشكلنا هذين نعمل ضد الوحدة ، ونثير حساسيات وانتقادات ضد عبد الناصر دون أن تقصد ذلك ودون أن نستطيع حيال الأمر أى شىء .

وقد لايكون الوقت قد فات بعد لأعود إلى جو المدرسة وأوضح أن بعض الذين درست لهم فى السنة الأولى الإعدادية عند بدء عملى كان يبلغ الثامنة عشرة من العمر – إلى جانب صغار السن بالطبع – وحين أصبح على أن أشغل جدولى كله فى المرحلة الثانوية وطلاب الشهادة الإعدادية كنت أدرس بالفعل لمن هم أكبر منى سناً بكثير ، ولم يثر الأمر فى نفسى أى شىء فكم عودتنى سوريا تقبل الكثير من الأمور دون أن أجادل أوحتى أستفهم ! لكننى لم أكن أتصور مطلقاً أن التساؤلات ستأتى من الجانب الآخر .

– دخيلك أستاذ عازر . . كيف تكونوا مدرسين أنت والأستاذ فلان (الذى هوأنا) . . يعنى لاتؤاخذنا أستاذ نزلتم من بطن أمكم ومعكم الإعدادية . .

وضحكت لرواية عازر لكنه قال بجد :

– إنهم لايمزحون . أتدرى ماذا قال لى الطالب بعد ذلك ؟

– ماذا قال ؟

– لقد ذهبوا بالأمر إلى بعيد . . إلى بعيد جداً . . قال لى وقد سمعت ذلك أكثر من مرة :

–كيف أستاذ تحصلون على الجامعة فى سن العشرين والتنتين والعشرين وإحنا هون بندخل الإعدادية وسننا فوق التسعتاشر . . والله سيدى عبد الناصر مو سألان فينا . . عبد الناصر عم بيهتم بمصر أكثر . . هيك .

– وماذا قلت له ؟

– وماذا يمكنك أنت أن تقول ؟

حقا ماذا يستطيع إنسان مهما كان أن يرد على قول كهذا ، مادام الناس يتناسون أن الوحدة لم يتجاوز عمرها بعد ثلاث سنوات وأن . . وأن . . ولكن كيف نستدرج حقاً لمناقشة كهذه ؟

الجمعة الحزينة :

عندما بدأت سحب الشتاء الداكنة الحبلى بالمطر الكاذب تشف وتكشف عن وجه السماء الصافى ، وعندما عادت أشعة الشمس تلامس الأرض ، فكأنها شمس مصر الدافئة جاءت تطمئن على أحوالنا ، وعندما بدأت الصوبا شيئاً يمكن الاستغناء فى الليل عنه . . عندما تراجع البرد ، وبدأ يسود الدفء ذهبت متعة لم نكن ندرى بها إلاعندما افتقدناها . . لقد سحب الشتاء أغطيته الثقيلة عنا ، وفك إسار أقدامنا وأصبح علينا أن نفارق البيت وأن نضجر من الفراش وأن نضرب فى الأرض . . ولكن إلى أين ؟

قال علاء : هيا .

– إلى أين ؟

– سنجلس على المقهى .

سرنا صامتين فالحديث الذى مات بيننا يفتقد أكثر مايحبيه فى الشوارع ، جلسنا على كرسيين متقابلين تفصل بيننا طاولة . . وكانت جلستنا خارج المقهى . . حيث الدغل من الأشجار الذى سبق أن تحدثت عنه .

لكن لماذا هذه الجلسة المنعزلة وقد ذهبنا نلتمس صديقاً أوأنيساً أورفيقاً ، أو أى إنسان نحادثه مجرد الحديث ولو ليقوم اللسان بوظيفته التى خلق من أجلها ؟ كان السبب بسيطاً للغاية هو أن لك كرامة ككل البشر يستحيل عليك أن تهينها أوتتقبل إهانتها لأكثر من ذلك ، لقد دخلنا نبحث عن مكان فوجدنا زميلينا فى المدرسة : عبد الكريم الذى لاأذكر بقية اسمه وإسماعيل الحمود يلعبان النرد مع بعض أبناء المدينة .

– سلام عليكم .

– أهلين أستاذ .

واستمرت رميات النرد ، وانسحبنا ، وشربنا مع الشاى الذى ضجرنا منه مرارة الموقف ، ولم نجد مانقول لأنفسنا حقاً . لكن الجرح كان كبيراً ، وحين هممنا بالانصراف ، ودفعنا الحساب فوجئت أن الزميلين كانا قد غادرا المقهى من باب خلفى حتى لايمرا بنا ، وعدنا مرة أخرى إلى الوحدة المريرة ، والوقت الذى لايريد أن يتزحزح والطعام الذى فقد طعمه .

الموت فى سوريا :

ثلاثة عشر شهراً فى سوريا لم أر خلالها جنازة واحدة ، ولايعنى هذا أن

ملك الموت قد كف عن نشاطه ولكن الذى يعنيه فقط هو أن الموت فى سوريا ليست له قداسة الموت فى مصر أورهبته. وفى حين يحفل المصريون بالموت ويحتفلون به ، وفى حين تظل توحدهم الأحزان بقدر ماتفرقهم المسرات ، فإن السوريين لايلقون للموت القدر نفسه من الاهتمام الذى يلقيه له المصريون .

لكن جنازة واحدة حدثت خلال الوحدة ، كان لها دوى كبير : لقد حدث فى السنة الأخيرة للوحدة أن مات سعيد السراج أخو عبد الحميد السراج رئيس المجلس التنفيذى فى ذلك الوقت .

وكعادة المصريين فى احتفالهم بالموت توجه إلى حماة المرحوم المشير عبد الحكيم عامر وجميع المسئولين فى الإقليم الشمالى ، وكانت جنازة اهتزت لها حماة ، وسوريا كلها ، وأصبح الأمر حديث كل الناس . .

– شو هادا ياأخى سعيد السراج هذا شو بده يكون ؟ هذا رجل عادى خيو . كيف يشيع هذا الشكل ؟ لم يكن السوريون يدركون حقيقة فهم المصريين للموت وحقيقة نظرتهم إليه ، ولم يكن المصريون مستطيعين حتى لو علموا برود السوريين إزاء الموت أن يتخلوا عن عاداتهم . . لكن الأمر قد ولد حساسيات كبيرة فى مدينة أنجبت الكثير من زعامات ورؤساء سوريا . .

وهكذا دخلت مصر طرفاً فى حساسيات قبلية وأسرية وعائلية دون أن تقصد أوتسعى أوتريد . . بل لقد انقضى الأمر ، وبدأت أمور وانتهت أمور ، وذهب أناس وجاء آخرون . . لكن لامصر ولاالسلطات التى كانت قائمة على شئون الوحدة فى ذلك الوقت تدرى أن الأمور فى سوريا بالنسبة لهذا الحدث وبالنسبة لغيره كذلك كانت تسير على هذا النحو .

زوابع وعقارب :

لم يسحب الشتاء بهجة دفء البيت فحسب ، ولاألزمنا ذلك بتحريك سيقاننا فقط ، هذه الحركة المعذبة ، حيث لاتستطيع أقدامك أن تسعى لكثيرين بدأت تضيق بهم ويضيقون بك ، وأكثر بعداً عنك عما كنت تظن ولو كانوا مصريين مثلك . . بل لقد تنحى الشتاء ليسوق إليك تباشير صيف قائظ ، مهدت له الطريق زوابع بالغة الشدة ، لدرجة توقفك بالفعل فى أثناء سيرك . فيكون عليك أن تسير بجنبك حتى تستطيع اختراق الرياح ، التى بدأت بعد مدة تنتقم لنفسها لتغلبك عليها ، فأخذت تصفع الوجوه والجباه بحصى بازلتى ناعم يجعل الرؤية مستحيلة والسير مهمة عسيرة . . كأن الريح جاءت تقتلعنا اقتلاعاً !

بدأت تباشير الصيف أوبدأت نذره التى يهون إلى جانبها كل صقيع سوريا وثلوجها .

وعلى مشارف سلمية قرية اسمها عقارب ، تذكرت أننى عندما تصفحت كتاباً مدرسيا عن جغرافية سوريا ماقيل عنها : إنها سميت عقارب لكثرة مابها هى وقرية صبورة المجاورة لها من عقارب ، وفرق كبير بين المعلومة تحفظها فى الذاكرة وبين أن تعيشها وتتلظى بنارها يا ألطاف الله ، عقارب دفعة واحدة .

– شوف أستاذ (يقول الشيخ فهيم الذى سكنا عنده) لاتخاف. دربالك على ، مافى حدن هون إلا لدغته عقرب ، بتلسع أستاذ معلوم، فيه دوا فى الصيدلية ، لكن ممكن أستاذ تترك سمها بجسمك وتتحمل ٤٨ ساعة بيروح الألم وتكتسب مناعة .

– هى العقارب كثيرة ؟

– أف أستاذ مثل ماقلت لك .

– والعمل يعطيك العافية ؟

سأل علاء ، وقال الرجل وهو يعانى من الحيرة .

– مافى عمل ؟ شوبدك تعمل أستاذ علاء . . واستطرد ، لازم عم بتمزح أستاذ علاء . . فاهمان عليك والله .

الأمر بالغ الوضوح . هناك عقارب يعنى عقارب . . والأوضح من ذلك أن علينا ألانبدى هلعنا من ذلك . وسؤال علاء لم يحمل إلاعلى محمل المزاح فلا يتصور مطلقاً أن مصرياً يخشى العقارب ، لكنها فى الحقيقة عقارب صغيرة لايحمل سمها الموت الزؤام كما تفعل العقارب فى مصر . .

لكن للمصريين فكرتهم الثابتة عن العقرب فيهلعون من مجرد سيرتها . .

وكان أكثرنا هلعاً الأستاذ عامر : واتخذ الرجل جميع الاحتياطات التى تجعله يفلت من العقرب : باعد سريره عن الحائط ، عنى بإبعاد كل الكراكيب عن الحجرة التى ينام بها ، لايرتدى قميصاً أوشراباً إلابعد أن ينفضه عدة مرات ، الحذاء يفرغ الهواء الذى به يهزه مرة بعد مرة خشية أن تكون قد « لبدت » به عقربة !

لكن شر البلية مايضحك حقاً . . « واللى يخاف من العفريت يطلع له » فقد كان الوحيد من دوننا جميعاً الذى لسعته العقرب : كان ينفض بنطلونه قبل ارتدائه فإذا بها كامنة فى كمر البنطلون وفوجئ بلهيب اللسعة فوق قاعدة إبهامه ، ووجد نفسه يجرى فى الشارع بالسروال والقميص يهذى وخلفه زوجه وابنتاه .

العقرب . . العقرب . . لسعتنى العقرب .

والتم الناس وهرع الشويحى وسار به إلى الدكتور نايف عجوب ، وكان رجلاً

دمث الخلق بالنحو اللائق بالطبيب حقاً ، وهدأ الرجل من روعه ، وسرعان ماعالجه وشفاه .

– بسيطة أستاذ مافى شىء خيو . .

لكنها لم تكن بسيطة عند الناس . . شو هذا الأستاذ عامر أخى ، كيف بده يصرخ كالمجنون من عقرب ؟

ويقول لنا أبو معن .

– والله شىء عجيب أستاذ . الناس ، عم تندهش كيف أن مصرى يبكى هيك من عقربة . . هذا فرعون ، كيف أنه يبكى هيك مثل الأطفال ؟ .

حقاً إنك كمصرى لايحق لك أن تألم كما يألم الناس ، وإلا فكيف يناط بك استرداد الإسكندرونة وتحطيم الاستعمار وإلقاء إسرائيل فى البحر حتى إن كنت مدرس موسيقى مرهف الأعصاب ، فكرتك الراسخة أن العقرب هى الموت ذاته ؟

ولكن خيو شوها الحكى ؟ لاتنبس بكلمة وتعود أن تجاريهم وتهز رأسك مثلى كما بدأت أفعل .

هيك ! منيح ، معلوم أستاذ . .

زمان من رمل :

منذ السابع عشر من نيسان (أبريل) وهو عيد الجلاء عن الإقليم السورى تتوقف الدراسة بشكل تام ويستعد الطلاب للفحص ، ويكون علينا أن نلزم بيوتنا ، وفى الظروف العادية يسعد المدرس – أى مدرس – أيما سعادة بأن ينزاح عن صدره هم التصحيح والتحضير والشرح ، ويضاف بالنسبة لنا الأسئلة المستفزة لكننا – هناك – كنا فى حالة مغايرة لذلك بالمرة . .

لقد كنا من قبل نضيق بيوم العطلة الأسبوعية ، فأصبحت أيامنا كلها عطلات ، وببساطة شديدة توقف « الحدث » من حياتنا ، ساد السكون المطبق ، إذا مااستثنينا الزيارات الروتينية التى تزيدك ضجراً على ضجر ، وأصبح علينا أن نواجه الزمن أى الوقت مواجهة مباشرة ، نفعل عند اليقظة فى الصباح مانفعل ، نتثاءب ونتكاسل ، ونقتنص المزيد من النوم ، لكن حرارة الفراش تطردنا طرداً فإذا بالساعة تحوم حول الثامنة ويتحالف علينا الوقت والحر الخانق والخوف من العقارب بالإضافة إلى الذباب الجبلى الكبير الحجم الثقيل الوقع ، اللاسع اللمس .

فى أيام كثيرة ، هنا فى مصر ، قبل هذه التجربة وبعدها حتى الآن أحس أحياناً أن الزمن وهم كبير ، أفاجأ أننا فى يوم الأربعاء مثلاً ، وقد كنا أمس - كما يخيل لى فى يوم السبت - وكم سألت نفسى أسئلة أرجو أن يمر عليها الأطباء النفسيون مر الكرام عما يثبت لى أن اليوم هو يوم الاثنين مثلا ! وكم من مرة عرفت التاريخ بل اليوم نفسه من الصحف !

ما الزمن ؟ سؤال شغلنى على الدوام : ما الماضى وما الحاضر وما المستقبل ؟ وفى كل أبعاد الزمن هذه يظل الحاضر نفسه ، الآن هو اللغز ، هل هناك « آن » يمكن أن نمسك به أوهو لحظة زئبقية تتحرك دوماً إلى الخلف لتمضى ، وتتراكم ؛ لتكون ماضياً ؟ إن الأحداث تتلاحق راكبة قطار الزمن ، بل إن الزمن هو الذى يركب الأحداث وحين تتوقف الأحداث يتلكأ الزمن ، وتصبح الآن عبئاً رازحاً لايود أن يتزحزح ، وليست نقطة تقفز دوماً إلى الوراء .

هكذا كان الزمن فى سوريا بالنسبة لنا : نستيقظ فإذا بنهار كامل ، طويل ، ينتظرنا فوق رءوسنا . وتذكرت ساعات الماضى ، ووقفت عند ساعات الرمل . حيث يقاس الوقت بإناء من الرمل تتسرب ذراته ذرة ذرة ، وحين يفرغ الإناء

تكون ساعة من الزمن قد مضت . يالها من صورة صادقة ليومنا ! كان يومنا جبلاً من الرمل ، تتسرب ذرات منه بطيئة بطيئة ، وبعد جهد جهيد تحس أن الجبل قد نقص سنتيمتراً واحداً .

ليس الوقت ذرات رمال ولكنه صخر وحجر ، وفى كل صباح نسارع بمد أيدينا تنتزع فى شماتة ورقة اليوم السابق الذى غار ومضى ، وفى أحيان كثيرة نجد أنفسنا قد انتزعناها منذ الأمس ، فننتزع ورقة اليوم ، نمنى النفس أنه قد مضى وهو لما يبدأ بعد . وهو جبل من الرمل الثقيل لاتلوح له نهاية !

نضيق بالحجرة فنجلس فى باحة البيت ، يحاصرنا الحر والشمس – فباحات البيوت مكشوفة – فنتلمس الظل ، ولاظل إلافى الحجرة ، وهى اليوم سجن كئيب نلتمس السلوى فى الشارع لكن الشمس أكثر لهيباً وكل الأبواب موصدة فى وجهك ، ولاحديث لك إلامع الباعة لشراء القوت والضرورات ، وتصبح لغتك فقط هى أسماء أطعمة وملبوسات ، المقهى تجربة مرة ، تزيد مرارتها مع كل تجربة . وزملاؤك المصريون يكشفون كما تكشف كل نفس تقترب منها عن أسوأ ما فيهم ، ورأيهم فيك لابد أن يكون مماثلاً لرأيك فيهم ، فكلنا ضجرون وضجرنا ينعكس على القريبين منا .

وحيد أنت مع الناس ، وشقى أنت مع نفسك ، وعلاء يصرخ مناشداً إياى أن أشاركه فى أى شىء مما ينسى الناس ، مما يخمد اليقظة المعذبة والعقل الذى شقى به بنو الإنسان ، وسوء الفهم يسيطر ، وتسود حساسية شديدة . . ونجد أنفسنا متخاصمين ، لايحادث أحدنا الآخر . ونزيد شقاء . . من منا ينزل ويبدأ أخاه بالحديث ؟ وما الذى أدى إلى هذه النهاية ؟ أمور لو ناقشتها تكسبها معنى ، فهى فى الحقيقة لا معنى لها . . وهكذا يتحول اللاشىء إلى شىء ! .
لكن الحظ يسعدك بمرور الأستاذ فخرى وزميليه بعربة المدرسة الزراعية ،

فيسارع خطو الزمن ، وتوغل الشمس بعيداً جهة الغروب . .

لكن اليوم التالى ينتظرك بهمة . جبلاً كاملاً من الرمل ، تتكدس إلى جانبه جبال أخرى بعدد الأيام التى علينا أن نقضيها حتى ينتهى العام ونعود إلى مصر ، وياله من حلم يكاد يبدو الآن مستحيلاً !

مولد . . فى حماة :

شاء العام الدراسى ألاينتهى إلا « بكشف » أوضح دون جلاء الحساسيات الغريبة بين سلمية والعاصمة التى هى تابعة لها . . حماة . وإذا كانت هذه الحساسيات قد بانت بشكل بالغ الجهامة خلال الفحص – أى الامتحان – حين كان الأهالى يخشون على أولادهم الأساتذة من أبناء حماة ، وبخاصة حين جاء لتنظيم فحص الشهادة الإعدادية الأستاذ محمود الزعيم وهو من حماة والذى حول المدرسة بحق إلى مايشبه الثكنة العسكرية ، ولقد كانت خشيتهم من الحمويين على مصير أبنائهم أكبر بكثير من خشيتهم عليهم منا نحن المصريين – إذا كان ذلك كذلك فلقد جاء هذا الكشف كأمر يكشف عن هذه الحساسيات بشكل طريف : لقد تفجر نبع أوعدة ينابيع للمياه المعدنية على مشارف حماه . فى منطقة الحضر – لاأدرى ماسر هذا الاسم – مع أن سكان هذه المنطقة أقرب إلى البدو منهم إلى أبناء المدن ! كما أننى لم أجد فى مدينة أبى الفداء واحداً يفسر لى لماذا تسمى هذه المنطقة بالحضر فى حين تسمى المدينة نفسها بالسوق ؟

أما الحمويون فقد سعدوا أيما سعادة بالخير الذى أصاب مدينتهم وهم بالإضافة إلى فخرهم بل تعصبهم بمعنى التعصب لمدينتهم – كما يفعل أبناء كل مدينة سورية فإنهم يدركون أن حماة التى أنجبت معظم حكام سوريا لاتتمتع بأية ميزة صناعية أو سياحية من أى نوع ماعدا ناعوراتها التى حازت شهرة إعلامية

« وحدوية » غريبة مع أنها لاتزيد فى كثير عن ساقيتين من سواقينا المنتشرة بعشرات الألوف على ترع وجداول كل وادى النيل !

ولقد ذكرتنى الضجة التى أحدثها هذا الكشف ضجةً مماثلة حدثت فى قريتنا عندما كنت طفلاً لم أتجاوز السابعة ، حين تم العثور على ضريح وجثمان أحد الأولياء واسمه الخواص ، وقيل : إن الذين عثروا عليه وجدوا جسده ندياً . كما وجدوا معه دمه – وقد كان شهيداً – لايزال حارًا حتى إنه أحدث بقعاً مباركة على ملابس من نقلوه إلى ضريحه الجديد . وبقدر ماذاع صيت هذا الشيخ وذاعت معه عشرات القصص عن كراماته ومعجزاته بدأ يذيع صيت ينابيع حماة وصيت مفعولها الذى يفوق كل معجزة فهناك أناس مرضى بأمراض استعصت على أمهر الأطباء منذ سنوات قد شفيت بعد جرعة أوجرعتين ، وهناك حصى فى الكلى قد تفتت ونزل مع البول ، وهناك شيوخ استردوا عافيتهم ، وهناك وهناك ، لكنك تسمع من يتحدث فى مديرية البريد وأنت ترسل مكاتيبك من يحكى :

– سمعت شو عم بيحكو عن مياه حماه خيو ؟

– شو بيحكو سيدى ؟

– ياسيدى عم بيقولوا : إن واحداً كان بيشكى مابدرى كيف من حلقه ، وبعد ماشرب هاالزلمة مرتين من المياه إياها . . مابيلتف إلا يشوف كيف أن سرطان قد هيك نازل من تمه (فمه) ويضحكون .

والحكاية هنا تصور الحمويين بالغى الحمق والجهل حتى إنهم يتصورون مرض السرطان على هذه الصورة .

– عمى . . شوها الحكى . لكن عرفتم شو أثرها المياه . . أثرها الحقيقى . .

– ثم يهمسون : ها المياه ضارة بالرجال خيو .

ويضحكون ضحكة مفهومة .

وأسأل الزميل (سعيد الكيلانى) فيحكى القصة بشكل لايخرج عن فحوى ماقيل فى مديرية البريد وإن كان بشكل أقرب إلى العقل : فهو يتحدث عن ذهاب الورم الخبيث مع القدر المناسب من التحوطات .

مثل : هيك بيحكوا . لكنه يندفع فى الحكى متحمساً ، فيفيض بالحديث عن فوائد المياه . ثم يقول لك بصراحة فى النهاية .

– خيو . . الله بده يعطى شىء لحماه بتعرف كيف حالها اليوم ؟ كل العربات أستاذ على طريق حلب الشام عم بتتوقف هنيك ! وبها الطريقة البلد تنتعش أستاذ .

وحين أنقل له ماسمعت من همس له مغزاه :

– أستاذ : هادول أهل سلمية ، مابيحبوا خير لحماة ، شو بدى أحكى لك . . عمى .

وأهز رأسى موافقاً ، قائلاً لنفسى ماشأنى أنا بذلك . لكننى حين ذهبت إلى هناك بعد أن انتهى الفحص لكى نصحح الأوراق . وجدت مولداً شبيهاً بمولد قريتنا مع اختلاف طفيف للغاية ، بحيث لا يشكل أى عائق يحول دون اندماج الشعبين الشقيقين فى دولة الوحدة .

المصريون . . فى مصر !

دعانى صديقى وبلدياتى أحمد . . لمصاحبته حيث يقوم هو وبعض العاملين فى الوزارة التى يعمل بها برحلة نهرية إلى القناطر ، قضينا يوماً ممتعاً ، أجبت فيه على عشرات الأسئلة عن سوريا ، إذ كان كل من يعرف أننى أعمل هناك ينظر إلى كما لو كنت قادماً من المريخ ثم يسألنى :

– والحال هناك إيه . . بيحبونا ؟

وأدركت أن ما أحكيه عن سوريا أمر جديد عليهم يبعث على القلق والدهشة معا ، فيخفى محدثك قلقه ويقول لك :

– لكن يعنى . . مش بيحبونا ؟

ولم أستبعد أنه يكذبنى فيما أحكى ، ولم أكن أفعل ذلك إلاندفاع من الصدق وحده ، لكننى خشيت ألايكون الصدق منجياً فابتعدت عن هذا الصدق إلى صدق آخر ، وحدثتهم عن التفاح السورى .

– وبتاكل تفاح كل يوم ؟ وبكام الكيلو ؟

– لكن بيقولوا الأسعار غالية ؟

– أمال ياخويا إحنا مالنا ؟

وأشعر بمحدثى يغمز الواحد منهم للآخر فينصرفون ، لست أكذب ولاأفشر ، وأدركت أنهم يخافون أن يسمعوا ماأقول ، لقد أدركوا أن ثمة خطورة فيما أقول . خطورة لأنها توضح لهم حقيقة ماهم فيه ومايعيش فيه غيرهم . إخوانهم فى الوطن الذى لم يروه ، والذى يساهم وطنهم الذى يعيشون فى كنفه فى دعم ميزانيته لأنه فقير ، ولأن إدراكهم لذلك قد يدفعهم لمقارنة أولكلمة لاتحمد عقباها ، حتى لوكانت همساً . . فآثروا الابتعاد . . وربما وجدوا من الأفضل أن يتهمونى بالكذب ، حتى يريحوا أنفسهم ، فأمسك عن الحديث فى ذلك ، ومن خاف سلم ، وأحدثهم عن جمال السوريات ، وجمال بنات حماة حين يلبسن الخمار فوق وجوههن وتلمع عيون السامعين ببريق الرغبة .

– ماتتجوز لك واحدة سورية .

– يعنى .

– بيقولوا المهر غالى هناك .

– صحيح . .
– ومهر البنت كام . .
وأقول ضاحكا :
– الإسكندرونة !
وتمضى النكتة ودون أن يفهمها أحد ممن لم يذهبو إلى هناك ، لكنهم عندما حان موعد عودتنا فهموا الكثير ، وعلى غير انتظار . فقد توجهنا بعد أن تجمعنا لنستقل الأتوبيس النهرى الذى جئنا فيه ، فوجدنا سائق الأتوبيس مشتبكا فى نقاش ساخن مع طلبة لم أخطئ على الفور لهجتهم .
شو القضية خيو .
القضية سيدى أن هؤلاء الطلاب الوافدين ممن لم يعودوا بعد إلى بلادهم جاءوا مثلنا يقضون يوماً فى القناطر ، لكن الأتوبيس النهرى الذى جاء بهم أصابه عطل ما ، فلماذا ينتظرون حتى يصلح هذا العطل أوحتى تستدعى الشركة التى جاءت بهم أتوبيساً آخر أوتدبر وسيلة أخرى ؟ لماذا لايستولون على أى أتوبيس يعودون به . . ولينتظر الآخرون ؟
كان الموقف بالغ الغرابة حقاً ، وحاول أكثر من واحد أن يتفاهم هو والشاب الذى تزعم هذه المظاهرة الوافدة – نسبة إلى الطلبة الوافدين – بكل ماأوتى المصرى من ذوق ورقة ، لكن الشاب كان مصمماً فى عزم يليق بكل أولى العزم . ولما نفد صبر المصريين ، وهو صبر يؤدى إلى الضجر فى معظم الأحيان ، ويفهم على أنه ضعف فى معظم الأحيان تجرَّأ موظف مصرى على القول :
– طب مش هاتاخدوا الأتوبيس وإن كنت راجل تعال .
وتقدم الشاب ولم يخف وإنما هدد :

– إن كنت راجل أنت انتظر ، باستدعى حالاً رياسة الجمهورية .

وساد صمت غريب ، وتراجع الناس إلى الخلف ، وشعرت بحزن بالغ المرارة ، وعلى غير انتظار جاء الحل المصرى المعتاد . لقد انتهز سائقنا الفرصة واستدار بالأتوبيس ليرسو على مسافة بعيدة وبعث إلينا من يهمس باللحاق به . وتدافع الناس سعداء – ويالها من سعادة بهذا الحل ! . وكم هنئوا أنفسهم على فوزهم ، وعلى قدرتهم على الخروج من المآزق . .

ولم أحزن قدر ماحزنت ليلتها ، ليس فقط على تجاسر هؤلاء علينا دون مبرر ، إلامعرفتهم العميقة حقاً بقدر المصرى فى بلده ، وعند سلطات بلده ، بقدر ماحزنت على تخاذلنا ، وخداعنا لأنفسنا وغربتنا فى بلدنا . .

العالم من حولنا :

لعل أبرز ماحدث هذا الصيف بلامنازع هو إعلان عبد الناصر المفاجئ لما سمى بالقوانين الاشتراكية حيث تم تأميم الشركات والمؤسسات والمنشآت . وكان أبرز ماتم تأميمه فى سوريا هو الشركة الخماسية ، وقبل ذلك كانت سوريا – اقتداءبمصر ، وربما عن غير ضرورة – قد طبقت قوانين الإصلاح الزراعى .

لكن هناك أحداثاً أخرى لها أهميتها فى سير الأحداث من بينها الانقلاب العسكرى الذى حدث فى تركيا بقيادة جمال جورسيل الذى أصبح رئيساً للجمهورية هناك بعد إعدام عدنان مندريس وجلال بايار ، كما كان العراق بقيادة عبد الكريم قاسم قد أعلن عن عزمه على ضم إمارة الكويت إليه باعتبارها لواء عراقيًّا . مما أدى إلى استنجاد الكويت بالقوات البريطانية ، ثم إبدال هذه القوات بقوات من الجامعة العربية ، وإن كان الذى يعنينا هناك أكثر من ذلك هو الصلح الذى تم بين الملك حسين وعبد الناصر ، فقدحدث أن انتهز صاحب

الجلالة الهاشمى فرصة شهر رمضان وأرسل للرئيس الراحل رسالة شهيرة يطلب فيها فتح صفحة جديدة فى العلاقات بين البلدين ، ورحب عبد الناصر مؤكداً أنه يسير مع كل نظام عربى إلى المدى الذى يطيقه هذا النظام ، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد يشار إلى عدنان المدنى الطيار السورى الذى أسقطت طائرته على الحدود الأردنية باسم الشهيد ، بل تنوسى كلية ، ووجب عليه أن يدفع اسمه ثمناً للصداقة الخطرة التى قامت بين حسين وعبد الناصر ، كما دفع من قبل حياته ثمنا للعداوة بينهما .

وكان الملك محمد الخامس قد توفى ، وتولى عرش المغرب الملك الحسن ، ولم تكن علاقته بالرئيس الراحل على درجة علاقة والده به نفسها ، وكانت ثورة الجزائر توشك أن تحرز النصر بعد أن بدأ الحديث عن صلح الأبطال ، الأمر الذى سبق مباحثات إيفيان التى انتهت بعد ذلك عام ١٩٦٢ باستقلال الجزائر ، وظلت علاقات مصر بالسعودية بالغة السوء ، وفى حين تدعمت علاقة عبد الناصر بالزعامات الشابة الجديدة فى أفريقيا مثل سيكوتورى ونكروما ، ظلت علاقته بحكومة السودان شبه راكدة .

وكان سؤال غريب يؤرقنى طيلة هذا الصيف ومنذ إعلان قرارات يوليو الاشتراكية : ترى ماذا يقول السوريون الآن ؟ وهل يتحمل تجار سوريا هذه القرارات ؟ وكيف سيكون الموقف عندما نعود ؟

وحين قاربت الإجازة الصيفية على الانتهاء صدرت قرارات كثيرة لدعم الوحدة : فألفت وزارة جديدة ، أصبح فيها سيد يوسف وزير التربية العتيد وزيرا مركزيا للتربية ، واتخذت الاستعدادات لصدور الدستور الدائم لدولة الوحدة ، وتقرر أن يجتمع مجلس الأمة فترة فى العام فى القاهرة وفترة فى

دمشق ، كما أصبحت دمشق عاصمة لدولة الوحدة لمدة خمسة أشهر فى العام .

وهكذا بدا أن عبد الناصر بسبيله لكى يحكم قبضته حول سوريا ، إما تحسباً من أمور لم تكن تغيب عنه ، وإما مضيًّا إلى درجة أبعد مما حدث حتى الآن فى سبيل تحقيق اندماج أكبر بين إقليمى دولة الوحدة . .

الفصل الرابع

الماء الجاف

هدوء ماقبل العاصفة :

حين عدت إلى سلمية علمت أننى نقلت إلى حماة كى أعمل بمدرسة عثمان الحورانى الثانوية ، ودعت الأسرة التى أقمت عندها ، وكان وداعاً حارًّا فى الحقيقة ، واتخذت طريقى إلى حماة كنت فى انتظار التاكسى الذى سيقلنى مع غيرى ، حين سمعت اثنين عرفت من حديثهما أنهما مدرسان سوريان قال أحدهما :

– والله ياأخى كان عندنا شواغر كثيرة لكن الإخوة المصريين (قالها بنغمة موحية) جو . . وشغلوها .

وصحت فجأة وانتقل الحديث إلى موضوعات أخرى ، واحسست كأنما رأيت إصبع التحذير التى أشار بها زميله إلى وجزعت أن أكون شخصا يحذر الناس منه ، لكن ماحيلتى فى موقف كهذا ؟

وفى حماة عثرت على حجرة فى كنف إحدى الأسر المسيحية هناك ، وكانت للصدفة العجيبة هى الأسرة التى صاهرها زميلنا الشامى ميخائيل أو أبو عمران

كما كان يحب أن نناديه ، وكان عليّ أن أمضى بضعة أيام فى أحد الأوتيلات حتى يتم تجهيز الحجرة أو إخلاؤها لاأدرى ، فأقمت فى أوتيل مجاور للسينما يطل على المنتدى الذى كنا نجلس فيه عند ذهابنا إلى حماة .

توجهت إلى المدرسة ووجدت معى زميلاً مصرياً اسمه يوسف كان مدرساً للعلوم ، وكان زميلاً لنا بسلمية ، وصمتى عنه طيلة هذه المدة أمر يتطابق تماما وحال يوسف . فقد كان منطوياً للغاية ، بعيداً عن كل أمر ، وهو واحد ممن يغرونك إغراء على نسيانهم أوحتى تناسيهم ، وربما سارع هو من ناحيته بعتابك لو أنك تذكرته ، وهو إلى جانب ذلك بالغ الطيبة ، لكنها طيبة تختلط بمكر ساذج ، وحين يضحك نحس أن الدنيا خالية من أى هم ومن كل مايكدر البال .كان قد سبقنى إلى حماة وسكن بالفعل بالقرب من المدرسة .

مبنى المدرسة الخارجى معظمه من الزجاج ، وهى أكثر انضباطاً من مدرسة سلمية بكثير ؛ كما أن الإشراف عليها أدق وأقرب إلى الحزم ، أما المفاجأة حقاً فهى أن زميلى فى تدريس اللغة الفرنسية كان هو نفسه فؤاد الأسود ، نائب رئيس الجمهورية السورية السابق ، أيام حكم أديب الشيشيكلى ، وأغرب مافى الأمر أنه ثرى ويمتلك ضيعة فى ضواحى حماة ، وهو لايعمل مدرساً داخل الملاك أى داخل الكادر ، لكنه من فئة خارج الملاك أى أنه يأخذ أجراً عن عدد الدروس التى يقوم بتدريسها ، إن لدى الرجل وقت فراغ ، فما المانع من أن يعمل مدرساً ؟ هيك . وهكذا كدت أن أرأس نائب رئيس جمهورية سابقاً . لولا أن العواصف سرعان ماهبت بدواماتها حتى من قبل أن أرى مرءوسى العظيم هذا .

غداة استقالة السراج :

عدت إلى الأوتيل مرهقاً ، وحين انتهى الإرهاق وشقيت بجمود الوقت والوحدة ، نزلت إلى المدينة وفوجئت بما رأيت ، كأنما حماة قد قذفت بكل رجالها إلى الشوارع ، رجالها وشبابها وربما أطفالها ، الشوارع كتل متراصة من الناس تهمس وتلغط ؛ لولا قنوات الفراغ التي تقسم الناس إلى كتل لظننتها مظاهرة . شعرت بقلق وتوجس ماذا حدث ؟ . . ولم أسأل بالطبع أحداً وتركت الكلمات المتواترة الهامسة والغاضبة معاً تنبئني ، لقد استقال عبد الحميد السراج رئيس المجلس التنفيذى السورى .

– والله حماة ياسيدى مالها حظ . .

– عمى ! كان إلها أربعة رجال فى الحكم واليوم ماصار إلها ولاواحد .

– والله ياأخى مابيصبر . .

أسمع وأمضى ، أخشى أن يظن أنني أتسمع فأسرع الخطو ، ماذا لو أمسك بى أحدهم وسألني ماذا تفعل هنا ؟ لماذا تمشى بجانبنا ؟ أنت مصرى غريب مادخلك بنا ؟ وأتغلب على هواجسى ، ويتغلب الفضول فىّ على الخوف وعلى الحذر فأتلكأ وأسمع الكلمات نفسها والمعانى نفسها ، مسكينة حماة لم يعد لها فى دست الحكم أحد ، ذهب الحورانى والآن ذهب السراج ، والعربة التى رفعت على أكتافهم منذ عام بعبد الناصر وصحبه . . من رفعها ؟ وإذا كنا رفعناها أفيكون هذا هو الجزاء ؟ والغضب الشديد . لو أن أحدا صرخ ، هتف بما يعتمل فى كل الصدور لتحول الشارع إلى كتلة واحدة ، إلى كتلة هوجاء من غضب وثورة ، لكن أحداً لم يصرخ وأنا وحدى وسط قنوات الفراغ الفاصل بين الكتل المتراصة إخالنى اليوم رسول أهل الكهف إلى أهل المدينة ، يسير مترقباً ، خائفاً

ماذا يدور ؟ وماذا ينوى هؤلاء أن يفعلوا ؟ ولماذا حقًّا استقال السراج الرجل الذى اكتشف عشرات المؤامرات الإمبريالية ، الرجل الذى رفض التواطؤ مع الملك سعود ضد عبد الناصر ، ورفض مع المؤامرة مليونى جنيه ؟ ما هذا الذى يحدث ؟ إلى أين تمضى الأحداث ؟ لوكنت أملك أن أذهب إلى سلمية لأحادث الشويحى أوعلاء أوحتى عامر . . أوأى إنسان ، ووجدت أن أسلم طريقة أن أنسحب من بين الحشود ، وأن أعود إلى حجرتى أتدبر الأمر فى هدوء وماذا بيدى حقًّا أن أفعل ؟

هنا دمشق :

فى الصباح قمت من نومى متأخراً لم أذق النوم إلا قرب الفجر ولست أدرى كيف جاءنى النوم ؟ ارتديت ملابسى على وجه السرعة .. فلابد أن أكون بالمدرسة قبل الثامنة ، فعلى اليوم أن أدرس الساعة الأولى ، وهذا أول يوم أدرسه ، فقبل ذلك لم يكن جدولى قد أعد ، أقسم اليوم أننى سمعت ساعتها وسط الصمت الشديد بالأوتيل وكنت أقيم بالطابق الثانى منه ، كلمات بالغة الوضوح بما حدث ، لكننى لم أستوعبها ، كنت مهموما بملابسى وبخشية تأخرى .. نزلت مسرعاً ففوجئ بى صبى الأوتيل ، قلت محييا :

– خاطركم

– خاطركم أستاذ

ونادى بعد أن تمالك نفسه :

– أستاذ .

التفت إليه

– بدك الحجرة ؟

لم أفهم ما يقصد سألته ماذا يريد ؟ قال وقد وجد أنْ لا ضرورة تدعوه للإفصاح :

– يعنى بدك تعود اليوم

تصورت أنه يقصد أنى ارتبطت بمسكن فى المدينة أقيم فيه ، وأنه يعرف أنه الآن معد (مع أن تصورى هذا خاطئ بالطبع فن أين له أن يعلم حقًّا بذلك ؟ لكن هذا ما ذهب إليه تفكيرى) .

جعلتنى دهشتى واضطرابى أخلط اللهجة السورية بالمصرية فلم تسعفنى إحداهما

– لكان ! السكن تبعى لسّه .. مش جاهز

– يعنى خيو .. ها الليلة نحسبها عليك

قلت نافد الصبر :

– طول ما الشنط فى الحجرة .. الحجرة محسوبة على

– هيك سيدى يعطيك العافية

أسعدنى الحظ بمجيء الباص . ركبت .. كان شبه خال إلا من عدد لايزيد على عشرة من طلاب المدرسة . وجدت الأنظار تتجه إلى ، أمر اعتدته « هذا أستاذ مصرى » لكن النظرات استمرت وموسيقى عسكرية تنبعث من راديو الباص .

هنا دمشق

وعادت المارشات العسكرية ماذا حدث ! النظرات تلاحقنى فألقيت ببصرى من النافذة

أيها الإخوة إن الحركة التى قام بها جيشكم المظفر تنطلق من الإيمان بالوحدة العربية .. إننا لانرمى إلا إلى تصحيح الأوضاع آه ! إذن فقد حدث ما كنت

أخشاه ، وتمرد الجيش السورى وبعد ؟ لزمت الصمت التام وكلمات الراديو تؤكد لكل من يكذب حتى الآن نفسه أن ماحدث حقيقة ، ليكن. لا مفر إلا أن تمالك نفسك ، وكثر التلفت نحوى ، وتصنعت أننى لا أفهم شيئاً مما يدور . عند محطة المدرسة نزلوا ونزلت ، سرت بجانبهم وهم يتهامسون ، طرقت باب يوسف فطلب إلى الصبر لأن الدنيا لسه ماطارتش والوقت بدرى .. ألححت أن يفتح فى الحال فلقينى بابتسامة طيبة ، يشوبها بعض القلق :

– شوصار

مددت يدى إلى الراديو وأدرت أزراره ، وانطلقت المارشات العسكرية .

– إيه اللى حصل ؟

– انقلاب

– مش معقول

– طب اسمع

توقفت الموسيقى العسكرية هنا دمشق . أيها الإخوة فى سوريا الحبيبة ، إن جيشكم يقوم اليوم بحركة لايبغى من ورائهاإلا تصحيح الأوضاع لقد أرسلنا إلى سلطات الوحدة فى القاهرة بمطالبنا

– صدقت ؟

– والعمل ؟

– نذهب إلى المدرسة

– وندرس فى هذه الظروف ؟

– وهل تريد أن يقال : إننا امتنعنا عن العمل ؟ فليمنعونا هم إذا أرادوا .

– أمرك تشرب شاى ؟

– يا أخى يلـلا دا وقته ؟

وأطرق :

– صحيح ، داوقته ! على رأيك !

وذهبنا معا وكان لغط الطلاب من حولنا شديد الوضوح .

حصة لا أنساها :

لم أكن فى حياتى بالتدريس مدققاً قط ،لقد بدأت حياتى العملية صغير السن ، وقدر على كثيراً أن أدرس:لمن هم أكبر منى سناً ، لذلك لم أكن أعير شكليات العلاقة بين المدرسين والطلبة أهمية كبيرة ، ولقد سيطر على كثيراً السؤال الذى سألنى إياه نفسه طلابنا السوريون : لماذا ينهض الطالب عند دخول أستاذه ؟

ولم أكن من جانبى أصر على ذلك إلا إذا أدركت ، وأحسست أنهم – أى الطلاب – يفعلون ذلك لدافع لا أتقبله .

ومع ذلك فقد كنت بالغ التدقيق فى هذه الحصة . لقد أبلغت أن علينا أن نقوم بواجبنا كأى يوم آخر إلى أن تتلقى المدرسة تعليمات محددة ، لكن الذى جعل مهمتى أكثر صعوبة هو أننى لم أكن قد درست لهذا الفصل من قبل ، هكذا قدر على أن أبدأ أول درس لى بين طلاب لا تربطنى بهم أية علاقة من قبل .

لم يقف طالب واحد عند دخولى . فظللت واقفاً دون أن أتحدث ، نظر إلى الطلاب نظرة تفحص . فتجاهلت ما يدور بخلدهم . سكت الهمس شيئاً فشيئاً وساد صمت ، لكننى لم أتحدث .. نهض طالب متكاسلاً ثم اعتدل فى وقفته ثم قام ثانٍ ثم ثالث ثم رابع .. وظللت مواصلاً صمتى ، انتهى الأمر بوقوفهم جميعاً . فواصلت الصمت ثم سألت فجأة . لماذا لم تنهضوا عند الدخول ؟ ماذا يمنعكم من ذلك ؟ نظر الطلاب بعضهم إلى بعض ، ولابد أن سؤالاً منطقيًا قد

جال بخواطرهم : ألا يدرى ها الزلمة ما حدث اليوم ؟ لكن أحداً لم يجب فأمرت بالجلوس ، قلت بعد صمت :

اليوم ، ولظروف تعرفونها لن يتيسر شرح أى درس ، لذلك أطلب منكم أن تراجعوا فى هدوء بعض ما عليكم من دروس.وسأل طالب بلهفة :

– وما هى هذه الظروف أستاذ ؟

– إنها بالغة الوضوح .. فأنتم تعلمون أن فصلكم ينقسم قسمين قسماً يدرس اللغة الفرنسية لغة أولى ، وهو تابع لى ، وآخر يدرسها لغة ثانية ، وهو تابع للأستاذ فؤاد الأسود ، وإلى أن يتم تقسيم فصلكم لن يتيسر تدريس اللغة الفرنسية لكم .

– هيك .

وجلس مغيظاً لقد نجحت إذن فى تحويل « القضية » إلى قضية : هل يعرف مدرسنا المصرى أن انقلاباً وقع أو هو لايدرى ؟ فإن كانت الحالة الأخرى فكيف نبلغه ؟ لكن أحداً فى الحقيقة لم يتجرأ على ذلك قط .. وأكثر من ذلك فقد ظل الطلاب يتقاطرون ، لكن انفعالات الواحد منهم كانت تنطفئ ما إن يدخل ، كان يعجب لصمت أقرانه ولا يجد مفراً سوى أن يصمت هو بدوره إلى أن يفد طالب جديد فيرتفع همس :

– مروان .. شو الأخبار ؟

وأطلب إلى مروان أن يحكى لهم شوصار ، لكن مروان ينظر إلى ولايحكى .. وفجأة سألنى طالب :

– أستاذ .. ما بتريد تتزوج ؟

– كل شاب يريد ذلك .

– وهل تريد أن تكون زوجتك مصرية .. أو سورية ؟

– مصرية

– ليش أستاذ ؟

– هيك حتى تكون طباعنا مؤتلفة

كنت أتعمد ذلك ، وأعرف أن الطلاب يدورون ويلفون ، يريدون أن يخبرونى بما حدث .. لكنهم لايتجاسرون ، وقد حدث لغط تركته يعلو ، ثم فرضت سيطرة شديدة على الفصل وسألت بتحد :

– هل لدى أحد منكم أى سؤال ؟

– هل يريد أحدكم أن يستعلم عن أى شىء ؟

– . . . .

– هل يريد أحدكم أن يجادل فى شىء ؟

وساد صمت وترقب شديدان ، وحين فتح مدير المدرسة الباب فوجئ بالصمت الشديد .. حتى لقد تردد فى أن يفتح باب الفصل كما قال – ظنا منه أن ليس بالفصل أحد .

– أستاذ لو تسمح ..

وطلب إلى أن يخرج الطلاب ليغادروا المدرسة خشية المظاهرات التى ستأتى لإخراجهم . ولابد أن الطلاب قد دهشوا لأننى – كما وضح لهم – كنت أعرف كل شىء .

رهائن . .

لابد أنه كان من نعم الله علينا أن يتم الانفصال ونحن لما نبدأ بعد عامنا الدراسى ومن ثم لم نقض بالمدرسة وقتاً يسمح بتكوين صداقات أو خصومات . لم يكن ثمة ما يربطنا بمن حولنا من زملاء على الإطلاق ، حتى لو كان ذلك مجرد

تحية أو سلام ، ولقد سهل ذلك الأمر علينا ، فحين تراجعت أواصر الزمالة بخيرهاو وشرها ظللنا فى نظرهم مجرد بشر فى محنة ، يستحقون من إخوتهم البشر المعونة والعطف ومازلت أذكر اثنين من زملائنا المشرفين بالمدرسة لم يتيسر لى الوقت لأحتفظ باسميهما لكننى مازلت أذكر شكليهما ، وأستطيع اليوم أن أتعرف عليهما لو قابلتهما بشرط مستحيل واحد هو ألا يكون الزمن قد خط خطوطه على وجهيهما : أما أولهما فنحيل أقرب إلى اللون القمحى فى حين أن الآخر أقرب إلى البدانة وإلى الشقرة فى الوقت نفسه . نصحنا أولهما :

– وينك أستاذ رايح ؟

– والله مابدى أعرف . أنا مقيم فى الأوتيل القريب من المنتدى بجوار السينما .

– أستاذ لاتروح . الأمور هناك خطيرة . بدك تقيم مع الأستاذ يوسف هون . ها المنطقة بعيدة عن البلد أستاذ وهادية . هون ما فى أى خطر ، واليوم مثل ما بتعرف ما فى حكومة . فيه فوضى وأى شىء ممكن يصير خيو .

ولم يكتف بذلك بل استدعى أحد الآذنين وطلب إليه أن يقضى لنا جميع حوائجنا اللازمة لحياتنا من طعام وشراب إلى أن تنقشع الأمور .. وقام الآذن بذلك خير قيام ، وكان يخصنا بعاطفة حقيقية . وكلما جاء بشىء سألته عن الأحوال :

– شىء فظيع أستاذ . مظاهرات ما إلها حد .

– ويهتفوا ضدنا ؟

– أف أستاذ . العمى . ضدكم وضد مصر وضد عبد الناصر .

– شىء غريب !

– ما فى شىء غريب فى سوريا أستاذ .

كدت أسأله إذن فلماذا كانت مظاهرات الترحيب التى فاقت كل حد فى الأعوام الماضية لكننى لزمت حدى ، ما شأنه هو ؟ هو مجرد رجل بسيط لادخل له فى أى شيء ، بل لماذا السؤال أصلاً فهل سيغير ذلك فى مجرى الأمور ؟ فى حين أنه لن يجلب – أى السؤال – إلا كراهية أو على الأقل حساسية نحن فى غنى عنها . ولقد كان لدينا الراديو لحسن الحظ يوافينا بأدق الأنباء .. التى لاتبعث على الطمأنينة أبدا .

لحاها الله أحداثاً توالت !

كان مؤشر الراديو ينتقل بين ثلاث محطات : دمشق حيث تجرى الأحداث ، القاهرة لنرى رد الفعل ، وحلب التى ظلت على ولائها لدولة الوحدة . وأعجب ما فى الذاكرة أنها قد تنسى بعض الأمور الجليلة فى حين تظل تحتفظ بكثير من التفاصيل التى لا أهمية لها ، لقد نسيت معظم ما قال عبد الناصر فى حديثه إلى الأمة فى ذلك اليوم ، ولست أذكر إلا قولته : إن هذه أول مرة يتوجه فيها بنفسه إلى الإذاعة ليلقى بياناً فى حين أنه لم يفعل ذلك من قبل حتى يوم العدوان الثلاثى نفسه . لكننى أذكر بعد ذلك أنه فى حشد جماهيرى – ربما – أعلن عن عودة المشير سالماً إلى مصر ومعه الفريق جمال فيصل قائد الجيش الأول أى الجيش السورى ، فدوت عاصفة من التصفيق . ماذا حدث لنصفق ؟ لست أدرى سوى أن الناس وقتها قد توقفوا عن الانفعال بأى شيء ، بل لقد كانوا يتركون للزعيم وحده ليحدد لهم إن كان ما يحدث نصر أو هزيمة .. ولقد صور لهم الأمر – فيما يبدو – على أنه انتصار .. ألم يعد المشير سالماً ؟ ! والوحدة .. والانفصال ، والأحداث الجسام وعشرات الألوف المصريين المحتجزين فى سوريا والاستعمار وإسرائيل والقومية العربية – هذه كلها

أمور لاتحسم الجماهير فيها أبداً ، فهى فقط فى انتظار الإشارة التى تحدد لهم السبيل ، بل الانفعال والفهم ذاته ..

عاد المشير إذن إلى القاهرة بعد أن انتزع السوريون كما قيل رتبه العسكرية ، وبدأ اسم عبد الكريم النحلاوى يتردد زعيماً للانقلاب . كان مديراً لمكتب المشير ، واستطاع كما علمنا أن يستغل ثقة المشير به فأبعد عن دمشق كل الضباط الوحدويين ، ثم دعا الاحتياطى فى حركة استنفار مفاجئة (أى إعلان حالة طوارئ) وضرب ضربته . ولست أذكر من كل رفاقه سوى ضابط طيران اسمه موفق عصاصة . وربما لم يعد هناك من يتذكره غيرى ، لقد أطاحت به كالنفايات مكنسة السياسة السورية التى لايدرى أحد من يمسك بها ، ولست أذكره إلا للفظاظة التى كان يتميز بها ولتصريحاته الحادة البالغة السخف ضد المصريين .

كان طبيعياً بعد عودة المشير وبوار لعبة إصلاح الأمور ، أو رفض عبد الناصر لهذا المطلب أن يعلن راديو دمشق الذى ظل يذيع حتى هذه اللحظة : هنا دمشق ، إنه يتحدث الآن باسم إذاعة الجمهورية العربية السورية فى دمشق .

لقد تم الانفصال إذن ، لكن حلب لاتزال على ولائها ، حلب واللاذقية قوات حلب والأسطول السورى . اللواءان زيتون وطبالة فى انتظار أوامر القائد الأعلى بالقاهرة لسحق التمرد فى دمشق ، ودمشق تسعى حثيثا للسيطرة على حلب . وحماة فى الوسط . سطوة دمشق عليها ضعيفة ، ومن السهل أن تتجه إليها قوات من حلب .

دوامة كنا فيها نتحسس رقابنا نحن العزل من أى سلاح . أقول ليوسف :

– ماذا سيحدث لنا ؟

– سيبها على الله

ونعم بالله حقًّا ، لكن راديو القاهرة يعلن إرسال قوات مظلات إلى اللاذقية والأسطول يتحرك نحوها ، والدول الكبرى وإسرائيل هل ستقف مكتوفة الأيدى ؟ واشتباك مصرى سورى ماذا سيعنى بالنسبة لنا هنا ؟ ولم يكن أمامنا إلا أن نسلم أمرنا لله . وندير الراديو :

هنا القاهرة . ولا يشفى ما نسمع غليلاً لنا

هنا دمشق : إذاعة الجمهورية العربية السورية . أرسل عبد الناصر قواته إلى هنا ، أرسل ألوفاً من جنود المظلات . نحن نحمله مسئولية الدماء التى ستسيل .

هنا حلب . إذاعة الجمهورية العربية المتحدة . وبرقيات تأييد تتوالى تؤيد موقف اللواءين طبالة وزيتون والتمسك بدولة الوحدة ويأتينا زميلانا :

– شو الأخبار ؟

– والله أستاذ .. الأمور خطيرة .. إرسال قوات لهون فيها خطر .. مذابح خيو ، الله يلطف أستاذ

ولا نجد ما نقوله ، ولا هما لديهما ما يقولانه ، والزمن كتلة واحدة تداخلت كل أبعاده فأصبحت هى الحاضر ، لكنه ليس الحاضر المتجمد البليد الرازخ كالصخرة ، بل هو حفرة تغوص فيها وتظل تغوص ، وكل شىء يجول بالخاطر ، ويتداخل ما حدث وما يمكن أن يحدث وما يخشى أن يحدث وما نتوهم أنه حادث ، لم يعد هناك صبح وظهر ومغرب ، لا ليل ولا نهار ، ولا نوم ولا يقظة ، دوامة تدور بنا ، والراديو لا يكل ولا يمل ، وصوت العرب يعدنا لو سهرنا معه أن نصحو على فجر جديد ، راديو دمشق يصرخ : إذاعة الجمهورية العربية السورية من دمشق : انظروا لما يفعل عبد الناصر . هاهو ذا قد كشف القناع عن وجهه . يرسل لكم جنوده .. ويواصل المذيع السليط اللسان هجومه

على الرجل الذى لم تمجده إذاعة من قبل قدر ما مجدته إذاعة دمشق ، ومذيعو إذاعة دمشق ، لكنه الآن عدو للعروبة وللوحدة .. ويمضى المذيع : أتدرى من أنت ياسيادة الرئيس ؟ وماذا تمثل ؟ انظر أى أكبر ميدان فى عاصمتك .. إلى ميدان باب الحديد ، أتوى هذا التمثال الواقف هناك (تمثال رمسيس) هذا ماتمثله . وهذا هو أنت ، فاخلع رداء العروبة الذى تتستر خلفه !

وأصمت متصنعاً الهدوء والحكمة ، ويعلق الزميل البدين :

– هكذا نحن سيدى . نحن شعوب عم بتحطم زعماءها . مسكين عبد الناصر . انتهى .

ونسكت الراديو ضجرين ، لكن الصمت أبعث على الضجر وعلى القلق والخوف ، وتبدو بادرة أمل : لقد طلب عبد الناصر من قوات المظلات المصرية أن تستسلم فور هبوطها حقناً للدماء وتنفسنا الصعداء . وانصرف زميلانا ، وظلت حلب محط الأنظار .

هل تنتصر حلب وتسحق تمرد عبد الكريم النحلاوى وتسقط دولة الانفصال ؟ ! من يدرى ؟ ونعود نكيف أنفسنا أننا سنبقى ، وستظل الأمور على حالها .

لكن وقاحة راديو دمشق تهز ثقتنا ، فنكيف أنفسنا أننا عائدون إلى مصر . والحديث بينى وبين يوسف كان متقطعاً متباعداً للغاية كان كل منا غارقاً فى أحواله يستعرض ظروفه وما سوف تحدثه فيها هذه الأمور الخطيرة . لكن حياتنا نفسهامهددة . من يدرى ؟ هل يعرف أهل الحى أن بهذا المنزل المنعزل مصريين ؟ لقد أفلتنا من المظاهرات الخطيرة . فهل سلمنا من المغامرين الموتورين ؟ وأى مسئولية يخشاها أحد لو أنه شاء أن يقتلنا ؟ بل من سيسأل عنا على الإطلاق ؟ فى ظروف كهذه تحدث أمور مشابهة . هذه طبيعة الأمور ، لكن ليس من طبيعة

الأمور أن تقر بموتك المجانى هذا ، هنا حلب . وأطرقت جيداً واسترعيت انتباه يوسف . وسمعنا تدافعاً بالأيدى يصدر عن الراديو هذه إذاعة الجمهورية العربية السورية من حلب .

هكذا سمعنا وقائع الانقلاب فى حلب ، وهكذا أمكن قوات الانفصال أن تسيطر على إذاعة حلب ، لتذيع بيانها ، وأعدم اللواءان طبالة وزيتون ، وارتفعت أعلام الانفصال فى كل سوريا ..

وتنفسنا نحن الصعداء وتحسسنا رقابنا التى ظلت فى مكانها ، ونمنا نوماً عميقاً ، فقد باتت واضحة كل الأمور .

وفى الصباح مر علينا زميلنا النحيل مؤكداً أن بإمكاننا الآن أن نجول فى حماة بعد أن هدأت الأحوال .

وقضى الأمر :

لابد أن القارئ سيلتمس لى العذر حين أقرر أن أحداث هذه الأيام المتلاحقة تختلط بذهنى . فقد كان شاغلى الأكبر هو ما يمكن أن يحدث لنا ، مع ما يطرحه ذلك من أسئلة وتساؤلات . وعلى العموم فإن الأمور فى مجملها معروفة : لقد رفض عبد الناصر إخماد التمرد الذى وقع ، وبعد أن طلب إلى قوات المظلات التى أرسلها أن تستسلم للسوريين . كما أمر كذلك بإعادة الأسطول الذى كان يشق طريقه بالفعل إلى اللاذقية ، لقد تغلب فيما يبدو الشعار الذى طرحه عبد الناصر بأن السلاح العربى لن يقاتل السلاح العربى وهو الشعار الذى سيسقطه الرجل الذى طرحه نفسه بعد ذلك بأقل من عام ، حين سارع إلى التدخل إلى اليمن . على الرغم من أن الأحداث التى وقعت هناك أقل مساساً بمصر من تلك التى وقعت بسوريا مما يلقى على الأمور ظلالاً ، تطرح

بدورها تساؤلات هامة : فهل ياترى ما منع عبد الناصر عن إخماد حركة التمرد الانفصالية فى سوريا هو هذا المبدأ النبيل أم أنه رأى البحر يموج بحيتان أكثر ضراوة من أسماك القرش التى حركها ؟

لقد بدأت الرواية تتم فصولاً إذن وهاهى ذى تخرج من مجال الهواجس والكوابيس والاحتمالات إلى عالم الواقع . لم تعد مجرد عبء نفسى يثقل نفوسنا وعقولنا . بل أصبحت حقيقة لها تداعياتها ، ولها امتداداتها شئنا أم أبينا . أما بالنسبة لنا كأفراد فقد قضى الأمر ، لم نعد مدرسين يعملون داخل أحد أقاليم وطنهم ، بل أصبحنا غرباء . وكان الوضع بحماة بالغ الخطر لأنه كان فوضى . فحتى ذلك الوقت لم تكن سلطات الانفصال قد دعمت موقفها هناك ، كما أن الجمهورية العربية المتحدة ظلت حتى أمس فقط تقاوم الفناء فى حلب وحماة فى منتصف الطريق . مقاطعة بلا حكومة ، وترك الناس لأنفسهم ولفطرتهم ، وكل شىء ممكن الحدوث بلا معقب أو عقاب .

وبدأت دول العالم تعترف بدولة الانفصال ، وتوقف عدد الدول التى اعترفت عند رقم ٤ : الأردن ، تركيا ، جواتيمالا ودولة رابعة لعلها أستراليا .

ووضح لكل من يستقرئ الأمور أن عبد الناصر لن يقف عائقاً فى سبيل هذه التطورات ، وأنه لن يتدخل هناك ، وجاءنا الآذن الذى كان يقضى كل حوائجنا أو أغراضنا كما يقول الإخوة هناك يشكو :

–كيف أستاذ يتخلى عنا عبد الناصر؟

ونظرت إليه فى دهشة ، وقلت :

– وماذا كنت تريد منه أن يفعل ؟

– أن يؤدب هؤلاء

– ولو فعل سيدى .. شو بدكم تحكوا .. عبد الناصر عم بيفرض الوحدة بالحديد والنار والدم ؟

وسكت وسكت لكنه قال :

– والله ما بيجوز أستاذ .

ولم أجد فى نفسى أية رغبة فى مزيد من الجدل ، وأكد لى بعد سؤالى عن الأحوال أن الأمور قد هدأت وأن بإمكاننا أن ننزل إلى المدينة الآن ..

ولماذا نستبق الأحداث ؟

أخذنا أهبتنا لنزول المدينة ، ولا أجد غضاضة فى القول بأننى كنت خائفا أترقب ، كانت الشوارع هى الشوارع نفسها لكن المدينة لم تعد المدينة نفسها ونحن لم نعد نحن ! ولا الناس هم الناس ! كان هناك جديد ، حقًّا لقد استقرت الأمور فى ظاهرها وبدأ العالم يعترف بالدولة الوليدة (يالها من مأساة وملهاة فى وقت معاً !) وتألفت وزارة مأمون الكزبرى ، وأطلت الشركة الخماسية برأسها ، ثم أسفرت عن كامل وجهها .. وبدأت الأوضاع تصبح محض سورية ، لا مشير ، ولا حتى جمال فيصل قائد الجيش الأول (السورى) الذى رحلوه إلى مصر مع المشير .. ولا وزراء تنفيذيين .. أصبحت السلطة كلها سورية لكن القلق ظل كامناً تحت هذا الهدوء الظاهرى بل كان أوضح من ذلك . لم يعد هناك تهديد مصرى بعد قرارات عبد الناصر التى اتسمت بالحكمة ، أو التى أملت الظروف عليها أن تكون كذلك ، لكن القوى التى قامت بالانفصال حين أسفرت عن وجهها أهاجت مشاعر آخرين ظنوا أنهم هم الذين صنعوا الانفصال ، وأن العهد القادم من ثم عهدهم .. لقد اكتشفوا أنهم شاركوا بالهدم ليرتفع بنيان غيرهم . وبدأت سوريا رحلة من التخبط

والتناحر ، لن نكون مطلقاً شهوداً عليها ، لقد كنا قد فارقناها منذ زمان طويل ..

ولكن لماذا نتعجل الأمور ؟ ولماذا لانجوس الآن خلال شوارع المدينة التي نعرفها ولا نعرفها ، والتي لم نألفها ولم تألفنا على الإطلاق ؟ .

الغريب :

بدأت أقدامى تصبح أكثر ثباتاً . وسمحت لقدمى بأن تدقا أرض شوارع المدينة ، ومن حق كل سائر أن يطأ أرض الطريق ، حتى لو كان غريباً مثلى ، غريماً مثلى ، مع أنه لم يؤذ هناك أحداً ولم يكن له أى دور فى كل ما دار .. وكما سمحت لنفسى أن تبوح بكل مشاعرها فلا داعى لأن أنكر سؤالاً أو هاجساً ظل يطرح نفسه على : ماذا لو أن واحداً من هؤلاء قد شاء أن يؤذيك ، أو حتى أن يقتلك ؟ .. ومع ذلك فلابد أن مظهرى المتماسك لم يكن ينبئ عن حقيقة ما يعتمل فى نفسى مطلقاً ، بل لابد أننى كنت أبدو فى هيئة واثقة أكثر مما ينبغى لحد أستفز معه شابا من أبناء المدينة ، دون أن يدرك أن هذه الثقة إن كانت قد وجدت فإنما هى ثقة اليائس الذى قدر أسوأ ما فى الأمور واستعد لتقبلها ، وما حيلته فى ذلك فى بلد ليس به حتى الآن سلطة مسئولة . ولو كانت معادية ؟ كنا بالقرب من مديرية التربية والتعليم ، حيث كنا فى الطريق إليها – يوسف وأنا – لنسأل : هل هناك أى أمر محدد بخصوصنا حين وجدت هذا الشاب ينظر إلى شزرا وتعلقت نظراتى به ، وجاءنى تحد من نوع عجيب . بل لست أبالغ إن قلت إن الأمركان يرتبط فى نفسى بنوع من الكبرياء القومى . ووجدت الشاب يقبل على متوعداً ، توقفت . ومن عجب أن كل مخاوفى قد زالت ، همّ الشاب برفع ذراعه متوثباً . لكن زميلاً له أمسك به :

– شو بدك تعمل ؟

وأشار الشاب الغاضب إلينا . وقال كلاماً غاضباً كثيراً ، لم أستوعب منه سوى غضبه . قال زميله الهادئ وهو يجره بعيداً عني :

– لكن ليش خيو ؟ هذا كلب ما يسوى

وشعرت بألم غائر من هذا الذى قاله الشاب الذى يصطنع الحكمة ألم أكبر بكثير من ذلك الذى شعرت به من هذا التحرش الذى لاسبب له ، ولولا أننى أجيد التحكم فى نفسى لبكيت ، ربما ليس لما حدث لى منذ لحظة ، بل لأن أسباباً كثيرة كانت تعتمل فى نفسى ، ولم تكن لتغسلها سوى الدموع . وكم علمتنى سوريا حقًّا أن أتحكم فى مشاعرى وأفكارى نفسها ..

استقبلنى صاحب الأوتيل بترحاب متحفظ :

– أهلين أستاذ

وكنت أدرك ما وراء ذلك ، قلت له :

– كم ليلة ؟

– أربع

دفعتها بالكامل . وقال مع أننى لم أساوم مطلقاً :

– أستاذ ما فى حدن نام بالحجرة تبعك ..

وقطعت عليه حديثه بأن أعطيته البخشيش . وحملت حقائبى وتوجهت إلى البيت الذى دفعت إيجار مسكن فيه لشهر قادم بأكمله . وأثبت بذلك أننى فى طريقى لأن أكون تلميذاً نجيباً لإخوتنا فى الشمال .

المفاجـأة :

– أين كنت ؟

سألنى جورج (وأرجو أن يكون هذا هو اسمه) وهو زميل مصرى ، كان زميلاً لعلاء بكلية الفنون ، وكان يعمل مدرساً بمدرسة الصنايع بحماة ، وهو الذى أرشدنى إلى هذا المسكن .. وهو كذلك يقيم به . حكيت له القصة :

– قلقت عليك كثيراً. لماذا لم تأت إلى هنا ؟

وشرحت له ما حدث والنصيحة التى تلقيناها بعدم النزول إلى حماة :

– عملت خير

– هل كانت الأمور سيئة ؟

– أف ..

وأطال فى تأففه . قلت :

– هل شاهدت المظاهرات ؟

– بالطبع

– هل هتفوا ضدنا ؟

– وضد اللى خلفونا

– وضد عبد الناصر

– كانوا يصيحون وهم يسبون. حتى الطلاب انتهزوها فرصة ، وأخذوا يشتمون ويسبون زميلاً لنا يقيم بالقرب من مدرسة : اخرج يا أخو الـ . اخرج يا ابن الـ . . اخرج لنا يا مصرى إن كنت رجال . . وينه عبد الناصر بتعكم ؟ وينه هذا الـ . .

– وهذا الـ .. هو الذى رفعوا عربته بمن فيها فى العام الماضى !

– على رأيك .

وانصرف عنى . كانت نظراته ترنو إلى بعيد . وكنت أعلم أن ليس له عمل بمصر ، وأنه بدأ حياته العملية بسوريا وهو متزوج ، وماذا عساه أن يفعل ؟ فقد كانت سلطات دولة الانفصال قد طلبت إلينا مغادرة البلاد بعد أن نبهت الإخوة السوريين إلى عدم التعرض بالأذى لإخوتهم المصريين . كان التحريض سافراً وفجاً ولولا أن الانقلاب كان قد أسفر عن وجهه واتضح لكثير من القوى التى ساندته أنه ليس من صنعها لأتى التهديد بثماره .. أما نحن ، فلا أستطيع أن أقول : سوى أننا قد وكلنا أمرنا إلى الله ، ولم يكن أمامنا إلا أن نعتمد على سلوك الإنسان إزاء أخيه الإنسان . وفوجئت بمن يسأل عنى .. ولم يكن السائل سوى زميلى القديم ابن حماة الشهم سعيد الكيلانى .

– وينك خيو .. سألت عنك بالأوتيل

– أهلين أستاذ سعيد . شرف

ودار حوار صريح . كان الرجل متحاملاً على سلطات الوحدة وإن كان قد أخبرنى – وهو صادق أنه كاد يتعارك هو وأحد أبناء بلده دفاعاً عن الوحدة نفسها . وبعد فترة سألنى :

– أستاذ .. بعد ما تعودوا لمصر .. بدك تستمر بالتدريس ؟

– حتى الآن نعم .

لم تكن الإجابة شافية بالنسبة له فاستطرد :

– يعنى أستاذ ما بدك ترجع للجيش ؟

– الجيش . وما دخلى بالجيش ؟

– أستاذ .. يعنى أنت مو ضابط ؟

كانت مفاجأة أذهلتنى

– أنا ؟ أبداً . مين قالك ؟

قال بصراحته المعهودة :

– والله أستاذ نحنا عندنا فكرة راسخة .. أى مصرى هون هو ضابط بالاستخبارات .. يعنى لاتأخذنى ضابط أولاً ثم مدرس أو مهندس أو دكتور ..

– مستحيل .. وغير صحيح

– والله هيك بنظن

وفسر لى ذلك كثيراً من الأمور وأكدت له أننى لم أدخل الجيش حتى ولا مجرد جندى عادى ، ولا أستطيع حتى أن أمسك بسلاح من أى نوع فى يدى . وبعد انصرافه ساءلت نفسى : من يدرى ؟ ربما كان هذا الفهم الخاطئ هو الذى أساء إلينا أكثر من أى شىء آخر ، وهو الذى جبانا كذلك من أخطار مؤكدة فى الوقت نفسه ولم يكن لنا من دخل فى كل ذلك فى الحالين .

عندما نعود إلى مصر :

توجهنا – يوسف وأنا – إلى سلمية لصرف راتبنا بعد أن سمحت لنا بذلك سلطات الانفصال – وكانت فى ذلك جد كريمة . وإن كانت حرمت علينا نقل أى أموال خارج سوريا ، ومعنى ذلك أن المطلوب فقط هو تسديد ما علينا من ديون حتى لايضار الأشقاء ويسبب ذلك بعض سخط لايسعى إليه مطلقاً المسئولون فى دولة الانفصال الأولى .

كان علاء واجماً ، فقد كان قد تزوج وأحضر زوجته معه إلى سلمية . وكان الشويحى متماسكاً ، أما عامر فقد كان يرتجف ! حدثونى عما حدث ، عن صور الحورانى التى ملأت المظاهرات والتى أطلت من كل الوجهات عن الطلاب الذين كانوا أكثر من غيرهم حماساً للوحدة وتشدقاً باسم عبد الناصر وهم يهتفون

ضده وضد وحدتهم معه وعن .. وعن .. وتلبستني حالة غريبة من المرح ، وتملكتني رغبة جامحة في السخرية بكل شيء وواتني قدرة نادرة ما تواتيني على إلقاء النكات .. وضحكنا .. عدنا إلى مصريتنا وضحكنا ونظر إلينا الناس في الشوارع في دهشة ونحن نضحك مقهقهين ، واستبدت بي رغبة طفولية في الزراية بكل شيء ، في إدهاش هؤلاء الناس ، في تحديهم ، في الانتقام منهم .. حالة نفسية لا أستطيع تفسيرها واستمرت نكاتي واستمرت ضحكات الزملاء ، وكنت أشعر بتشف من نوع غريب كلما لمحت دهشة الناس ، ماذا كانوا يظنون : أننا سنبكي ، أننا نحتاج إليهم لدرجة نموت معها لو تركونا ؟ لكن لا ، إنهم أكثر حاجة إلينا ..

وأروى نكتة جديدة ، أو تعليقاً ساخراً ما تذيعه الإذاعات هنا وهناك . ويستمر الضحك . ووقعت عيوننا على مدير البريد .. كان رجلا خدوماً في حدود وظيفته . واندفعت إليه أحييه ، نهض ورحب في تحفظ تمليه الظروف . كف الجميع في المديرية عما في يدهم ونظروا إلينا . وقلت :

– سنظل نذكر خدماتك لنا عندما نعود إلى مصر

كنت أقصد كل كلمة وهمس الناس :

– إلى مصر – !

لقد غمزت سنارتي إذن وهاهم أولاء يعجبون أنني أستخدم اسم مصر عجيب أمر هؤلاء القوم حتى اسم مصر يستنكرونه علينا وهم الذين صنعوا انفصالاً مدوياً بالأمس فقط ، وهم الذين ظلوا يستخدمون اسم مصر طيلة عملنا معهم ليؤكدوا لنا غربتنا عنهم ، ثم ينكرونه علينا اليوم لأن استخدامه يعني ميلاً إلى العزلة والإقليمية ، ولم تظل هذه الهواجس مجرد حدس ، بل سرعان ما أكدته الأحداث التي لا تكف حتى اليوم عن الحدوث . .

ودمع لا يكفكف يادمشق !

أكدت السلطات فى دولة الانفصال الأولى أن علينا أن نغادر الأراضى السورية فى موعد أقصاه الثانى (أو الثالث) من تشرين الأول من أكتوبر وإلا فإنها لا تعد نفسها مسئولة عمن يتخلف عن هذا الموعد. كنت واحداً من أقل الناس تضرراً من قرار كهذا: ذلك أننى لم أكن متزوجاً وكنت أسكن سكناً مفروشاً ومن ثم فليس لى من متاع، لكننى كنت أتألم وأنا أرى المصريين العاملين هناك وهم يبيعون أمتعتهم بثمن بخس. وأحياناً بلا ثمن. فمن يبيع حقًّا لمن؟ ولولا أننى ملتزم بأن أحكى عما شاهدت وعن تجربتى فقط لرويت ما قيل لى عن البيوت التى نهبت للمصريين وحوادث الاعتداء التى كانت أكثر من ذلك عنفاً وبخاصة فى مناطق الشمال. وهى المناطق التى قاومت الانفصال، ولا بد أن ذلك قد تم بتدبير من السلطات الانفصالية. ومع ذلك فلا يفوتنى أن أذكركم ثروات ضاعت على الأفراد المصريين! لقد كان يعمل بسوريا منذ ما قبل الوحدة أطباء وقضاة ومهندسون، وكان لهؤلاء بيوت تكتظ بالأمتعة والحاجات، وكان الكثيرون منهم لا يزالون يقضون إجازتهم بمصر حين وقع الانفصال فلم يتح لهم مطلقاً أن ينقلوها أو يعرفوا كيف نهبت؟ لم يكتب لهم أن يستريحوا حتى راحة أهل القتيل لمجرد معرفتهم اسم قاتل عزيزهم .. ولم تعد إليهم ولن تعود أو لنا جميعا أى مستحقات لنا فى سوريا، فليس فى مصر من يبالى مطلقا – فى مسيرة الوحدة الشاملة بالتفاصيل الصغيرة هذه ومصالح الأفراد لا قيمة لها .. والسياسة العليا تقضى بعدم الالتفات إلى هذه السفاسف والصغائر .. وماذا تعنى هذه الأشياء الصغيرة إلى جانب الأهداف القومية العليا؟ وكيف نجعل من هذه الصغائر عوائق تعرقل مسيرتنا الظافرة نحو المجد .. نحو المجهول

الذى بات معلوماً والذى كانت تباشيره ظاهرة لكل من حاول أن يفهم كيف تقوم أهداف أكبر على مثل هذه الأسس الخاطئة ؟ ألا تؤدى الاستهانة بالفرد المصرى .. إلى الاستهانة بمصر نفسها بعد ذلك ؟ وهل مصر شىء آخر سوى المصريين ؟

وكان أعجب ما حدث عند ترحيلنا أنه طلب إلى كل منا أن يدفع ١٠ ليرات سورية أجرة للباص الذى سينقلنا إلى بيروت . كم عدد المصريين الذين كانوا يعملون هناك؟ خمسون ألفاً على أكثر تقدير. نصف مليون ليرة لم تشأ السلطات السورية أن تتحملها لست أتحدث هنا من زاوية خسارة تحملتها فهذه هى أتفه الخسائر حتى لو عدت خسارة .. لكننى أعجب من مثل هذا السلوك حقًّا من جانب سلطة صادرت الكثير من مستحقاتنا .

ومع ذلك فقد شاءت الإجراءات ألا تنتهى إلا بشىء طريف ، وسط هذا الجو القاتم كنت أدرك أننا على سفر طويل فامتنعت عن الأكل أو الشرب تماماً حتى لاترهقنى متطلبات الجسد ، لكل القلق من السفر . جعلنى برغم ذلك بحاجة إلى الاستجابة لهذه المطالب ، غادرت السيارة وتوجهت إلى الدورة الملحقة بقسم الشرطة . ووجدت عند انصرافى صولاً فى انتظارى :

– أستاذ ؟

فوجئت : نعم ؟

– والله ياسيدى لا تأخذونا .. شهر بالكثير وبدكم تعودوا لبلادكم هون .. هايدى بلادنا أستاذ ونحنا عارفينها .. أوضاع مثل هيك ما بدها تستمر ..

لا أذكر ما قلت له من مجاملة – يمليها هذا الموقف الذى لم أكن أتوقعه واستمر هو :

– والله أستاذ السلام أمانة .. بدك لما تعود تسلم لنا على سيادة الريس ..

وقل له أستاذ : إن الشعب بسوريا كلاتها ما بيرغب سواه .

تمالكت نفسى ووعدته خيراً ، بعد أن كادت المفارقة الضخمة أن تجعلنى أنفجر بضحك مجنون ، هكذا يظن هذا الجندى الطيب – شأنه فى ذلك شأن كل السوريين – أننا رسل عبد الناصر وجنوده .. وأنه هو الذى اختارنا بشخصه . وربما ظنوا سفرى خلال إجازة نصف العام الماضى على أنى كنت رسولاً لكل المصريين هناك إلى عبد الناصر .. شرف كهذا لا يمكننى أن أدعيه . وتهمة كهذى .. لعلها أنقذتنا من منغصات كثيرة ..

سكة السلامة :

كما كان طريق المجىء كان طريق العودة وعراً جبليًّا يلتف بنا ويدور . لكن الظلمة من حولنا حجبت عنا كل مخاطر الطريق . ولقد غادرنا حماة عند حلول المساء . وكأنما أبت سوريا إلا أن تحجب نفسها عنا ، أن تتخفى . ألا تواجهنا ونحن من جانبنا كنا قد عرفناها ، وعلى نحو ما ألفنا مالاقينا فيها ، لم يكن بنا مزيد حاجة إلى الكشف أو الاكتشاف .. كانت لكل منا همومه ومتاعبه وذكرياته البشعة مع العاصفة الهوجاء التى هبت واقتلعت أشياء كثيرة وزلزلت من الأشياء ما تبقى .. أسلمنا قيادنا للسائق المتمرس بالطريق الوعر وغاص كل منا فى قاع نفسه .. انداحت فى النفس حدود الزمن وحدود المكان واختلط الماضى بالحاضر بالمستقبل واختلطت الوقائع بالكوابيس .. كنا أشبه باللاجئين ، مطرودين فى غير كرامة ولا عزة .. لو أننا كنا الذين طلبنا أن نعود ، لو أننا كنا الذين بادرنا بالامتناع عن العمل . بدلا من الذهاب إلى مديريات التعليم نستمع الأخبار ، والأوامر .. لكن عجلة الأحداث المعروفة لم تترك لنا فرصة للاختيار ولا حتى للحفاظ على الشكليات .. انتهت الأحلام والطموحات الصغيرة

وانتهت معها أحلام أكبر وأجل .. والوحدة التى ما يغلبها غلاب – مع أن الله سبحانه اكتفى بأن وصف نفسه عز وجل بأنه غالب على أمره – قد تهاوت بحركة قادها بعض الصغار ، فى غفلة من الكبار ، وتم الانفصال بفعل جنود الاحتياط بعد حركة استنفار لم يكن لها ما يبررها لو أن الكبار كانوا فى تمام يقظتهم .. ومع ذلك فلقد كانت نهاية تتسق هى وطبائع الأمور بقدر ما تتفق غفلة الكبار أنفسهم مع كل الأحداث الأليمة التى عصفت بعد ذلك بنا .

توقف الباص وأخبرنا أحد الحارسين اللذين رافقانا حتى بيروت ، أننا فى حمص . ومن النافذة وعلى الضوء المعتم وجدت سرية من الجنود تصطف حول الباص . هل ثمة ما نخشاه ؟ هل صدرت أوامر تبعث على الخوف ؟ هل أرسل عبد الناصر جنود مظلات آخرين وحدث اشتباك سندفع الآن ثمنه ؟ وعزفت موسيقى عسكرية لا أعرف نوعها لأننى لم أكن جنديًّا فى يوم من الأيام . وسألنى يوسف بعد انتهاء المراسيم والسماح لنا بمواصلة الطريق : ماهذا ؟

قلت :

– أبداً إنها نوبة صحيان ورجوع .

وضجت العربة بالضحك ، وأردفت بتعليق آخر ، وزادت الضحكات حدة. نحن مصريون يا أخى ، نبحث عن السلوى فى النكتة حتى لو كنا نعرض بأنفسنا ، ودهش الحارسان لما يحدث منا ، وظللنا نضحك حتى الدبوسية حيث صودر ما معنا من نقود ، مصرية كانت أو سورية ، وبعد الإجراءات ضحكنا أكثر وشيئاً فشيئاً قلت الضحكات ، وباخت النكتة ، وطاشت الكلمات ، وشيئاً فشيئاً أيضا عاد كل منا إلى قاع ذاته ، وألقى ببصره من النافذة حيث تحجب عنا الظلمات معالم الطريق ومخاطر الطريق . . لكننا فى الظلمة شققنا لأنفسنا طرقاً أكثر عتمة . وظل الطريق يراوغ .. استطال حتى ظنناه لن ينتهى

أبداً .. وتضاءلت مخاوفنا ، وانحصرت كل رغبات النفوس وطموحاتها فى حاجات الجسد شديدة الضرورية والنوم. هل سيلامس جسدنا الفراش حقًّا وننام ؟ وسمعنا من يقول طرابلس : ونظرت ، كان ثمة ميكانيكى يُصلح إطارات عربة ، وهب بعض الموجودين حول العربة : مصريون ! وسمعت هتافا كسولاً ، كان هتاف ترحيب .. ابتسمت ابتسامة شاحبة فقد كانت النفس قد ملت كل شىء ..

وحين وصلنا إلى بيروت ، وزعنا كيفما اتفق على الفنادق والأوتيلات لم يكن يعنينا برغم الجوع الشديد سوى أن ننام ..

الباخرة مصر :

كانت حكومة السيد صائب سلام فى لبنان بالغة الكرم معنا ، ففتحت لنا كل حدود لبنان ، ولم تتخذ معنا أى إجراءات تتخذ مع الوافدين إلى أى مكان . وعطف علينا كثير من الناس ، وأرشدونا إلى عربات السرفيس حتى يجنبونا استخدام التاكسيات الباهظة الأجرة . . وحرصت على الاطلاع على الصحف اللبنانية : أما المؤيدة لنا منها فكانت أكثر تأييداً بالنسبة لعبد الناصر من كل صحف مصر ، أما المعادية لنا فكانت أشد إيلاما لنا حتى من كل صحف دولة الانفصال ، واسترعى نظرى ما جاء بإحدى هذه الصحف من أن عبد الناصر قد رفض بشدة كلمات تفوه بها وزير مصرى معروف بميوله المصرية الشديدة . كما استرعى نظرى قولها : إن بيانات الجيش المصرى تمتلئ بعبارات مو عربية بل لا تنتمى لأية من اللغات الحية المعروفة ، هكذا تلمزنا الصحيفة فى عروبتنا وتلمح من طرف خفى إلى الفرعونية .

وفى المساء ، بعد نهار من التشرد فى بيروت ، اتخذنا طريقنا نحو الميناء ،

كانت الباخرة التى ستقلنا تحمل اسم مصر ، (ولست أدرى لماذا لم يسموها هى الأخرى جيم . عين . ميم . أى الجمهورية العربية المتحدة ؟ ألم يخشوا أن يرى الإخوة العرب فى ذلك ميلاً للعزلة والانعزال ؟) فى الظروف العادية تحمل هذه السفينة ألف راكب ، لكن كان عليها اليوم أن تحمل خمسة آلاف راكب .

كانت أول مرة أركب فيها البحر ، اقتادنا المسئولون إلى ظهرها ، طالبين إلينا أن نترك القمرات للسيدات ، لكننى حين وصلت مع حقائبى وجدت السطح مغطى بالأجساد الآدمية من كل نوع : رجال وأطفال وسيدات (ولاداعى لاستخدام ذلك التعبير الذى أمجه للغاية والذى يقول : بالشيوخ والأطفال والنساء كأنما هو مباح أن يلحق الأذى بالرجال) .

اخترت لنفسى مكاناً يتسع لحقائبى وجسدى وتوسدت صحيفة ووضعت حذائى تحت رأسى ، كان الحديث هو المألوف فى ظروف كهذى ، واكتشفت أن جارى يعمل مستشاراً بدار القضاء العالى ، وتوطدت بيننا صداقة وألفة ، وحين تحركت السفينة بدأنا نرقب النجوم ونتأمل المدينة وهى تتباعد عنا . . وحين غابت عن البصر بدأت صلتنا بالأحداث تتقطع ، أو قل بدأت عوامل جديدة تطرأ على ما فى داخلنا ، إننا فى طريقنا إلى مصر ، هل ذهبت النساء حقاً إلى القمرات ؟ وسألت محدثى المستشار فقال : لاأدرى سوى أنهن كثيرات من حولنا ، لم أحاول أن أغض البصر ، ذلك أننا بالفعل لم نكن نرى شيئاً ، فإن رأينا شيئاً من جسد امرأة نائمة فقد كان الأمر يثير الرثاء أكثر مما يثير من شىء آخر ، إن أحداً لم يعد يبالى بشىء ، وكان الإشفاق والرثاء ، كل منا للآخر ، ولنفسه بالطبع أولاً ، هو العاطفة الغالبة ، لكن الصباح حين أسفر . أسفر عن شىء غريب فى نفوس البشر .

لم يكن أحد منا – باستثناء قلة نادرة للغاية لحد لايمكن معها أن نحسب لها

حساباً – قد أحضر معه طعاماً ، وكان مستحيلاً على جهاز السفينة بدوره أن يجهز طعاماً ، وعلمنا أنه سيكتفى بتقديم وجبة الغداء ، طيلة مدة مكثنا فى البحر ، حتى نبلغ بورسعيد ، ستاً وثلاثين ساعة أوتزيد ، بالإضافة إلى يوم كامل فى بيروت لم نتناول فيه سوى الغذاء ومع ذلك فحين حل الغذاء كان الأمر على غير ما كنا ننتظر : لم يحمل إلينا أحد طعاماً ولادعانا أحد لغذاء ، وبدأ فئران السفينة الطافية ينقبون وسرعان ماانتشر الخبز ، إن علينا أن ننزل إلى بطن السفينة كى نجاهد فى الحصول على طعام ، وطلب إلى صديقى المستشار أن أنتظر لأحرس حقائبنا معاً ريثما يكتشف هو الأمر ، بعد دهر عاد وزف إلى البشرى : أسرع . ودلنى على طريق ملتو يمكن التسلل منه إلى تحت .

– ستجد أمامك طاهيا يعد المكرونة ، لاتقف ساكناً ودعك من حيائك هذا وإلافلن تحصل على شيء . زاحم حتى تحصل على طبق .

لكن ماشاهدته كان يبعث على الرعب ، كان يوم الحشر . كان التدافع بالمناكب ومزاحمة الأطفال والنساء . انتهت كل الحواجز لم يعد هناك أطفال ولانساء ولاشيوخ ولارجال ، هناك معدات خاوية وأفواه تلتمس لقمة من أى نوع . الحياة فى هذه اللقمة لاأدب ولافن ولافلسفات ولاموسيقى ، اللقمة وكفى ، شربة الماء هنا تساوى الحياة كما يساويها فى أحيان كهذه الذهاب إلى قضاء الحاجة إلى دورات المياه ، ياللإنسان المتسامى والضعيف ! ياللوحش الرابض فى الأمعاء ! لم أزاحم طواعية ، لكننى وجدت نفسى أزاحم . . لم أبال بشكوى من أدفعهم ، كنت جائعاً ، أى طعام وإلاتملكتنى حالة من القيء المرعب ، وفى النهاية حصلت على ملعقتين من المكرونة لم أدر لها طعماً ، لكنها كانت من أشهى ماأكلت . . كان بإمكانى أن أزاحم من جديد لأحصل على مزيد من الطعام ، لكن الزحام الذى زاد شدة حال بينى وبين ذلك ، كما أن

هذه الملعقات من المكرونة قد أعادت فيما أعادت إلى الإنسان بعض تفكير وقيم الإنسان . . وعدت . كان الجميع يسيرون حفاة . لاتستر أجسادهم إلاملابس النوم ، أوملابسهم العادية التى استخدموها ملابس للنوم ، لاأحد يخجل من أحد أو يحسب حساب أحد ، ألفة تامة أو لامبالاة كاملة وألفينا ببصرنا نحو البحر الواسع نلتمس بورسعيد .

وحين أذن الله لبورسعيد أن ترسل إلينا أضواءها اللامعة ، بدأت تدب بيننا الهمة ، وأخذ الناس يصلحون من هندامهم ، واكتشفت أن بالسفينة سلطات أمن بدأت تتخذ معنا إجراءات الوصول . . ثم بدأت تصل إلى أسماعنا أصوات سرينات وطقطقات . .

وحاولت جهدى أن أرى اللنشات التى جاءت تحيينا وترحب بنا . . بنا نحن ؟ وظفرت دمعة من عينى ، فبعد كل مالقيت من هوان اكتشفت أنه لاتزال لنا قيمة . .

ولكن حين هبطنا الميناء ، وجدت المحافظ فى انتظارنا ، كان وقتها هو عماد الدين رشدى ، وطلب إلينا أن نسارع بركوب القطر المعدة إلى القاهرة . القاهرة ، والحقائب ، والناس الذين لايعملون بالقاهرة ، ووجدتنى أتحدث معترضاً مع آخرين ، وشخط المحافظ ، ووجدت صديقى المستشار يتقدم فى ثقة نحو المحافظ :

– أنا المستشار فلان بالقضاء العالى :

وتقدم آخر :

– وأنا الطبيب فلان بمستشفى كذا .

وتحدث المحافظ :

– أهلا . . ماهى طلباتكم ؟

وهممت بالحديث . . لكنه جذبنى بقوة وأسكتنى ، بأى هوية سأقدم له نفسى ، وأدركت الهوة الاجتماعية التى تفصل بينى وبين من توهمته صديق المستشار ، وهو من جانبه لم يعد يلتفت إلى ، كنا على ظهر السفينة عراة من مكانتنا ومن وظائفنا ، لكننا ارتديناها حين وصلنا إلى مصر ، أو أن مصر هى التى خلعتها علينا ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه . .

ازدردت ساندوتشات الجبن التى وزعت علينا ، وركبت القطار نحو القاهرة مردداً فى نفسى : إننا الآن فى مصر . . إننا الآن فى مصر ، مصر التى نحبها والتى تزدرينا . . وسرعان ما واتانا النوم . .

الفصل الخامس

الحصاد

ياشباب النيل :

أقمنا الشويحى وأنا مع بعض الزملاء فى إحدى لوكاندات الظاهر انتظارا لعودة حقائبنا من بورسعيد ، قضينا الليل بملابسنا الكاملة حيث لم تكن مع أى منا ملابس أخرى من أى نوع ، فقد تركت كلها بالحقائب ، وكان عبد الناصر قد أعلن أنه سيوجه إلى الأمة العربية خطاباً هامًّا ، وبانتظار ذلك الخطاب كانت الإذاعة لاتنى تذيع أغنيات كدنا ننساها : ويا شباب النيل ، ياعماد الجيل ، هذه مصر تناديكم ، فلبوا دعوة الداعى إلى القصد النبيل . . مصر أخيراً ، وأخيراً جدًّا ، تأتى على لسان مذيع إذاعة القاهرة وتتغنى بها مطربة الشرق الأولى أم كلثوم ، ماذا جرى ؟ لابد أن فى ذلك مؤشراً لما سيعلنه عبد الناصر ، ثم جاء عبد الوهاب ليغنينا : مصر نادتنا فلبينا نداها . . ومين زيك عندى ياخضرة . . إن مصر لم تعد هرطقة فى طقوس العروبة . . لكن خطاب عبد الناصر جاء فى المساء لينسف كل شىء ! لقد أعلن الرجل رحمه الله أنه لن يقيم حصاراً سياسيًّا حول الشعب السورى ، يقول ذلك – على حسب

نص كلماته – ولما تعترف بسوريا بعد سوى أربع من الدول ، كان ذلك يفتح الطريق واسعاً أمام الاعتراف بالوضع الجديد فى سوريا ، وإن كان فى الوقت نفسه يتخذ قراراً بقطع علاقاته السياسية بهذه الدول الأربع لأنها سارعت بالاعتراف . . بالوضع الجديد بسوريا. أما الاستفتاء الذى قام وأسفر عن قبول الوحدة بأغلبية ٩٨,٩٪ فى سوريا ، و ٩٩,٩٪ فى مصر – فهذه أمور لاينبغى أن نسأل عنها ، فلا العدالة ولا الحق ولا حتى النوايا الطيبة والحكمة الراسخة هى التى تتحكم فى موازين العلاقات بين الشعوب ، لكنها القوة . . ولا داعى هنا للاستطراد . أما الذى جاء لغزاً فى خطاب عبد الناصر بالنسبة لى فهو قوله : إن القاهرة ستظل حاملة للواء الجمهورية العربية المتحدة مغنية لنشيدها ! وفى الصباح أكدت الصحف أن اسم الجمهورية العربية المتحدة (المقدس) سيبقى ، وبدأت فترة طويلة . . طويلة اغتربت فيها مصر داخل مصر ، وحيل بين المصريين وبين أن يكونوا مصريين ، وظللنا نقرأ أونسمع فى البيانات الرسمية كيف أن الوفدين العربى والسعودى قد اجتمعا وتوصلا إلى كيت وكذا ؟ أو أن الوفدين العربى واللبنانى ، أو العراق أو . . وأنهما . . ولم يكن الوفد العربى هذا سوى الوفد المصرى . .

هل كان فى ذلك حرصاً على العروبة ؟ أقول مع الأسف : لا ، بل لقد جاء بالنقيض ! لقد أدى هذا الإجراء الساذج إلى إلقاء شبهة غير مستحبة على اسم مصر ، لماذا يكون اسم مصر مناقضاً للعروبة ؟ ولماذا ندعم نحن فكرة كهذه ؟ بل ومامعنى اسم الجمهورية العربية المتحدة الآن ؟ مازلت أذكر صديقى مصطفى المدرس بإحدى مدارس الجيزة وهو يقول لى :

– يا أخى حاجة تحير . . الأولاد وهم بيملوا استمارات الامتحان سألونى ماذا نكتب فى خانة الجنسية ؟

– وماذا قلت لهم ؟

قال بلهجة من جازف مجازفة قد تورده موارد التهلكة ، وليكن ما يكون :

– قلت لهم قولوا مصرى .

ثم أردف

– ألسنا حقاً مصريين ؟ شىء يبعث على الجنون .

وكانت هذه هى حيرتنا جميعاً ، وهوجنوننا الحقيق. لمصلحة من ننكر على أنفسنا هويتنا ؟ وما الذى جنيناه حتى الآن سوى الهوان ؟ كانت مصر غريبة على نفسها ، مصر التى ظلت هى مصر على مر العصور والأزمان . . حتى فى ظل الخلافة الإسلامية ، كان العرب يتباهون بمصر . . ثم جاء واحد من أبنائها ليطمس اسمها ، وحين كان اسم مصر يأتى على لسانه فى خطاب ، وحين يخاطب فى حديثه « شعب مصر الطيب الأصيل » كنا ننظر بعضنا إلى بعض فى فرحة وأمل :

– لقد جاء اسم مصر على لسانه .

– ياأخى أصل اللى شافه م العرب . .

وبدأت مصر تصبح المقابل للعروبة . . والمصريون هم المقابلين للعرب ، ولا يمكن أن يكون ذلك فى مصلحة أحد على الإطلاق .

تخبط . .

كان علىّ أن أترك عملى بالتدريس بسرعة فائقة ، فقد اكتشفت أن وزارة التربية والتعليم قد سحبت قرار ترقيتى بعد صدوره بعام ونصف العام ، إننى لن أتسلم حتى راتبى ذا السبعة عشر جنيهاً ، لماذا ؟ لايهم ! ولكن الذى يهمنى فى مجالنا غداً أن أبين أن ميزانية الوزارة فى مصر الثرية التى كانت تبعثر هنا وهناك فى كل مكان لم يكن بها ما يفى بحركة الترقية التى أستحقها ويستحقها معى عشرات

بسبب حصولهم على مؤهل عال . .

كانت الوزارة -كان الله فى عونها - لاتستطيع تدبير مبلغ ١٠ آلاف جنيه لاأقول لإسعاد مئات من العاملين فيها ، فلسنا نتسول ، بل لإعطائهم بعض حقوقهم ، لكن علينا أن نلتمس العذر لظروف بلادنا التى شرعت تحارب الاستعمار فى كل مكان وتدعو للعروبة والوحدة فى كل أطراف الأرض ، وفى سبيل المجد يهون كل شىء وكل فرد .

لكن الأمر العجيب هو الذى ما لبث أن حدث : لقد غمرت السلع الاستهلاكية الأسواق ، وعجب الناس من الأرز الأبيض الممتاز والسكر . . بل الخضراوات والفاكهة التى أصبحت لاتجد من يشتريها . وهمس الناس :

-كل ده كان بيروح لسوريا . .

وأصدرت الحكومة تعليماتها للضرائب العقارية بالنزول عن حصة الدولة لمصلحة السكان وربط الناس بين الأمور :

-كان الانفصال بالنسبة لنا فاتحة خير .

وخفضت الحكومة الإيجارات للمرة الثانية أوالثالثة لست أذكر على حساب الملاك هذه المرة ، ثم أصدرت الدولة تسوية شاملة لكل الذين حصلوا على مؤهلات فى أثناء الخدمة فى كل وزارات الدولة وتيقن الناس :

- عظيم كانت سوريا حقًّا تستنزفنا . .

وفى الجامعة والمدارس سمح لمن لم يسدد المصروفات بالحضور والانخراط فى الدراسة وتسلم الكتب . بل لقد خفضت المصروفات فى المدارس الثانوية بما يقرب من ١٢ جنيها فى العام لتصل إلى ٣ جنيهات فقط . .

بصراحة شديدة كانت الحكومة ترشو الشعب ، ولم تكن تدرى أنها تلعب هنا لعبة خطرة ! فى حين ضحت باسم مصر ظنًّا منها أن العودة إلى اسم مصر

يعنى جفوة مع العروبة أو رده عنها ، وهو ظن خاطئ وضار . فإنها هنا تناقض نفسها ، إنها تقنع الناس من أقصر طريق أن العروبة والوحدة العربية لاتعنى سوى انتزاع لقمة العيش من أفواههم . . وهذه نتيجة أخطر . .

وقد يجادل متعاطف مع ما كان يتم بأن الأمر لم يكن سوى إجراء مرحلى ، لكننا بذلك نضع يدنا على أس الداء ، فهذه الإجراءات المرحلية ، هذه الكذبات القصيرة لاتفعل على المدى الطويل سوى أن تهز الثقة وتمحو الإيمان بالأهداف الكبرى وتجعل البناء العظيم القائم – إن كان أتيح له حقاً أن يقوم – يغوص فى أرض من رمال !

على كل حال ، فتحتَ إنكار اسم مصر بدأت حركة خلق وتنمية فى الداخل لن تعنى سوى أن الثورة لم يعد لها طريق سوى مصر ، إن مصر – مع إنكار اسمها – ستبدأ بتنمية شاملة لتعطى النموذج الذى يحتذى فى العالم العربى إدراكا بأن الوحدة العربية لن تتحقق مطلقا إلا إذا كانت مصر قوية مهيبة غنية لايخشاها أناس يعانون من كثافة سكانية متخلخلة ، ولاأصحاب ثروات عابرة يظنونها طامعة فيما فى أيديهم فى حين يبعثرونها هم ذات اليمين وذات الشمال . .

كانت مصر – ولو فى غيبة اسمها توشك أن تعود بأقدامها التى حادت عن الطريق إلى طريق الصواب ، ولو أن السلطة فيها كانت مرغمة على ذلك بفعل حملات راديو عمان وبغداد ودمشق الانفصال . وبفعل مانالها على يد السوريين من شتائم مقذعة فى مؤتمر شتورة ، التى أشعرت مصر أنها فى عزلة . . لولا أن جاءت ثورة اليمن . .

ومن جديد ، تحولت كل إمكانات مصر إلى خارج مصر ، بدون حساب وباندفاع . . كأنما كانت ثروات مصر قد ضاقت بانحصارها داخل مصر ، وهو أمر لم تألفه من سنوات فوجدت فى ثورة اليمن الثغرة التى أتاحت للغازات

الحبيس أن تنطلق بعد طول كبت ، فاندفعت بقوة لتهطل على أرض اليمن !

لم لا ؟ إن السعى وراء الحلم أمر يهون فى سبيله كل غال ، كثرواتنا – وكل رخيص كدمائنا ، وكل شعار حتى لو كنا نحن الذين أطلقناه ، وبدأت أجهزة الإعلام تتحدث عن الانتصارات وعن المجد المظفر وعن الحرب الإنسانية التى نخوضها هناك لتنقل اليمن من عصر الكانون إلى عصر البوتاجاز . . مع أن ريفنا فى كل مصر ، أى فى كل الجمهورية العربية المتحدة ، لايزال يستخدم الكانون ، ويستخدم روث الماشية وقوداً حتى اليوم !

هل هى حقاً مجرد حركة انفصالية ؟

ظلت أجهزة الإعلام توجه هجومها الحاد على سلطات دمشق واصفة الحكام هناك بأنهم انفصاليون وقادة لحركة انفصالية ،كنت أسمع ذلك وأتذكر ماحدث وما رأيت من مظاهرات التأييد للانفصال وأقول : لابأس هجوم مقابل هجوم ، لكن الأمر مع استمراره كان يشكل فى رأيى نوعاً من خداع النفس وليس نوعاً من العماء ، لقد رأينا كل شيء لكننا نصر فى مسيرتنا العربية التى لم تتسم لحظة واحدة بالصدق مع النفس ولامع الغير ، على أن ما حدث فى سوريا كان مجرد حركة انفصالية . . قادها عسكرى مغامر هو عبد الكريم النحلاوى ضد إرادة الشعب ، وفى مصر كانت القصة تكتمل ، وكان يلم بها أكثر من الشعب نفسه ، الدعاة والقائمون أنفسهم على أمرنا الذين ذبحوا اسم مصر قرباناً لعرش لايرضى أبداً ولايشبع أبداً ، ولم نستطع قط أن نعامله لأننا لم ندرك الطريقة الحقيقية للتعامل معه .

لقد حدث تمرد فى صفوف القوات السورية التى كانت تعمل فى صفوف القوات المسلحة فى مصر ، وتمرد كذلك طلاب الكليات العسكرية السوريون ،

الطلاب الذين كانت تقدم لهم وجبات تماثل وجبات الضباط وليس الجنود كما يحدث مع الطلاب المصريين ، ومع ذلك فقد رفضوا الطعام وطلبوا طعاماً أفضل وأجيبوا إلى طلباتهم لأن السياسة جرت على إرضاء السوريين بأية وسيلة ، ولو كانت مخالفة حتى للصرامة العسكرية المعهودة والضرورية ، وحين توجه الفريق جمال فيصل السورى قائد الجيش الأول إلى القوات المتمردة للتهدئة من ثائرتهم ولتذكيرهم بالقسم الذى أقسموه ، قسم الولاء للوحدة ولدولة الوحدة وزعيمها - عومل بأقسى مما عاملته به هو وقائده المشير سلطات الانفصال فى سوريا ، وصاح فيه المتمردون يتهمونه بالخيانة . لمن ؟ لسوريا بالطبع ، سوريا التى يحق لها أن تنسلخ عن دولة الوحدة لتأخذ مكانتها بين الدول ، ثم تنكر على مصر حتى أن تعود إلى اسمها !

هل كانت بمصر سلطات انفصال إذن لترغم هؤلاء على اتخاذ الموقف الذى اتخذوه ؟ وهناك أمر آخر لايقل عن ذلك دلالة : لقد حدث أن قام السوريون المقيمون فى مصر الجديدة بالاعتداء على أهالى الضاحية واستخدموا العنف وأغلقوا المحال ، وتستحق هذه الحادثة وقفة قصيرة . . وأليمة . . إن عملاً كهذا قد ظل سراً لايعلم به أحد ! هل يمكن أن يكون أمر كهذا سراً من الأسرار ؟ هنا تتجلى العبقرية الشيطانية حقاً للأجهزة التى كانت قائمة ، كيف أمكن حقاً أن تحجب الأخبار عن القاهرة ومصر الجديدة ضاحية من ضواحيها ؟ لكن الأمر المؤكد أن الخبر قد تناثر هنا وهناك ، لكنه ظل فى حدوده المحدودة يلزمها ولايتجاوزها ومن ثم لايأخذ حجمه الحقيقى . لماذا ؟ لأن أجهزة الإعلام هى التى تستطيع أن تعطى حجماً كلَّ شىء فتجعل من التافه خطيراً ومن الخطير تافهاً ومن المحدود شائعاً ومن الشائع محدوداً ، ولقد ظل الأمر سراً حتى أذاعه عبد الناصر بنفسه . ومتى ؟ خلال محادثات الوحدة الثلاثية . . ولم يتح لهذا السر

كذلك أن يذاع إلاحين أمر هو بعد ثلاثة أشهر من هذه المباحثات أن تنشر محاضرها الكاملة بالأهرام . . وهنا فقط علمنا بالنبأ ، وتساءلت : إذن فهل يمكن الإصرار على القول بأنها مجرد حركة انفصالية ؟ لكن أحداً لايستمع إلى صوت العقل وسط ضجيج أجهزة الإعلام هنا وهناك . . ووسط زمجرة الطموحات ، وطنين الأحلام الوردية ، والدامية والمستحيلة معاً !

وأكثر من ذلك ، فها هى ذى سوريا تخطو خطوة حقيقية نحو تصحيح مسارها الوحدوى ، وتثور على حكامها الانفصاليين وكم هللنا للثامن من آذار . ونحتفل به حتى اليوم دون أن ندرى أنه كان البداية الحقيقية لتكريس حكم الانفصال ، وإيذاناً ببدء الدولة الانفصالية الثانية .

٨ آذار على طريق الوحدة الشاملة !

ظلت الاضطرابات والقلاقل تعم سوريا . فى كل أسبوع وزارة ، وفى كل يوم زعيم وفى كل شهر تكنس مكنسة السياسة السورية — من يمسك بها حقًّا ؟ عشرات من الزعماء لتلقى بهم إلى مزبلة التاريخ . . عادت لسوريا لتصبح — هى سوريا حسنى الزعيم وسامى الحناوى وأديب الشيشكلى . . سوريا الانقلابات والقلاقل ، كل فئة تزيح فئة لتزيحها فئة ، وكل رأى له أنصاره ، وكل طائفة لها وجودها المتوازن مع الفئات الأخرى : المدينة والبادية . . العرب والأكراد والشركس ، الدروز والعلويون والشيعة وأهل السنة . . كل الطوائف الدينية ، ممالك سوريا الخمس التى قسمها إليها الاستعمار الفرنسى . . ترفضها سوريا بحس قومى وكبرياء . لكنها تسير على الدرب نفسه دون إعلان . . المسافات الشاسعة والخلاء الواسع يشكل حاجزا دون التفاعل والالتحام . . ورحم الله أيام الوحدة وزعامة عبد الناصر ، وتزيد المظاهرات وتعم القلاقل

وترتفع صورة الزعيم الأسطورة لتتوحد خلفها فئات لم تجد ما يوحدها ومن يوحدها داخل قطرها . . ويسير بها فى الطريق المحتوم ، المحكوم بعقدة السورى لا العربى .

هل يمكن أن تعود الجمهورية العربية المتحدة مرة أخرى لتتكون من قطرين : شمالى وجنوبى ، سورى ومصرى ؟ هل يمكن أن يعود عبد الناصر ليطل من شرفة قصر الضيافة فى دمشق ، ولن تطالبه الجماهير بعد ذلك بالمطر ، الذى هطل – وياللعجب – بعد الانفصال غزيراً حتى تحوَّل إلى سيول قطعت الطرق .

وفجأة أعلن راديو دمشق قيام ثورة الثامن من آذار (مارس) بقيادة زياد الحريرى ، ثورة جاءت لتمحو مافعلته زمرة الانفصال الآثمة ، وتعيد وشائج الوحدة ، ولست أدرى حتى اليوم أى تطورات تلك هى التى أدت إلى اختفاء زياد الحريرى لكى يبرز على السطح لؤى الأتاسى ؟ إن مصر القومية ، بتدخلها فى اليمن ، قد فرضت هيبتها على المنطقة من جديد وعبد الناصر يجتاز الحصار المفروض حوله منذ مؤتمر شتورة ليضرب ضربته فى اليمن .

ثم يسقط حكم عبد الكريم قاسم فى العراق ، ويستولى البعث العراقى فى ثورة ١٤ رمضان على مقاليد الحكم متستراً خلف عبد السلام عارف ويعلو نجم على صالح السعدى وتدور المذابح المألوفة فى عاصمة الرشيد ويشنق الشيوعيون هذه المرة على أعمدة النور ، ومن عجيب حقاً أن عراق اليوم يعتبر ماحدث فى ١٤ من رمضان ردة ، مع أن حكام اليوم هم امتداد لحكام ١٤ من رمضان ، البعث هو البعث ، وعلى صالح السعدى حين جاء يفاوض على وحدة ثلاثية كان يشاركه فى ذلك ميشيل عفلق نفسه ، لكن لاتحاول أن تفهم شيئاً فلن تفهم مطلقاً !

وتأتى الوفود إلى عبد الناصر ساعية إلى وحدة ثلاثية ، إلى إعادة الجمهورية العربية المتحدة من ثلاثة أقطار على قدم المساواة : مصر ، سوريا ، العراق ، ويشعر عبد الناصر برهبة الموقف ، يجد نفسه اليوم ليس الزعيم المطلق ، وإنما زعيم عليهم بشروطهم ، أما مصر التى لاتذكرها إلاعند الملمات فتواجه - كما عبر عبد الناصر نفسه - بفكى الكماشة البعثية ، ولتقرأ من جديد محاضر الوحدة الثلاثية ، وقد تبرع هيكل بنشرها فى الأهرام ثم بجمعها فى كتاب - هل قرأه هو ليراجع نفسه فيما يقول اليوم ؟

لكن اللعبة لم تنطل على أحد ، بل أكثر من ذلك فإن الذين لعبوها هم الذين تطوعوا بفضحها ، وعادوا إلى بلادهم يطاردون كل صوت يرتفع بطلب الوحدة ويسحلون كل من يدعو إلى وحدة مع عبد الناصر على غير طريقتهم ، وبصراحة أكثر كل من يؤمنون بزعامة عبد الناصر .

لم تكن دعوة الوحدة إذن سوى ستار لتثبيت دعائم حكم انفصالى هنا وهناك ، ولم تكن ثورة آذار (التى نحتفل بها كواحدة من أعيادنا القومية) إلا مدخلاً مأموناً لقيام دولة الانفصال (الثانية) والتى لايستطيع أن يرسخها سوى البعث داعية الوحدة وصانع الانفصال .

وكان لابد أن يعلن عبد الناصر فى يوليو ١٩٦٤ أن لاوحدة مع البعث ، لاوحدة مع دعاة . . اسحلوهم اقتلوهم . . لاوحدة مع مصاصى الدماء . . وهللت جماهير مصر وصفقت . ونعى عليها راديو دمشق - الذى لايعرف الكلل فى إذاعة كل ماهو متناقض وعجيب - إنها صفقت لعبد الناصر وهو يرفض الوحدة .

وبدأت مرحلة من ملاحقة الناصريين فى بغداد ودمشق . . وعادت المظاهرات إلى شوارع دمشق . . لكن قمعها اليوم بات أيسر ، فالكرابيج التى

تلهب ظهور المتظاهرين كرابيج وحدوية . . والمشانق أيضاً كانت وحدوية . . وكذلك كانت رصاصات الغدر والاغتيال . .

ولله فى دنيانا العربية شئون وشئون . . إنها قصة طويلة ودامية حقاً لاتحتاج للإلمام ببشاعتها إلا لإعادة تقليب صفحات الصحف التى كانت تصدر فى تلك الأيام . .

صدفة . . وما أكثر الصدف !

كنت أضرب على غير هدى فى شوارع القاهرة ، غريباً وسط بلدى . أحاول تدبير حياتى بهذه السبعة عشر جنيهاً ، لقد بات مستحيلاً أن تزيد مليماً واحداً . . فيما عدا العلاوات المعهودة . . وينبغى أن نرعوى ونضع فى وجوهنا بعض دماء الحياء لنعذر وطننا الذى تزيد عليه الأعباء فى اليمن وقبرص وجميع أنحاء المعمورة . . وعلىَّ أن أحمد الله كثيراً . فقد أفلحت بتركى التدريس أن لا أفقد الدرجة التى حصلت عليها . . إن الأيام لاتطرح علينا ماهو أفضل أبداً ، بل إنها فى أحيان كثيرة تهددنا بأخذ ما فى أيدينا نفسه ، والذى نشكو منه ولانرضى به ، لتجعلنا ننظر إليه باعتباره نعمة ينبغى أن نعض عليها بالنواجذ . .

كنت هائماً فى شوارع القاهرة أحاول تدبير أمور معاشى والتزاماتى ، أشكو من إحالتى إلى المعاش منذ سن الخامسة والعشرين ، فالعمل الذى وُكِلَ إلى لم يكن له من التزام سوى أن ألزم المكتب الذى أجلس عليه ، أن أعتقل اختياريًّا لمدة ست ساعات فى اليوم لأحصل فى مقابل ذلك على راتبى . .

كنت أشكو هوانى على بلدى التى لاتسمح لى حتى بالعمل ولو فى مقابل هذا الراتب الهزيل ، وأعجب من رد تلقيته من رئيس العمل الجديد ، حين شكوت رسمياً أننى لاأعمل ، رد فحواه أن على أن أقوم بما أكلف القيام به من

عمل وإلا انظر فى أمر جزائى ! .

كنت أحادث نفسى بعد أن اضطررت أن أجد لنفسى عملاً إضافياً ، مدرساً فى مدرسة ليلية ، لأحصل على دخل يعاوننى فى شئون حياتى ولأحوز قيمة أمام نفسى ، وكلاهما عندى يتعادلان ، وكنت كذلك أحاور نفسى ، لقد بدأت أخطو خطواتى الأولى فى عالم الكتابة . .

كنت فى دوامة من أمرى ، لا أدرى ماذا يحيط بى ؟ ولا كيف يتاح لى أن ألتمس وسط مخاطر الطريق طريقى ؟

وفجأة وجدته ، كدت أصطدم أنا وهو ، تنبهت وهممت بالاعتذار فلابد أننى المخطئ لكننى وجدته (حسين) . . يالها من صدف عجيبة لكنها صدفة محكومة حقاً ، فحسين الآن لاجئ بالقاهرة . وكنت قرأت اسمه واحداً ممن تطاردهم حكومات الانفصال التى توالت على سوريا ، وواحدا ممن يدبرون المظاهرات تأييداً لعبد الناصر . .

– أهلين . . قلتها بالسورية ، ورد هو باللهجة المصرية .

– أهلاً ياخويا ، تعال أنت فين دلوقت ؟

زرته وزارنى ، وتكررت زياراتى له ، ماذا أقول ، إن القدر وحده هو الذى يختار لهذه القصة نهايتها ، بعد أن شاء لها أن تكتمل . .

وجيه مصطفى . . لاجئاً سياسياً :

كان حسين . . يقيم فى شقة مفروشة واسعة بباب اللوق ، ويشاركه فى مسكنه مازن النقيب المذيع السورى الفلسطينى الأصل ، والذى قدمته لنا مطابع الدار القومية للنشر شاعراً تعطى مؤلفاته المحدودة القيمة الأولوية على كل إنتاج أدباء مصر ، وكان يشاركهما زميل ثالث لاداعى لذكر اسمه . .

وهكذا استطعت عن طريق حسين أن ألج عالماً غريباً كان يعيش على هامش القاهرة ، بمعنى أنها لاتدرى به ، لكنه – وبشكل وحدوى قومى لامراء فيه – يحصل من المكاسب والمغانم ما لايمكن هذه القاهرة أن تعقله أوحتى تتخيله .

وتشاء ظروف القدر التى عن طريقها وحدها تتلاقى خيوط هذه الشهادة ، أن يكون المقهى الذى اعتدنا الجلوس عليه ، بعد أن خطوت خطواتى الأولى فى عالم الكتابة هو المقهى نفسه ، أوللدقة واحدا من الأماكن التى يمارس فيها سادتنا اللاجئون نضالهم . .

فى هذه المنتديات وجدت عجباً ، كل هؤلاء لاجئون سوريون ؟ كل هؤلاء مناضلون قوميون ، وهل هنا فى مصر مكان النضال أوهناك فى سوريا ؟ ولكنك لاحظت أنهم يلاحقون هناك ، لهم عذرهم . . ولكن هل يصدق ذلك على وجيه مصطفى .

سألت عنه فقيل لى ، هم الذين قالوا ، إنه شخص لزج لايعلمون عنه الكثير ، وليست له انتماءات سياسية واضحة فى سوريا ، لكنه ، سبحان الله ، لاجئ سياسى ، لاجئ مِهمٌ ؟ لا أدرى ، ولكنى أدرى حقًّا إلام هو لاجئ ؟ إلى مصر إلى القاهرة مدينة العرب ، هكذا بدأت تتحقق شكاوى القراء العرب فى ١٩٥٧ وتحولت القاهرة إلى مدينة العرب ، وهكذا كذلك بدأ اللجوء السياسى يتحول إلى مهنة مجزية ، حتى إننى فى بعض الأحيان كنت أشك أن سلطات الانفصال هى التى تشجع مواطنيها على احتراف اللجوء السياسى لترتقى دخولهم أوليستنزفوا مصر وعبد الناصر ولكى يسهل لهم كذلك أن يتجسسوا عليه ، ويعرفوا نواياه . . على نفقته هو . . وعلى حساب مصر ! كان الرجل فى سنى نفسها ، ولكنه وسبحان مقسم الأرزاق ، يحصل على مائتى جنيه فى الشهر نظير

لجوئه السياسى ، فى حين أظل أنا أحصل على ١٩ جنيهاً بعد أن زاد قانون العاملين الذى أصدره على صبرى بعد طول عذاب - لنا بالطبع - مرتبى جنيهين كاملين . وأستبعد منذ الآن أن أقارن نفسى بعلية القوم : علية المناضلين السوريين الذين سكنوا القصور وركبوا العربات الفارهة ، وأجريت عليهم المخصصات والمخصصات . . لكننى أتحدث عن المناضلين العاديين مرتادى المقاهى . . فدنيا اللجوء السياسى العجيبة تنقسم بدورها إلى طبقات ومقامات . . ولكل مقام رزقه من لدن معط وهاب ، وكنت أجلس بين أقرانى هؤلاء أسمع وأتسمع ، وأرقب مايدور من حوار ، وأجدنى لاأسمع من هؤلاء الزعماء الصغار الذين أنيطت بهم أقدار الوحدة العربية ، مايمكن أن يعد فذًّا أوعبقريًّا وأسأل نفسى ماذا يقول هؤلاء لعبد الناصر؟ وماذا يظن هو فيهم ؟ وأنظر لأدباء مصر الشبان من حولى : إن أى واحد من هؤلاء البؤساء أكثر عمقاً وجدارة من هؤلاء الزعماء ، لكن الزعامة موهبة وعطاء ورزق أيضاً .

ويأتى النادل ، وتدور أكواب القهوة والشاى ، ونتهرب نحن أبناء مصر من المشروب الذى قد يشكل ثمنه عبئاً علينا لانطيقه ، فيتبرع إخوتنا فى العروبة بالدفع لنا ونحتسى الشاى هذه الليلة وأقول لنفسى إنها أموالنا ردت إلينا وأضحك ، وأغادر المدرسة الليلية التى أعمل بها مرهقا لحد الإعياء وأجلس بينهم . . هؤلاء الزعماء ينُظِّرون لى ولك ولكل جماهير أمتنا من المحيط إلى الخليج ، ويجالسون فوق ذلك كله عبد الناصر . . ويحصلون فقط على مائتى جنيه للواحد منهم ، وسألت عن كثيرين منهم ولم أفز بجواب يشفى غليلى . . كلهم . . وجيه مصطفى ، كلهم زعماء ، ونحن الجماهير ، نحن الوقود ، نحن الجنود وهم القادة الأفذاذ . . وأكتم حسرتى وأسكت ، ويقول حسين مازحاً :

- أستاذ . . مابدك تحكى عما شفت هنيك بسلمية . .

– ليش ؟

– مابتعرف ليش ، بدك تكون انفصالى ؟ . . وإلا إيه ياخويا ؟

لكننى أريد حقاً أن أكون وحدوياً . . أن أذوق حلاوة العروبة مرة ياأخى ، لكننى مصرى ، مصرى فقط فى حين أن القاهرة الآن مدينة العرب . . كل العرب . . إلاالمصريين !

وفكرت أنا أيضا أن ألجأ إلى مصر . .

بعد أن كان النضال ينتهى على مقهى ريش ، وتدق الساعة معلنة منتصف الليل ، كان يحل موعد بدء النضال القومى فى النايت أندداى فى سميراميس ، لم أدخل هذا النادى من قبل ، لكن عن طريق إخوتى فى العروبة دخلت نادى الليل والنهار هذا فى سميراميس ، لكن للإنسان كرامة ياأخى ، حتى لو برر لنفسه أن الطلبات التى يشربها والتى يدفع ثمنها إخوة فى العروبة . . إنما تسدد من أموال مصر . لذلك كانت دقات ساعة النضال تعلن انفصام الجلسة وأرقبهم يدخلون : سوريون وعراقيون وتونسيون وفلسطينيون و . . و . . ممثلون عن كل أقطار العروبة لجئوا إلى حمى الشقيقة الكبرى . . التى هى مصر . . والتى لها أبناءهم نحن . . أرقبهم ويسرح بى الخيال . . إننى مصرى ياأخى ولابد من نكتة أوفكاهة تساعدك على شرب المر ، ووجدت شريطاً سينمائيًّا . معالجة سينمائية للمشهد تتجسم كأنها الحقيقة ذاتها :

تدخل إلى النايت أندداى صفوف المناضلين العرب ، فراش سميراميس بملابسه المبرقشة ونظراته الصارمة وبشرته الجهمة السمراء يتفرس فيهم : لاجئ سورى ، ادخل ، عراقى ، ادخل ، تونسى ، ادخل (مصرى مافى لاجئين مصريين ، معلهش ، معاك فلوس ، أوحتى مصارى ، مش باين عليك ،

ارجع ، ويرجع أوأرجع أنا) وتأتينا الفكرة ؛ فى المشهد الثانى أتجه إلى المطار بعقد عمل مزور حتى أستطيع أن أفك من الأسر ، سأدعى أننى سباك ليسمح لى بالخروج . فى مطار بيروت أصرح تصريحاً ملتهباً ضد عبد الناصر ولمصلحة البعث ، أتجه إلى دمشق وأرفع من حرارة تصريحاتى ، أطلب اللجوء السياسى فأحصل عليه ، بعد مدة وبعد برامج تليفزيونية مصطنعة . وبعد برامج إذاعية لم يعد يصدقها أحد . . أصبح لعبة مكشوفة قديمة ، سيضجر السوريون منى وهم عمليون للغاية ، سيضيقون براتبى كلاجئ سياسى فأطلب الجنسية السورية ومن ثم يخف عبئى عن ميزانيتهم ، يعطوننى إياها وأعمل هناك فى أى مجال ويسعفنى اسمى لأكون سوريًّا خالصاً . محظوظ أنا وجئت فى موعدى مع القدر كما بشرنى زعيمنا وزعيم كل العرب هناك فى الشقيقة الكبرى مصر . ثم أنسل إلى بيروت ويبدأ المشهد الثالث ؛ فى مطار بيروت أصرح تصريحاً ملتهباً ضد البعث . أسافر الى القاهرة مدينة كل العرب ، أزيد تصريحاتى ضد البعث حدة وأرفع حرارة إيمانى بالقومية العربية وبزعامة عبد الناصر ، يعرضون على اللجوء السياسى قبل أن أطلبه . على المقهى إياه ، أدفع طلبات كل المصريين الذين لم يواتهم مثل حظى ، ويصبح الطريق مفتوحا إلى المشهد الرابع والختامى . فى طابور النايت أند داى يدخل السورى واللبنانى والعراقى والمغربى والتونسى واللاجئ الفلسطينى (ناهيك عن الأفارقة والقبارصة وثوار السفينة بونتى) ويأتى دورى ، يتفرس فى وجهى فراش الفندق ، ويكاد يهرش رأسه ، وأقول له : شو خيو ، وأشخلل بالنقود المكتظة فى جيبى .

– باردون أستاذ : اتفضل. حسبتك مصرياً .

أدخل دون أن أرد ، وينتهى المشهد ، ولكن لاتنزل الستار. ولكن لماذا نريد للستار أن ينزل ؟ لماذا لانثبت المشهد هنا ليتأمله كل من يريد أن يتأمل ؟ وهل أنا

ياسيدى أقل من وجيه مصطفى ؟ تنقمون على أنى مصرى ، فى مدينة أصبحت مدينة لكل العرب ؟ أليس المصريون أيضاً . . عرباً ؟

لكن المشهد الساخر لايبعث على الضحك بقدر مايبعث على البكاء ، أقول لنفسى ، وأتذكر خشيتهم من هجرة الفلاحين المصريين إلى أراضيهم التى يتركونها بوراً لأنها لاتجد من يزرعها ،أتذكر ضيقهم بحصص الشواغر التى كنا نقوم بملئها . . أتذكر حديث راديو عمان عن الاستعمار المصرى لسوريا . .

من غزا من ؟ ومن أفاد ممن ؟ واللهجة السورية فى كل شوارع القاهرة ومحال التجارة الكبرى فى أيديهم . . هل يجرؤ مصرى أن يمر حتى بأجواء دمشق ؟ هل يجرؤ مصرى أن يقيم هناك ؟ لقينا الأمرين تحت سماء الوحدة وحرمت علينا سوريا فى عهد الانفصال . . حتى مستحقاتنا ، بيوتنا التى صادروها ، أموالنا التى أخذوها ، لم ترد ، ولن ترد إلينا مطلقاً !

لكن الأمور لاتقف عند هذا الحد ، ولكل أمر تداعياته ، وبدأنا نقرأ مايؤكد لنا غربتنا فى بلادنا . . طالب أردنى يعاكس فتاة مصرية وحين يتصدى له أخوها يطعنه الأردنى بسكين ! هل يجرؤ أن يفعل شيئاً كهذا فى بلاده ، أوفى أى بلد غربى آخر ! لكنه خيو فى مصر حيث كل شىء مباح للعرب ، حرام على المصريين ! سبعة من الشبان العرب يختطفون فتاة فى سن السابعة ويحتجزونها فى شقتهم بغرض دنىء لمدة سبعة أيام إلى أن تكتشف أمها مكانها !

ليبى يلقى بخادمته المصرية من النافذة ! وآخر يحبس خادمته حتى تكاد تموت جوعا وتستغيث بالجيران ! أحداث نعرفها صدفة أولاتجد الصحف مناصاً من نشر بعضها حين يطفح الكيل .

إنه الهوان الحقيقى ، بل إن أجهزة الأمن تضطر أن تعقد الصلح بين الطرفين إذا كان المعتدى عربياً والمعتدى عليه مصرياً ! وليس العكس أبداً هو

الصحيح ! لقد أصبحنا فى بلادنا غرباء ، بل ليست لنا فى بلادنا حتى حرمة الغريب .

وليست هذه الأحداث الفردية إلامجرد عينات ، إنها تعبير عن مناخ بدأ يسود ، وانتهى ببلوغ ذروته حين صفع سفير أشد دول العرب تخلفاً وجعجعة فى الوقت نفسه جندى الحراسة على مبنى الجامعة العربية لأنه تجرأ على سؤاله عن شخصية من يدخل معه .

مع أن ذلك هو أبسط واجبات الجندى ! أحسست بها صفعة على وجوهنا جميعاً . . ويمنعنى حبى لمصر أن أقول . . إنها صفعة على وجه مصر نفسها . . أليس الجندى هنا ممثلاً لبلاده وسيادتها وسلطتها ؟

أليس هناك من سبل لتدارك كل ذلك ؟ . . يبدو أنه بعيد بعيد ، وعلينا أن نحل مشاكلنا . . بشكل فردى ، ولم يكن أمامى سوى حسين . .

المشهد الختامى :

عظيم أننا ساخرون ، ذلك ضرورى وإلا متنا كمداً وقهراً ، لكن السخرية لن تحل لنا مشكلة ولن تزيح عنا بلوى ، إنها فقط تبقى على حياتنا ، لنكن عمليين ، فهل هى انتهازية منى أن أوصى (حسين) وهو صديقى الذى يجالس عبد الناصر – شخصياً – بأن يتوسط لى . . أن يطلب إليهم أن يدعونى أخرج من بلادى . أن أضرب فى الأرض سعياً وراء الرزق . . إن بلادى لاتتسع لى ، تفتح ذراعيها لكل من هاجر إليها ، ويضيق صدرها بأبنائها ! إن بإمكانى أن أحصل على عقد عمل بإحدى الدول العربية ، ذلك أمر ميسور كما قال لى حسين . . لكن المشكلة أن سلطات بلادى فى ذلك الوقت لم تكن تسمح لأحد بالخروج !

أما لماذا فهذا مالم أفهمه حتى اليوم ؟ لكنه بنفوذه يستطيع أن يمنحنى هذه الفرصة وهو صادق فى وعوده ويهمه أمرى ، وكنت فى ذلك اليوم على موعد معه لأعلم نتيجة مسعاه . كانت اللوريات تطن من حولى هاتفة لدمال: واللافتات ترحب بإعادة انتخاب البطل لفترة رياسة جديدة ، والأغانى تسب البعث ابتداء من عفلق إلى البيطار والحورانى وأمين حافظ وكل القائمة . . تسب هؤلاء تارة وتغنى بأمجادنا الظافرة فى اليمن تارة أخرى ، والناس تهمس بالنكتة الشائعة عن بيان رسمى صدر بتأييد الثورة على السفينة بونتى وبأن أى تعرض لها من جانب القوى الكبرى يعد عدواناً على جيم عين ميم ، وطرقت الباب . كانت هناك لمة أعهدها ، لكن حسين كان غاضباً ، يقول بصبر نافد :

– والله ياأخى شىء تجاوز كل حد . هذا ياأخى مو معقول ، شو بده عبد الناصر يسوى أستاذ ، المتحدة أستاذ مايمكن تواصل مثل هيك مصاريف . . .

كان يثق فى ثقة لاحد لها لذلك فقد استمر بعد أن رحب بى ، بل لقد أشركنى فى الحديث :

– والله ياأخى مصر عم بتقوم بدور ماتقدر عليه حتى الولايات المتحدة الأمريكية . . لكن مصر ياأخى إمكاناتها محدودة . . شو بدى أقول ؟

ومع ذلك فقد كان محدثوه على إصرارهم نفسه . شو القضية ؟

القضية – ونحن الآن فى عام ١٩٦٥ أى بعد الانفصال بأربع سنوات – أن شاباً سورياً قد وفد إلى مصر لتلقى العلم . لكن ماهى المشكلة ؟ المشكلة أنه حاصل على مجموع ٥٢٪ وقبل فى كلية التجارة (فى هذا العام كان الطالب المصرى الذى لم يحصل على مايزيد على ٦٥٪ ليس له مكان بأية جامعة) لكنه يريد الطب ، ولن يرضى إلا بكلية الطب ، ولابد من حل فى إطار العروبة

والوحدة الشاملة والنضال فى مدينة كل العرب . .

– والله ياأخى مافى حل غير هيك . .

وبدأ ينصحه ، لاسبيل إلا أن يطلب هذا الشاب ابن السابع عشر ربيعا لجوءاً سياسيا إلى القاهرة ، الشاب الذى كان طفلا حين قامت الوحدة وصبياً عندما تم الانفصال والذى لم يعرف يوماً ماهو العمل السياسى ، بل لم يدرك لماذا قامت الوحدة ؟ ولماذا تم الانفصال ؟

وفى هذه الحالة – حالة طلبه اللجوء السياسى – سيدخل الكلية التى يريدها ويقيم بالمدينة الجامعية ويحصل على راتب شهرى طيلة دراسته قدره خمسون جنيهاً مصريًّا .

– لكن هذه خيو . . تحتاج لتدخل شخصية كبيرة مثل السراج (وكان السراج كما هو معروف قد جاء إلى مصر هاربا من سجن الانفصال)

كنت أكتم دهشتى مما أسمع وبعد ذلك قلت متلعثماً متردداً .

– مانسيت موضوعى ياأخ حسين ؟

– والله خيو . . هم قالوا لنا مالكو دعوة بالمصريين . . كونوا فى حالكم ، ودعوا المصريين إلنا .

وضحك وقال بالمصرية وهو يضرب على كتفى :

– نعمل إيه ياخويا ، هم اللى رأيهم كده .

وألححت فى الانصراف . . وحين خرجت كنت بحاجة لأن أتنفس بعمق . كنت أسعى جاهداً لألتمس منطقة خالية ، لأجلس على كرسى رخامى على كورنيش النيل ، ولاأدرى كيف شققت طريقى وسط الحشود التى سيرها الاتحاد الاشتراكى لتوكيد تمسكها بقيادة عبد الناصر وضجيج اللوريات التى تجوب القاهرة تملؤها الملابس البيضاء الناصعة تهتف لدمال وتطن هتافاتها فى أذنى ؟

كان طريقى عكس طريق المظاهرات . وكانت الصور المرفوعة كالأعلام ترقبنى .

وتذكرت نصيحة زميلى القديم بمدرسة عمرو بن العاص ، عبد المحسن حين كنا بميدان عابدين وقت إعلان الوحدة المباركة ، وهممت أن أشارك فى الهتاف حتى لاأسترعى إلى الأنظار ، لكن النفس لم تطاوعنى فغضضت من بصرى ولم تعد عيناى تقويان على النظرات التى تشع من الصور المرفوعة ترقبنى ، وتوجست خيفة . . فأسرعت الخطو ملتمساً النيل وأنا أردد : ليكن مايكون . . ليكن مايكون !

فهرس

رقم الإيداع	١٩٧٩/٣٥٦٦
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٧٧١ - ٨

١/٧٩/٤٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هذا الكتاب

يتعرض هذا الكتاب لأخطر تجربة مر بها الوطن العربى فى تاريخه المعاصر ، هى تجربة قيام الوحدة بين مصر وسوريا ثم انفصام عرى دولة الوحدة .

ومع ذلك فليس هذا كتاباً فكريا كما أنه ليس عملاً سياسيا ولكنه بالأحرى عمل أدبى ، إن لم يكن رواية فهو ملامس لها ، يتخذ من السياسة والفكر ركيزة له وينظر إلى كل ذلك باعتباره تجربة إنسانية . .